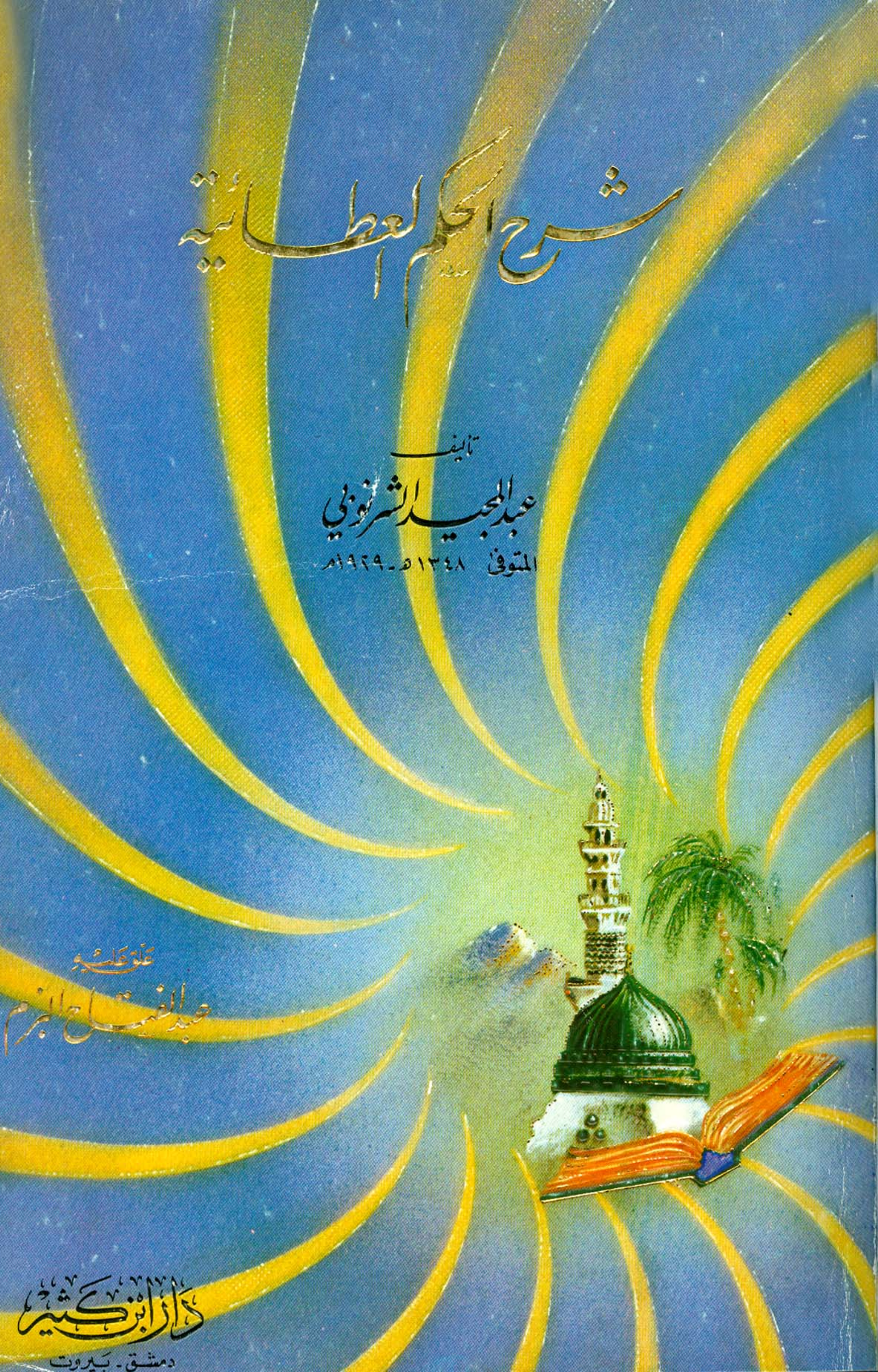


شرح الحكم العطائية
تأليف
عبد المجيد الشرنوبي
المتوفى ١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م
علق عليه
عبد الفتاح البزم
دار ابن كثير
دمشق - بيروت



تأليف
عبد المجيد الشرنوبي
المتوفى ١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م

علق عليه
عبد الفتاح البزم



دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية
١٤١٠هـ - ١٩٨٩م
عدد الطبع : ٢٠٠٠ نسخة
مطبعة ابن سينا



للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - شارع مسلم البارودي بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٣١١ - هاتف ٢٢٥٨٧٧
بيروت - ص.ب ١١٣/٦٣١٨

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه، ومن اتبع سنته إلى يوم الدين.

وبعد:

فإني لأعترف بما كان للحكم العطائية من كبير أثر في زيادة يقيني بالله سبحانه، وحسن توكلي عليه، وشدة ثقتي به جل وعلا؛ عندما أسند لي شيخنا الراحل الشيخ محمد صالح فرفور ـ رحمه الله تعالى ـ تدريسها في معهد الفتح الإسلامي، قبل حوالي عشر سنين. فأصبحت صلتي بها وثيقة، وتعرفت على ما فيها من خير عميم، استقاه مؤلفها ـ رحمه الله تعالى ـ من الكتاب والسنة، بعد أن صفت روحه، وعرجت إلى الملكوت الأعلىٰ فعادت وعلى ثنايا لسانه تلك الحكم التي ترجم فيها صفاء روحه، وصدق معاناته. فجاءت مفيدة نافعة، تحل سويداء القلوب ـ لأن الكلام إذا خرج من القلب دخل إلى القلب ـ يشعر القارىء خلالها إخلاص قائلها، وصدق لهجته، وحسن توكله على الله، وكبير ثقته به سبحانه وتعالى.

ولقد أجمعت في نفسي أن أجعل لها شرحاً موجزاً، مؤيداً بالكتاب والسنة، وبعد أن اطلعت على بعض شروحها لفت نظري إلى شرح الشرنوبي أحد من ترامى إلى سمعه ذلك، فوجدت فيه طلبتي التي كنت أنشدها. فآثرت أن أُظهر من جديد عمل الشيخ الشرنوبي ـ رحمه الله سبحانه ـ إذ وجدت فيه الغُنْيَةَ عما عزمت عليه، فرجعت إلى عدة طبعات للكتاب، فقارنتها وحققت

عباراتها وأثبت ذلك، وأشرت في الهامش إلى بعض ما في العبارات من خلل، وكان ذلك قليلاً وليس فيه كبير اختلاف. كما أنني رجعت إلى عدة طبعات للحكم بالذات وحققت فيها، وأثبت ذلك وأشرت في الهامش أيضاً إلى ما فيه اختلاف في نص الحكمة. وجعلت في مطبوعتي هذه؛ نص الحكمة بحرف أسود، ثم شرح الشرنوبي بحرف أبيض، ثم ما رأيته من تعليقات بحرف صغير، مع تخريج للآيات، وذكر لتمامها أو ذكرها مع ما قبلها أو ما بعدها، إن دعت الحاجة لذلك، مع إثبات تخريج الأحاديث، التي قام بتخر يج معظمها العالم الفاضل الأستاذ عبد القادر الأرناؤوط ـ بارك الله في حياته ونفع به ـ وآثرت أن أذكر أيضاً نص بعض الأحاديث بتمامه ليعم النفع، لما وجدته فيه من معنى جليل، وخير كثير نحن بأشد الحاجة إلى التحقق به سلوكاً وتطبيقاً.

كما ترجمت الأعلام التي ذكرها الشارح، ليتعرف القارىء على هؤلاء الرجال الذين بدت فيهم أمارات قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ألا إن أولياء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون* الذين آمنوا وكانوا يتقون* لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم *﴾.

ورأيت من الواجب أن أقدم بين يدي الكتاب، ترجمة مختصرة، لكلٍ من صاحب الحكم، الإمام ابن عطاء الله السكندري، وشارح تلك الحكم، الشيخ عبد المجيد الشرنوبي.

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل كما نفع بأصله، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم إنه سبحانه خير سميع وخير مجيب.

عبد الفتاح البزم

دمشق: غرة ذي الحجة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧/٧/٢٧ م

ابن عطاء الله السكندري

تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري. أبو العباس، وأبو الفضل، المالكي الشاذلي.

ترجم لابن عطاء كثير من المؤلفين، وتكلم بحقه علماء أجلاء، قدماء ومحدثون. ولعل أجمع ما قيل فيه: إنه العارف بالله، شيخ الطريقين، وإمام الفريقين، العالم الجامع لعلوم التفسير والحديث والنحو والأصول والفقه، الإمام الهمام، مرشد السالكين، وقطب الواصلين، وقدوة العلماء العاملين. لازم شيخه أبا العباس المرسي، اثني عشر عاماً، وصار من خواص أصحابه. توفي - رحمه الله تعالى - بالقاهرة في جمادى الآخرة سنة تسع وسبعمائة للهجرة.

ومن خير ما قرأت في ترجمة ابن عطاء، ما ذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب. ناقلاً أقوال كثير من العلماء، بحق ابن عطاء. قوله:

قال ابن حجر في الدرر الكامنة: صحب الشيخ أبا العباس المرسي، صاحب الشاذلي، وصنف مناقبه ومناقب شيخه، وكان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه.

قال الذهبي: كانت له جلالة عظيمة، ووقع في النفوس، ومشاركة في الفضائل، وكان يتكلم - بالجامع الأزهر فوق كرسي - بكلام يروّح النفوس. ومزج كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم، فكثر أتباعه، وكانت عليه سيما الخير.

قال ابن الأهدل: الشيخ العارف بالله، شيخ الطريقين وإمام الفريقين، كان

فقيهاً عالماً ينكر على الصوفية، ثم جذبته العناية فصحب شيخ الشيوخ المرسي، وفُتح عليه على يديه وله عدة تصانيف، منها الحكم. وكلها مشتملة على أسرار ومعارف، وحكم ولطائف، نثراً ونظماً. ومن طالع كتبه عرف فضله. توفي - رحمه الله تعالى - بمرسية في نصف جمادى الآخرة، ودفن بالقرافة، وقبره مشهور يزار.

وقال الكمال جعفر: سمع من الأبرقوهي، وقرأ النحو على الماروني، وشارك في الفقه والأدب، وصحب المرسي. «شذرات الذهب» لابن العماد (٦/ ٢٠).

وانطلاقاً مما نقله ابن العماد الحنبلي عن ابن الأهدل، من أنه كانت لابن عطاء عدة تصانيف، كلها مشتملة على أسرار ومعارف وحكم ولطائف، أرى من المناسب ذكر بعض تصانيفه كما وردت عند صاحب هدية العارفين، إذ قال:

من تصانيفه:

أصول مقدمات الوصول.
تاج العروس الحاوي إلى تهذيب النفوس.
التنوير في إسقاط التدبير.
الحكم العطائية على لسان أهل الطريقة.
الطريق الجادة في نيل السعادة.
لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن.
مختصر تهذيب المدونة للبوادعي في الفقه.
المرقى إلى القدير الأعلى.
مفتاح الفلاح في ذكر الكريم الفتاح.

«هدية العارفين» (٥/ ١٠٣).

وأما الحكم العطائية فقد عرفها صاحب كشف الظنون، فقال:

هي حكم منثورة على لسان أهل الطريقة، ولما صنفها عرضها على شيخه أبي العباس المرسي، فتأملها وقال له: لقد أتيت يا بني في هذه الكراسة بمقاصد

الإحياء وزيادة ولذلك تعشقها أرباب الذوق، لما رق لهم من معانيها وراق، وبسطوا القول فيها وشرحوها كثيراً.

وينقل عن شهاب الدين أحمد بن محمد البرلّسي المعروف بزرّوق، في شرحه للحكم قوله: إن الحكم مرتب بعضها على بعض، فكل كلمة منها توطئة لما بعدها، وشرح لما قبلها.

وأورد من شروحها:

١ ـ شرح شهاب الدين أحمد بن محمد البرلّسي المعروف بزرّوق.

٢ ـ شرح محمد بن إبراهيم بن عباد النفزي المرندي الشاذلي المتوفى سنة ٧٩٢ هـ. وسماه غيث المواهب العلية.

٣ ـ شرح أبي الطيب إبراهيم بن محمود الإقصوائي المواهبي الشاذلي الحنفي. ذكر أنه شرحها بمكة المكرمة سنة **٩٠٣** هـ وسماه: إحكام الحكم في شرح الحكم.

٤ ـ شرح صفي الدين أبي المواهب.

٥ ـ شرح محمد بن إبراهيم المعروف بابن الحنبلي الحلبي المتوفى سنة **٩٧٢** هـ.

٦ ـ شرح الشيخ محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوي المصري الشافعي. سماه الدرر الجوهرية.

انظر «كشف الظنون» (٦٧٥/١).

قال الإمام محمد بن إبراهيم المشهور بابن عباد، في مقدمة شرحه على الحكم مبيناً فضل الحكم ص (٦) ما نصه:

أما بعد: فإنا لما رأينا كتاب الحكم المنسوب إلى الشيخ الإمام المحقق العارف ابن عطاء الله السكندري ـ رضي الله عنه ونفعنا به ـ من أفضل ما صنف في علم التوحيد وأجل ما اعتمده بالتفهم والتحفظ كل سالك ومريد، لكونه صغير الجرم، عظيم العلم، ذا عبارات رائعة ومعان حسنة فائقة. قصد فيها إلى إيضاح طريق العارفين والموحدين وإبانة مناهج السالكين والمتجردين، أخذنا في وضع تنبيه يكون كالشرح لبعض معانيه الظاهرة.

عبد المجيد الشرنوبي

ترجم له كثيرون، وأكتفي بإثبات ترجمتين، أولاهما: ترجمة محمد مخلوف صاحب «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» حيث قال:

أبو محمد عبد المجيد الشرنوبي الأزهري العلامة المحقق المجيد، واسطة العقد الفريد العمدة الإمام المؤلف المحقق لهمام. أخذ عن جلة من علماء الأزهر.

له تآليف رزق فيها القبول منها:

شرح مختصر البخاري لابن أبي حمزة.
وشرح الأربعين النووية.
واختصر الشمائل المحمدية.
وشرح دلائل الخيرات، والجامع الصغير.
ودلالة السالك على أقرب المسالك.
ومناهج التسهيل على متن خليل.
ومناهج التيسر على مجموع الأمير.
وإرشاد السالك على ألفية ابن مالك.
والمحاسن البهية على العشماوية.
والكواكب الدرية على متن العزِّية.
وتقريب المعاني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني.
وشرح حكم ابن عطاء، وتائية الشيخ أبي العباس الشرنوبي.

وله ديوان خطب مثلث السجعات.

وديوان مربع السجعات.

وغير ذلك.

وكان حياً سنة **١٣٤٠** هـ أربعين وثلاثمائة وألف للهجرة. «شجرة النور» **(٤١٢)**.

وترجم له الزركلي في أعلامه، وذكر معظم الكتب التي أوردها مخلوف في «شجرة النور»، وأشار إلى أن جميعها مطبوع. وزاد على ذلك كتاب «تحفة العصر الجديد ونخبة النصح المفيد» وذكر سنة وفاته سنة **١٣٤٨** هـ ثمانٍ وأربعين وثلاثمائة وألف سنة **١٩٢٩** م تسع وعشرين وتسعمائة وألف للميلاد. «الأعلام» للزركلي **(٤/٢٩٢)**.

وثانيتهما: ترجمة عمر رضا كحالة صاحب «معجم المؤلفين» حيث قال: عبد المجيد بن إبراهيم الشرنوبي الأزهري المالكي، عالم مشارك في الفقه والحديث والتصوف واللغة والنحو وغيرها. ولد في بلدة (شرنوب) التابعة لمركز دمنهور بمديرية البحيرة بمصر، والتحق بالأزهر، وعين بدار الكتب الأزهرية. وتوفي سنة **(١٣٤٨)** هـ عن سن عالية. . . . اهـ «معجم المؤلفين» **(٦/١٦٧)**.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي عطاؤه قِسَم، وصنعه حكم. والصلاة والسلام على أفضل من نصح، وأعدل من حكم، سيدنا محمد سيدِ الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(وبعد) فيقول أفقر العباد إلى مولاه الغني عبد المجيد الشرنوبي[1] الأزهري ـ بلَّغه الله الأمل ووفقه لصالح العمل ـ: لما كانت حكم السيد السري العارف بالله تعالى سيدي أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري مِنْ أنفع ما يَتَوَصَّلُ به المريد إلى معرفة طريق العارفين الموصلة إلى ذي العرش المجيد، لاشتمالها على دقائق التوحيد المنيفة مع اختصار عباراتها الرائقة اللطيفة، أردت أن أشرحها بشرح وسط خال من التطويل واللغط يراه الناظر لها كالمصباح، ويتحقق أنه ثمرة ما غرسه الشراح. فإني دخلت بستان العارفين الأعلام واجتنيت يانع الثمرات من حدائق الأفهام، وقربت للجاني الجنى، ورجوت من الله بلوغ المنى، مع اعترافي بأن باعي قصير، وذهني كليل، لكن أردت التشبه بهؤلاء السادة على حد ما قيل:

فَتَشَبَّهوا إنْ لم تكونُوا مثلَهم ... إنَّ التَّشَبُّهَ بالرجالِ[2] فَلاحُ

(١) هو: عبد المجيد أبو محمد الشرنوبي: فقيه مالكي مصري أزهري. له كتب كثيرة في الحديث، والفقه، واللغة، والتصوف. توفي (١٣٤٨ هـ، ١٩٢٩ م). «الأعلام» للزركلي (٤/٢٩٢).

(٢) المشهور في هذا البيت: إن التشبه بالكرام فلاح.

وقد اختبرتها بالعد فإذا هي مئتان وأربع وستون حكمة، غير مكاتباته لبعض إخوانه، ومناجاته المشتملة على الحكم المهمة. فاخترت أن أذكر كل حكمة بتمامها بين قوسين، وأتبعها بالشرح، ليقرب للناظر فهمها، وتقر منه العين. وقصدت بذلك دخولي في عداد من خدم حكم هذا العارف الكبير. راجياً الاستمداد من بحر أفضاله، فإنه ذو المدد الشهير، وقد فُتح على كثير من أهل الأزهر ببركاته. نفعنا الله به، وأعاد علينا من باهر نفحاته.

كان رضي الله عنه ترجمان الحقيقة، ومعدن السلوك والطريقة، مالكي المذهب، نشأ بالإسكندرية، وكانت وفاته سنة تسع وسبعمائة بمصر المحمية، وعلى مقامه في سفح الجبل من الأنوار ما يبهر الزوار.

ثم اعلم أن الحكم جمع حكمة؛ وهي كل كلمة حصل لك بها نفع. وقال العلامة الأمير: الحِكَم جمع حكمة؛ وهي العلم النافع، وليس ذلك إلا علم الشريعة الشامل للفقه والتوحيد والتصوف، لكن لما كان علم التصوف هو العلم الباحث عن تهذيب النفس، وتصفيتها من الصفات المذمومة، والتنبيه على ما يعرض للعبادات والمعاملات من الآفات المهلكة كالكِبْر والرياء والعجب، وتعريف الطرق المخلصة من ذلك كان أنفع العلوم فخص باسم الحكم اهـ.

وهذا أوان الشروع في المقصود. فأقول متوسلاً في القبول بحبيب الملك المعبود:

قال العارف رضي الله عنه:

(١) من علامة[1] الاعتمادِ على العَملِ، نُقْصانُ الرَّجاءِ عند وجودِ الزَّللِ.

يعني أن من علامات تعويل العامل على عمله أن ينقص رجاؤه في رحمة الله عند وجود زلله. ومفهومه رجحان الرجاء عند التحلي بالعمل والتخلي عن الزلل، وهذه الحكمة إنما تناسب العارفين الذين يشاهدون أن الأعمال كلها من رب العالمين، لملاحظتهم قوله سبحانه في كتابه المكنون: ﴿ والله خلقكم وما

(١) وفي نسخة: من علامات.

تعملون ﴾[1] فلا يعظم رجاؤهم بالأعمال الصالحة حيث إنهم لا يشاهدون لأنفسهم عملاً، ولا ينقص أملهم في رحمة الله إذا قصروا في الطاعة أو اكتسبوا زللاً، لأنهم غرقى في بحار الرضا بالأقدار، متمسكون بحبل قضاء ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾[2] فإن الرضا بالقضاء واجب من حيث إرادته له، ومذموم من حيث الكسب، ما انفكت الجهة. وقد قال المصنف في بعض قصائده:

ولا يَمْنَعْهُ ذنبٌ من رَجَاءٍ فإنَّ اللهَ غَفَّارُ الذُّنوبِ

وأما السالكون فإنما يناسبهم الفرح بصالح العمل، وتقديم الخوف المستلزم لنقصان الرجاء عند وجود الزلل، على حد قول الإمام الدردير[3]:

وغَلِّبِ الخوفَ على الرجاءِ وسِرْ لمولاك بلا تناءِ

لا سيما في هذه الأزمنة التي رقت فيها الديانة، وكثرت الجراءة على المعاصي، وقلَّتْ فيها الأمانة. فإن الله تعالى جعل الأعمال الصالحة سبباً لرفع الدرجات بدار القرار، والأعمال الطالحة موجبة للدرك الأسفل من النار. قال تعالى: ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾[4] وإنما بدأ المصنف بما يناسب مقام العارفين، وإن كان مقتضى الترقي البداءة بمقام السالكين من الحث على حسن المتاب، والتمسك بالأسباب الموصلة إلى الكريم التواب، ليكون السالك حسن البداية التي بها تشرق النهاية. فمقصوده بهذه الحكمة تنشيط السالك المجد في الأعمال، ورفع همته عن الاعتماد عليها، واعتماده على محض فضل ذي العزة والجلال. كما أشار لذلك ابن الفارض[5] بقوله:

---

(١) سورة الصافات: آية (٩٦). انظر ما كُتِبَ حول هذه الآية الكريمة في تعليق الحكمة (٥٨).

(٢) سورة القصص: آية (٦٨) وتمامها ﴿ وَرَبُّكَ يخلقُ ما يشاءُ ويختارُ ما كان لهم الخِيرَةُ سبحانَ الله وتعالى عمَّا يُشركون ﴾.

(٣) هو أحمد بن محمد بن أحمد العدوي، أبو البركات الشهير بالدردير: فاضل من فقهاء المالكية. ولد في بني عدي بمصر، وتعلم بالأزهر، وتوفي بالقاهرة (١١٢٧ ـ ١٢٠١ هـ) (١٧١٥ ـ ١٧٨٦ م). ا هـ «الأعلام» للزركلي (١/٢٣٢).

(٤) سورة الليل: آية (٥ ـ ١٠).

(٥) هو: عمر بن علي بن مرشد بن علي، أبو حفص وأبو القاسم، شرف الدين ابن الفارض، =

تمسَّكْ بأذيالِ الهوى واخلَعِ الحَيا   وخلِّ سبيلَ النَّاسكينَ وإنْ جَلُّوا

فإنه لم يُرِدْ الأمرَ بترك العبادة، لأنه كان من أعظم العُبَّاد، بل أراد عدم التعويل عليها، والاعتماد على فضل الكريم الجواد. وفي الحديث: «لن يُدْخِلَ أحداً عملُهُ الجنَّةَ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله. قال: «ولا أنا إلا أن يتغمَّدَني اللهُ بفضله ورحمته»[1]. وقد جُمع بين هذا الحديث وآية: ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾[2] بأن العمل لا يكون معتبراً إلا إذا كان مقبولاً، وقبوله بمحض الفضل، فصح أن دخول الجنة بمحض فضل الله، وأن العمل سبب ظاهري متوقَّف عليه. والله تعالى يوفقنا لما فيه رضاه.

(٢) إرادتُكَ التجريدَ مع إقامةِ اللهِ إيَّاكَ في الأسباب من الشَّهوة الخفيةِ، وإرادتُكَ الأسبابَ مع إقامةِ الله إيَّاكَ في التجريد انحطاطٌ عن الهِمَّةِ العليَّة.

يعني أن عزمك ـ أيها المريد ـ على التجرد؛ أي التخلص من الأسباب التي أقامك الله فيها، كطلب الرزق الحلال، والاشتغال بالعلم الظاهر، من الشهوة الخفية. أما كونها من الشهوة فلعدم وقوفك مع مراد مولاك، وأما كونها خفية، فلكونك لم تقصد بذلك حظ نفسك في العاجل بل التقربَ بالتجرد لمن خلقك وسوَّاك فقد زينت لك النفس بالدسيسة الخفية الخروجَ عن الأسباب التي أقامك فيها العزيز الوهاب.

= الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة. أشعر المتصوفين، يلقب بسلطان العارفين. (٥٧٦ ـ ٦٣٢ هـ) (١١٨١ ـ ١٢٣٥ م).

ا هـ «الأعلام» للزركلي (٥/٢١٦) بتصرف يسير.

(١) الحديث رواه البخاري (١٠/١٠٩)، ومسلم (٢٨١٦)، وابن ماجه (٤٢٠١)، وأحمد في المسند (٢/٢٣٥) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ورواه أيضاً البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

ورواه أيضاً مسلم وأحمد في المسند، والدارمي، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) سورة النحل: آية (٣٢) وتمامها ﴿ الذين تَتَوفَّاهمُ الملائكةُ طيِّبينَ يقولونَ سلامٌ عليكم ادخلوا الجنةَ بما كنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾.

وكذلك إرادتك الأسباب الشاغلة عن الله الكريم، مع إقامته إياك في التجريد، ورزقك من حيث لا تحتسب بفضله العميم، انحطاطٌ عن الهمة العلية، لأن ذلك رجوع من الحق إلى الخلق، وهي رتبة دنية. فالزم ـ أيها المريد ـ ما رضيه لك العزيز الحميد. فإنَّ ما أدخلك الله فيه تولى إعانتك عليه، وما دخلت فيه بنفسك وكلك إليه ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾[1]. فالمدخل الصدق أن تدخل فيه لا بنفسك، والمخرج الصدق أن تخرج لا بنفسك بل بربك. ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾[2].

فكن حيث أقامك الله ذو الفضل العظيم. وعلامة الإقامة حصول الاستقامة، وتيسير الأسباب من الكريم الوهاب.

(٣) سَوابِقُ الهِمَمِ لا تَخْرِقُ أَسْوارَ الأَقْدَارِ.

هذه الحكمة كالتعليل لما قبلها، وتوطئة لما بعدها. يعني أن ما قدره الله في الأزل لا تَخْرِقُ أسوارَه المحيطة به ـ فضلاً عن أن تصل إليه ـ سوابقُ الهمم؛ أي الهمم السوابق، وهي قوى النفس التي تنفعل عنها الأشياء بإرادة الله تعالى، وتكون للولي كرامة، ولغيره كالساحر والعائن إهانة. وفيه تشبيه الأقدار بمدينة لها أسوار في الصيانة والحفظ على سبيل المكنية[3]. أي يجب عليك ـ أيها المريد ـ أن تعتقد أن الهمم أسباب عادية لا تأثير لها، وما ينشأ عنها إنما هو بقضاء الله تعالى وقدره، فيكون عندها لا بها. فإرادتك خلاف ما أراده مولاك لا تجدي نفعاً، ولا تأثير لها في الحقيقة، حتى تظن أنها توجب لك رفعاً.

(٤) أرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبيرِ، فما قامَ بهِ غيرُكَ عنْكَ لا تَقُم بهِ لنفسِكَ.

يعني: أرح نفسك من تعب التدبير المنافي للعبودية، بأن تقول: لولا

---

(١) سورة الإسراء: آية (٨٠).

(٢) سورة آل عمران: آية (١٠١) وتمامها ﴿وَكيفَ تَكْفُرونَ وأنتم تُتْلىٰ عليكمْ آياتُ اللهِ وَفيكُمْ رَسُولُه ومَنْ يعتصمْ باللهِ فَقَدْ هُدِيَ إلى صراطٍ مُستقيمٍ﴾.

(٣) أي على سبيل الاستعارة المكنية، إذ حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الأسوار.

فعلت كذا ما كان كذا، فإن الله تعالى دبر الأشياء في سابق علمه، وما قام به غيرك عنك لا تقوم به لنفسك، فإنك عاجز عن القيام به. وأما التدبير المصحوب بالتفويض للعليم الخبير فلا بأس به، لقوله ﷺ: «التدبير نصف المعيشة»[1] وللمصنف كتاب سماه (التنوير في إسقاط التدبير) راجعه إن شئت. فإن هذه المسألة أساس طريق القوم.

(٥) اجتهادُكَ فيما ضَمِنَ لكَ، وتقصيرُكَ فيما طَلَبَ منكَ، دليلٌ على انْطماسِ البصيرةِ منْكَ.

يعني: أن اجتهادك ـ أيها المريد ـ في طلب ما ضَمِنَ؛ أي تكفل الله لك به من الرزق بنحو قوله تعالى: ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾[2]. وتقصيرك؛ أي تفريطك فيما طلب منك من العبادة بنحو قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾[3]. دليل وبرهان على انطماس؛ أي عمى البصيرة منك، وهي عين في القلب تُدْرَكُ بها الأمور المعنوية، كما أن العين الباصرة تُدْرَكُ بها الأمور الحسية. وفُهِمَ من المصنف أن دليل انطماس

(١) الحديث ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» من رواية القضاعي في مسنده من حديث علي، رضي الله عنه، والديلمي في «مسند الفردوس» من حديث أنس رضي الله عنه، وإسناده ضعيف. ولكن للحديث طرق وشواهد بمعناه يرتقي بها إلى درجة الحسن لغيره.

منها ما رواه البيهقي في «شعب الإيمان» من حديث عبدالله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ بلفظ: «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة».

ومنها ما رواه الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «الرفق نصف المعيشة، وما عال من اقتصد».

ومنها ما رواه الشيرازي في «الألقاب» والبيهقي في «شعب الإيمان» من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «الاقتصاد في المعيشة نصف العيش».

(٢) سورة هود: آية (٦) وتمامها ﴿ وما مِنْ دابَّةٍ في الأرضِ إلا على الله رِزْقُها ويعلمُ مُسْتَقَرَّها ومُسْتَوْدَعَها كلٌّ في كتابٍ مبينٍ ﴾.

(٣) سورة البقرة: آية (٢١) وتمامها ﴿ يا أيها الناسُ اعبدوا ربَّكُم الذي خلقكم والذي مِنْ قَبْلِكُم لعلكم تَتَّقُونَ ﴾.

البصيرة هو اجتماع الأمرين، أعني الاجتهاد في طلب الرزق مع التقصير في العمل، وأخبر عن الأمرين بقوله: (دليل)؛ لأن فعيلاً يستوي فيه المفرد وغيره. وأما إذا اجتهد في طلب الرزق الحلال من غير تقصير في العبادة فإنه يدخل في حديث: «من بات كالاً من طلب الحلال بات مغفوراً له»[1].

(٦) لا يكُنْ تَأخُّرُ أمَد العَطاءِ مَعَ الإلْحاحِ في الدُعَاءِ موجباً ليأسِك؛ فهو ضَمِنَ لَكَ الإجابَةَ فيما يختارُهُ لكَ، لا فيما تختاره لنَفْسكَ وفي الوقْتِ الذي يريدُ، لا في الوقْت الذي تُريدُ.

أي لا يكن تأخر وقت العطاء المطلوب مع الإلحاح؛ أي المداومة في الدعاء موجباً ليأسك من إجابة الدعاء، فهو سبحانه ضمن لك الإجابة بقوله: ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾[2] فيما يختاه لك، لا فيما تختاره لنفسك، فإنه أعلم بما يصلح لك منك. فربما طلبت شيئاً كان الأولىٰ لك منعه عنك، فيكون المنع عين العطاء. كما قال المصنف فيما يأتي: ربما منعك فأعطاك وربما أعطاك فمنعك. يشهد ذلك مَنْ تَحَقَّقَ بمقام ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[3] ولذا قال بعض العارفين: ومَنْعُكَ في التحقيق ذا عينُ إعطائي. وكذلك ضمن لك الإجابة في الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد. فكن موسويَّ الصبر، فإن الصبر وعدم الاستعجال أولى بالعبيد. ألا ترى أن موسى كان يدعو على فرعون وقومه

---

(١) الحديث: رواه الطبراني في «الأوسط» من حديث عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - بلفظ «من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له». وهو حديث ضعيف، انظر «مجمع الزوائد» (٦٣/٤). وذكره الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» في البيوع، باب الترغيب في الاكتساب بالبيع باللفظ نفسه.

(٢) سورة غافر: الآية (٦٠) وتمامها ﴿ وقال ربُكم ادعوني أستجبْ لكم إنَّ الذين يَسْتَكْبِرُون عَنْ عبادتي سَيَدْخُلون جهنَّم داخِرينَ ﴾.

(٣) سورة البقرة: من الآية (٢١٦).

وهارون يؤمِّن على قوله: ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾[1] إلى آخر ما قص الله في كتابه المكنون، وبعد أربعين سنة حصل المدعوُّ به وقال: ﴿ قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعانِّ سبيل الذين لا يعلمون ﴾[2]. وفي الحديث: «إن الله يحب الملحين في الدعاء»[3]. وورد: أن العبد الصالح إذا دعا الله تعالى قال جبريل: يا رب عبدك فلان اقض حاجته فيقول: «دعوا عبدي فإني أحب أن أسمع صوته»[4]. فَقُمْ - أيها المريد - بما أمرك الله به من الدعاء، وسلم له مراده. فربما أجابك، وادخر لك بدل مطلوبك ما تنال به الحسنى والزيادة.

(٧) لا يشككنك في الوعد عدم وقوع الموعود[5]. وإن تَعَيَّن زمنُه؛ لئلا يكونَ ذلك قَدْحاً في بصيرتِكَ، وإخماداً لنور سريرتك.

هذه الحكمة أعم مما قبلها، فإن الموعود به في تلك خصوص الإجابة، وفي هذه أعم لأنه يشمل ما إذا كان الوعد من الله بإلهام رحماني، بأن ألهمك أنه يحصل لك في الوقت الفلاني فتح، أو يحصل في هذا العام كذا، كما يقع

---

(١) و(٢) سورة يونس: الآية (٨٨) و(٨٩) وتمامها ﴿ وقال موسى ربَّنا إنَّكَ آتيتَ فرعونَ وملأهُ زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا ربَّنا لِيُضِلُّوا عن سبيلك ربنا اطمِسْ على أموالهم واشدُدْ على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذابَ الأليمَ * قال قد أُجيبَتْ دعوتُكما فاستقيما ولا تَتَّبعانِّ سبيلَ الذين لا يعلمون ﴾.

(٣) وهو حديث ضعيف. ويغني عنه حديث: «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل»، وحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه». وهو حديث حسن بشواهده.

(٤) روى الطبراني في «الكبير» بمعناه كما في «مجمع الزوائد» للحافظ الهيثمي، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ يقول للملائكة: انطلقوا إلى عبدي فصبُّوا عليه البلاء، فيحمد الله عزّ وجلّ، فيرجعون فيقولون: يا ربنا صببنا عليه البلاء صباً كما أمرتنا، فيقول: ارجعوا فإني أحب أن أسمع صوته» وفي سنده عفير بن معدان وهو ضعيف. وذكره السيوطي في «الجامع الصغير» من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - وهو حديث ضعيف. ويغني عنه حديث: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» وحديث: «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم» وهما صحيحان.

(٥) وفي نسخة: عدم وقوع الموعود به.

لبعض الأولياء، فيخبر بذلك ثم لا يحصل. فإذا حصل لك ـ أيها المريد ـ مثل ذلك، ثم تأخر الموعود به، فلا تشك فيما وعدك الله به، وإن تعين زمنه، وبالأولى إذا لم يتعين، لئلا يكون ذلك الشك قدحاً؛ أي نقصاً في بصيرتك وإخماداً؛ أي إطفاءً لنور سريرتك التي هي عين القلب؛ فـهي مرادفة للبصيرة، وذلك لجواز أن يكون وقوع ذلك الموعود معلقاً على أسباب وشروط لم تحصل. فالعارف من تأدب مع ربه، ولم يتزلزل عند تأخر ما وعده به.

(٨) إذا فتحَ لكَ وِجْهةً من التَّعرُّفِ فلا تبالِ معها أنْ قلَّ عملُكَ؛ فإنه ما فتَحَها لك إلا وهو يريد أن يتعرَّفَ إليكَ. ألم تعلم[١] أنَّ التَّعَرُّفَ هو مُورِدُهُ عليكَ، والأعمالَ أنت مهديها إليه، وأين ما تُهديه إليه مما هو مُورِدُهُ عليكَ.

يعني إذا فتح لك الفتَّاحُ ـ أيها المريد ـ وجهة؛ أي جهة من جهات التعرف، وتلك الجهة كالأمراض والبلايا والفاقات، فإنها سبب لمعرفة الله تعالى بصفاته؛ كاللطف والقهر وغيرهما. والمخاطب بذلك المتيقظ دون المرتبك في حبال الغفلة الذي يسخط عند نزولها. فلا تبال معها أيها المريد أنْ قل عملك؛ أي بقلة عملك ـ فهمزة أن مفتوحة منسكبة مع ما بعدها بمصدر مجرور بالباء المقدرة المتعلقة بتبال ـ أي لا تغتمَّ مع تلك الجهة، ولا تهتم بقلة الأعمال. فإن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: «إذا ابتليت عبدي المؤمن فلم يشكني إلى عواده أنشطته من عقالي وأبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه وليستأنف العمل»[٢]. يعني أنه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ولا يحاسب على الأعمال السيئة السالفة. وورد: أن الله تعالى يقول للكرام الكاتبين عند مرض عبده

---

(١) وفي نسخة: ألم ترَ.

(٢) الحديث: رواه الحاكم في المستدرك (١/٣٤٩)، والبيهقي في سننه (٣/٣٧٥) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسـول الله ﷺ: قال الله تعالىٰ في الحديث القدسي: «إذا ابتليت عبدي المؤمن. . . .» إلخ. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

المؤمن: «اكتبوا لعبدي ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»[1] فصح أنه ما فتحها؛ أي تلك الجهة لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك بواسع فضله عليك. ولا شك أن هذا أعظم من كثرة الأعمال التي تطالب بوجود سر الإخلاص فيها. كما أشار إلى ذلك بالاستفهام التقريري بقوله: ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك... إلخ.

(٩) تنوَّعتْ أجناسُ الأعمالِ؛ لتنوُّعِ وارداتِ الأحوالِ.

أي اختلفت أجناس الأعمال الظاهرة، لاختلاف الواردات التي هي الأحوال القائمة بالقلب. فإن الواردات ما يرد على القلب من المعارف والأسرار، والأعمال الظاهرة تابعة لأحوال القلب. لما في الحديث: «ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صَلَحتْ صَلَح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[2]. فإذا ورد على القلب العلم بفضائل قيام الليل، توجه إليه، وآثره على غيره، فتقوم به الجوارح. وكذلك الصدقة والصيام وباقي الأعمال.

---

(١) الحديث: رواه البخاري في صحيحه (٦/٩٥) في الجهاد، باب يكتب للمسافر ما كان يعمل في الإقامة من حديث أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً».

ورواه أيضاً بنحوه أحمد في المسند (٤/٤١٨) والحاكم في المستدرك (١/٣٤١) والبيهقي في سننه (٣/٣٧٤) وأبو داود (٣٠٩١) من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ ورواه أحمد في المسند (٢/١٩٤) والحاكم في المستدرك (١/٣٤٨) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ بلفظ: «ما من مسلم يصاب ببلاء في جسده إلا أمر الله الحفظة الذين يحفظونه: أن اكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة من الخير على ما كان يعمل ما دام محبوساً في وثاقي».

(٢) الحديث: هو جزء من حديث طويل، رواه البخاري في «صحيحه» (١/١٧)، ومسلم رقم (١٥٩٩) وابن ماجه رقم (٣٩٨٤)، والدارمي (٢/٢٤٥)، كلهم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

وقد روي الحديث من حديث ابن عمر، وعمار بن ياسر، وجابر بن عبدالله، وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم. وحديث النعمان أصح أحاديث الباب.

وقد شرح هذا الحديث الشوكاني في رسالة سماها «كشف الشبهات عن المشتبهات» وهي قيمة وجديرة بالطبع.

(١٠) الأعمالُ صُوَرٌ قائمةٌ، وأرواحُها وجودُ سِرّ الإخلاص فِيهَا.

يعني أن أعمال البر كصور قائمة؛ أي أشباح، وأرواحها التي بها حياتها، وجودُ سر الإخلاص؛ أي سرٌّ هو الإخلاص فِيها. فمن عمل عملاً بلا إخلاص، كان كمن أهدى جارية ميتة للأمير يبتغي بها الثواب، وهو لا يستحق على ذلك إلا أنواع العقاب. والمراد مطلق الإخلاص الشامل لأنواعه، فإنه يختلف باختلاف الأشخاص. فإخلاص العُبَّاد سلامةُ أعمالهم من الرياء الجلي والخفي وكل ما فيه حظ للنفس، فلا يعملون العمل إلا لله تعالى طلباً للثواب وهرباً من العقاب. وإخلاص المحبين هو العمل لله إجلالاً وتعظيماً؛ لأنه تعالى أهل لذلك، لا لقصد شيء مما ذكر. كما قالت رابعة العدوية[1]:

كلُّهم يعبدوك[2] من خوف نار ويرون النجاة حظاً جزيلا
أو بأن يَسكنوا الجِنانَ فيحظَوا بقصورٍ ويشربوا سلسبيلا
ليس لي بالجِنَانِ والنارِ حظٌ أنا لا أبتغي بحبي بديلا

وأما إخلاص المقربين؛ فهو شهودهم انفراد الحق بتحريكهم وتسكينهم مع التبرىء من الحول والقوة، فلا يعملون إلا بالله، ولا يرون لأنفسهم عملاً.

= ورواية البخاري عن عامر قال: سمعت النعمان بن بشير يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما مُشَبَّهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقىٰ المُشَبَّهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعىٰ حول الحمىٰ يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمىٰ، ألا إن حمىٰ الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». (١/٢٩) كتاب الإيمان رقم (٥٢).

(١) هي: رابعة بنت إسماعيل العدوية، أم الخير، مولاة آل عتيك البصرية، صالحة مشهورة من أهل البصرة، ومولدها بها. لها أخبار في العبادة والنسك، ولها شعر، من كلامها: «اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم» توفيت بالقدس.
قال ابن خلكان: وقبرها يزار وهو بظاهر القدس من شرقيه، على رأس جبل يسمىٰ الطور. وقال: وفاتها سنة (١٣٥ هـ). كما في «شذور العقود» لابن الجوزي، وقال غيره: سنة (١٨٥ هـ). اهـ «الأعلام» للزركلي (٣/٣١).
وانظر بعض أخبارها في «صفة الصفوة» (٤/٢٧).

(٢) هكذا وردت في جميع النسخ المعتمدة. ولعلها «يعبدون» لأنه لا مسوغ لحذف نون الفعل.

(١١) ادْفِنْ وجودَكَ في أرضِ الخمولِ، فما نَبَتَ مما لم يُدَّفَنْ لا يَتِمُّ نَتَاجُه.

أي ادفن ـ أيها المريد ـ نفسك؛ أي شهرتها، في الخمول الذي هو كالأرض للميت في التغطية التامة؛ بأن لا تتعاطى أسباب الشهرة. فإن الخمول مما يعين على الإخلاص، بخلاف حب الظهور، فإنه من جملة القواطع القاصمة للظهور. فما نبت من الحَب مما لم يدفن في الأرض لا يتم نتاجه، بل يخرج مصفراً. وكذلك أنت ـ أيها المريد ـ إذا تعاطيت أسبـاب الشهرة في بدايتك، قل أن تفلح في نهايتك. ومن ثَمَّ قال رجل لبشر بن الحارث[1]: أوصني فقال: أخمل ذكرك وأطب مطعمك. وقال بعضهم: لا تصلح طريقتنا هذه إلا لأقوام كُنست بأرواحهم المزابل. وقال إبراهيم بن أدهم[2]: ما صدق اللهَ من أحب الشهرة. ولله در القائل:

---

(١) هو: بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي، أبو نصر المعروف بالحافي: من كبار الصالحين، له في الزهد والورع أخبار. وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل «مرو» سكن بغداد وتوفي بها. قال المأمون: لم يبق في هذه الكورة أحد يستحيىٰ منه غير هذا الشيخ؛ بشر بن الحارث. ا هـ «الأعلام» للزركلي (٢/ ٢٦).

وقال السلمي في «طبقات الصوفية»: إنه صحب الفضيل بن عياض. وكان عالماً ورعاً. ونقل عن يحيى بن أكثم أنه مات لعشر خلون من المحرم، سنة سبع وعشرين ومائتين. عن «طبقات الصوفية» ص (٣٩). وانظر بعض أخباره في «صفة الصفوة» (٢/ ٣٢٥).

(٢) هو: إبراهيم بن أدهم بن منصور، التيميم البلخي، أبو إسحاق: زاهد مشهور. كان أبوه من أهل الغنىٰ في بلخ، فتفقه ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز، وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثلاثة، وكان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين والحمل والطحن، ويشترك مع الغزاة في قتال الروم. وجاءه إلى المصيصة (من أرض كيليكيا) عبد لأبيه يحمل إليه عشرة آلاف درهم، ويخبره أن أباه قد مات في بلخ وخلف له مالاً عظيماً. فأعتق العبد ووهبه الدراهم، ولم يعبأ بمال أبيه. وكان يلبس في الشتاء فرواً لا قميص تحته. ولا يتعمم في الصيف ولا يحتذي، يصوم في السفر والإقامة وينطق بالعربية الفصحىٰ لا يلحن. وكان إذا حضر مجلس سفيان الثوري وهو يعظ؛ أوجز في كلامه مخافة أن يزل. أخباره كثيرة، وفيها اضطراب واختلاف في نسبته ومسكنه ومتوفاه. ولعل الراجح أنه مات ودفن في سوفنن (حصن من بلاد الروم) كما في تاريخ ابن عساكر. (١٦١ هـ، ٧٧٨ م). ا هـ «الأعلام» للزركلي (١/ ٢٤).

عِشْ خاملَ الذكر بين الناسِ وارضَ به ... فذاك أسلمُ في الدنيا وفي الدينِ
مَنْ عاشرَ النَّاسَ لم تسلَمْ ديانتُهُ ... ولم يزَلْ بين تحريكِ وتسكينِ

(١٢) ما نَفَعَ القلبَ[1] مثلُ عُزْلَةٍ يدخلُ بها مَيْدَانَ فكرة.

أي ما نفع قلبَ المريد شيءٌ من الأشياء المطهِّرة له من الغفلات **مثل عزلة** عن الخلق، **يدخل** بها ميدان فكرة؛ أي تفكر في مصنوعات بارىء الأرض والسموات. وإضافة ميدان لفكرة من إضافة المشبه به للمشبه؛ أي فكرة شبيهة بالميدان، لتردد القلب فيها كتردد الخيل في الميدان. وفي الحديث: «تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة»[2] وذلك لأنه يوصل إلى معرفة حقائق الأشياء، وتزداد به معرفة الله، ويطلع به المتفكر على خفايا آفات النفس ومكائد الشيطان وغرور الدنيا. والعزلة التي ينشأ عنها هذا الفكر أحد أركان الطريق الأربعة، المجموعة في قول بعضهم:

بيتُ الولايةِ قُسِّمَتْ أركانُهُ ... ساداتُنا فيه من الأبدالِ
ما بين صمتٍ واعتزالٍ دائمٍ ... والجوعِ والسَّهرِ النزيهِ الغالي

= وترجمه السلمي في «طبقات الصوفية» فقال: كان من أبناء الملوك والمياسير. خرج متصيداً فهتف به هاتف أيقظه من غفلته. فترك طريقته في التزين بالدنيا، ورجع إلى طريقة أهل الزهد والورع. وخرج إلى مكة وصحب بها سفيان الثوري، والفضيل بن عياض. ودخل الشام، فكان يعمل فيه، ويأكل من عمل يده. وبها مات. وأسند الحديث. ا هـ «طبقات الصوفية» ص (٢٧).

وفي «الرسالة القشيرية» ص (٨) بعض أخباره. وانظر بعض أخباره أيضاً في «صفة الصفوة» (١٥٢/٤).

(١) وفي نسخة: ما نفع القلب شيء مثل عزلة...

(٢) الحديث: ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» من رواية أبي الشيخ في «العظمة» بلفظ «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة» وهو حديث ضعيف، وجاء موقوفاً على أنس ـ رضي الله عنه ـ وهو ضعيف أيضاً. وأورده الحوت في «أسنى المراتب» بلفظ «فكرة ساعة خير من قيام ليلة» وقال: ينسب إلى سري السقطي، وينسب أيضاً إلى ابن عباس، وأبي الدرداء، رضي الله عنهم.

يوضحها قول الإمام أحمد بن سهل[1]: أعداؤك أربعة: الدنيا؛ وسلاحها الخَلْق، وسجنها العزلة. والشيطان؛ وسلاحه الشبع، وسجنه الجوع. والنفس؛ وسلاحها النوم، وسجنها السهر. والهوى؛ وسلاحه الكلام، وسجنه الصمت. واعلم أن الشأن في العزلة أن تكون بالقلب والقالب؛ بأن يتباعد صاحبها عن الحلق. وقد تكون بالقلب فقط؛ بأن يختلط بجسمه معهم مع تعلق قلبه بالحق كما قالت رابعة العدوية[2] في مقام المشاهدة القلبية:

ولقد جعلتُك في الفؤاد محدِّثي وأبحتُ جسمي مَنْ أراد جلوسي
فالجسمُ مني للجليس مؤانسٌ وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسي

(١٣) كيف يُشرقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأكوانِ مُنْطَبِعَةٌ في مرآته؟ أَمْ كيف يرحلُ إلى الله وهو مكَبَّلٌ بشَهواته؟ أم كيف يطمع أنْ يدخل حضرةَ اللهِ وهو لم يتطهَّرْ من جَنَابَة غَفَلاتِهِ؟ أم كيف يرجو أنْ يفهم دقائقَ الأسرارِ وهو لم يَتُبْ من هَفَواتِهِ؟

هذه الحكمة كالتوجيه للحكمة التي قبلها، وذلك لأن العزلة المصحوبة بالفكرة، يتخلى القلب بها عن الأغيار، وبها يرحل إلى الله، ويدخل حضرته، ويتحلى بفهم دقائق الأسرار. وأما القلب الذي طُبعت في مرآته صوَرُ المكوَّنات، فاشتغل بها، وصار مكبلاً؛ أي مقيداً بالشهوات، فإنه لا ينال الإشراق، ولا

---

(١) هو: أحمد بن سهل، أبو زيد البلخي: أحد الكبار الأفذاذ من علماء الإسلام. جمع بين الشريعة والفلسفة والأدب والفنون. ولد في إحدى قرى بلخ، وساح سياحة طويلة، ثم عاد وقد علت شهرته، فعرض عليه حاكم تخوم بلخ وزارته فأباها، وذكر له الكتابة فرضيها. فكان يعيش منها إلى أن مات في بلخ. وقد سبق علماء البلدان في الإسلام كافة إلى استعمال رسم الأرض في كتابه «صور الأقاليم الإسلامية ـ مخطوطة» وفي «فهرست» ابن النديم قائمة مؤلفاته، وهي كثيرة. (٢٣٥ ـ ٣٢٢ هـ) (٨٤٩ ـ ٩٣٤ م). اهـ «الأعلام» للزركلي (١/ ١٣١).

(٢) سبقت ترجمتها في التعليق على الحكمة رقم (١٠).

يدخل في حضرة الكريم الخلاق؛ لأنه لم يتطهر من غفلاته الشبيهة بالجنابة، فيُمنع منها كما يُمنع الجنب من المسجد الذي هو محل المناجاة والاستجابة. والاستفهام في المواضع الأربعة إنكاري بمعنى النفي؛ أي لا يكون إشراق القلب مع انطباع صور الأكوان التي هي كالظلمة في مرآته؛ أي محل ناظره الذي هو البصيرة، لما في ذلك من الجمع بين الضدين، ولا يمكنه الرحيل إلى الله بقطع عقبات النفس مع كونه مكبلاً بشهواته للجمع المذكور، ولا يدخل حضرة الله؛ أي دائرة ولايته المقتضية للطهارة مع كونه لم يتطهر من جنابة غفلاته لذلك الجمع، ولا يرجو أن يفهم دقائق الأسرار المتوقفة على التحرز من المعاصي مع كونه لم يتب من هفواته. لذلك فالمطالب أربعة: إشراق القلب، والرحيل إلى الحضرة، ودخولها، والإطلاع على أسرارها. وكلٌّ وسيلة لما بعده. والموانع أربعة: انطباع صور الأكوان في عين القلب، والتكبل بالشهوات، وعدم التطهير من جنابة الغفلات، وترك التوبة من الهفوات.

(١٤) الكونُ كلُّه ظُلْمةٌ، وإنَّما أنارَهُ ظهورُ الحقِّ فيه، فمن رأى الكونَ ولم يشهدْهُ فيه أو عندَه أو قَبْلَه أو بَعْدَه فقد أعْوَزَهُ وجودُ الأنوارِ، وحُجبَتْ عنه شموسُ المعارفِ بسُحُبِ الآثار.

أي إن الكون بالنظر إلى ذاته كلُّه ظلمة؛ أي عدم محض، لأنه لا وجود له بذاته، وإنما أناره؛ أي أوجده، ظهورُ الحق تعالى فيه؛ أي ظهور إيجاد وتعريف لا ظهور حلول وتكييف؛ بمعنى أنه تجلى عليه بذاته وقال له كن فكان، وهو قادر على إعدامه في الحال والاستقبال، فليس ثَمَّ إلا مبدع الأكوان.

ثم إن من الناس مَنْ حجبه الكونُ؛ أي المكوَّنات، عن المكوِّن تعالى، فلم يشهده سبحانه؛ أي لم يشاهد تأثيره فيه، وهو الذي قد أعوزه؛ أي فاته وجود الأنوار، فصار محتاجاً لها لفقدها عنده، وحجبت؛ أي غابت عنه شموس المعارف؛ أي المعارف التي هي كالشموس في إظهار الأشياء والكشف عن

حقائقها، فإضافة شموس إلى المعارف من إضافة المشبه به للمشبه، كإضافة سحب إلى الآثار؛ أي أن الآثار ـ جمع أثر ـ بمعنى المكوَّنات الشبيهة بالسُّحُب؛ بضمتين جمع سحاب، قد منعتْ عنه المعارفَ الشبيهة بالشموس الكاشفة عن الحقائق الموصلة إلى حضرة القدوس. ومن الناس من لم يحجبه الكون عن المكوِّن سبحانه وتعالى، بل شهده فيه بتأثيره، وعنده بحفظه وتدبيره، وهؤلاء الذين يشهدون الأثر والمؤثِّر معاً. ومنهم من شهده قبله، وهم الذين يستدلون بالمؤثِّر على الأثر. ومنهم من شهده بعده، وهم الذين يستدلون بالأثر على المؤثِّر. وهذه الظروف المذكورة في كلام المصنف ليست زمانية ولا مكانية؛ فإن الظروف من جملة الأكوان، بل هي اصطلاحات ليس المراد منها ظاهرها عند ذوي العرفان، وإنما تدرك بالذوق لا بالتعبير. فقف عند حدك، وتمسك بقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1].

(١٥) مما يَدُلُّك على وُجُودِ قَهْرِه سبحانه أنْ حَجَبَك عنه بما ليس بموجودٍ معه.

أي مما يدلك ـ أيها المريد ـ على أنه سبحانه القاهر فوق عباده، أنْ حجبك؛ بفتح همزة أن المصدرية المنسكبة مع ما بعدها بمصدر، أي حجبك عنه تعالى بالكون الذي ليس بموجود معه لأنك قد علمت أنه ظلمة؛ أي عدم محض من حيث ذاته. فالوجود الحقيقي إنما هو لله تعالى، وما سواه لا يوصف عند العارفين بوجود ولا فقد، إذ لا يوجد معه غيره لثبوت أحَدِيَّته، ولا يفقد إلا ما وجد. وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي[2]: إنا لننظر إلى الله تعالى بنظر الإيمان

(١) سورة الشورى: الآية (١١) وتمامها ﴿فاطرُ السمواتِ والأرضِ جَعَلَ لكم مِنْ أنفسِكُم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يَذْرَؤُكم فيه ليس كَمِثْلِهِ شيءٌ وهو السميعُ البصيرُ﴾.

(٢) هو: علي بن عبدالله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز الشاذلي المغربي، أبو الحسن رأس الطائفة الشاذلية، من المتصوفة، وصاحب الأوراد المسماة «حزب الشاذلي» ولد في (غمارة) من قرى إفريقية، وتفقه وتصوف بتونس، وسكن (شاذلة) فنسب إليها. وطلب الكيمياء في ابتداء أمره، ثم تركها. ورحل إلى بلاد المشرق، فحج ودخل العراق. ثم سكن الإسكندرية. وكان ضريراً. وتوفي بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج. (٥٩١ ـ ٦٥٦ هـ) (١١٩٥ ـ ١٢٥٨ م). اهـ «الأعلام» للزركلي (١٢٠/٥).

والإيقان، فيغنينا ذلك عن الدليل والبرهان، ونستدل به على الخلق، فإنه ليس في الوجود إلا الواحد الحق، فلا نراهم، وإن كان ولا بد فنراهم كالهباء في الهواء، إن فتشتهم لم تجدهم شيئاً. وقال سيدي محي الدين بن العربي[1]: من شهد الخَلْق لا فِعْل لهم فقد فاز، ومن شهدهم لا حياة لهم فقد حاز، ومن شهدهم عين العدم فقد وصل. ومما قيل في هذا المعنى:

من أبصرَ الخلَق كالسراب ... فقد تَرَقَّىٰ عن الحجابِ
إلى وجودٍ يراهُ رَتْقاً ... بلا ابتعادٍ ولا اقترابِ
ولم يشاهدْ به سِوَاهُ ... هناك يُهدىٰ إلى الصَّوابِ

فارفع ـ أيها المريد ـ عنك هذا الحجاب، واجعل تعلقك برب الأرباب. فإن كل شيء هالك إلا وجهه. ولا يضمن لك الوصول إلى الله إلا هذه الوجهة.

(١٦) كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أن يَحْجُبَهُ شيءٌ وهو الذي أظهر كل شيء؟ كيف يُتصور أن يحجبَه شيءٌ وهو الذي ظهر بكل شيء؟ كيف يُتصور أن يحجُبه شيءٌ وهو الذي ظهر في كل شيء؟ كيف يُتصور أن يحجُبه شيءٌ وهو الذي ظَهَر لكل شيء؟ كيف يُتصور أن يحجُبه شيءٌ وهو الظاهرُ قبل وجودِ كلِّ شيءٍ؟ كيف يُتصور أن يحجُبه شيءٌ وهو أظْهَرُ مِنْ كلِّ شيء؟ كيف يُتصور أن يحجُبه شيءٌ وهو الواحدُ الذي ليس معهُ شيءٌ؟ كيف يُتصور أن يحجُبه شيء وهو أقربُ إليك مِنْ كلِّ شيء؟ كيف يُتصور أن يحجُبه شيءٌ ولولاه ما كان وجودُ كلِّ شيءٍ؟ يا عجباً كيف يَظْهَرُ الوجودُ في العَدَم؟ أم كيف يثبت الحادثُ مع مَنْ له وصْفُ القِدَم؟.

بين المصنف في هذه الحكمة الأدلة التي تدل على أنه سبحانه لا يحتجب

---

(١) هو: محمد بن علي بن محمد بن العربي، أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي، المعروف بمحي الدين بن العربي الملقب بالشيخ الأكبر: فيلسوف من أئمة المتكلمين في كل علم. ولد في مرسية بالأندلس، وانتقل إلى إشبيلية، وقام برحلة فزار الشام وبلاد الروم والعراق=

بالأكوان، وأتى بها على وجه استبعاد أن يتصور ذلك في الأذهـان، فقال: كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي أظهر كل شيء حيث إنه هو الذي أوجده بعد العدم، وما كان وجوده متوقفاً عليه لا يصح أن يحجبه. وقوله: ظهر بكل شيء؛ أي من حيث أن كل شيء يدل عليه، فإن الأثر يدل على المؤثِّر،

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

قال تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[1]. وقوله: ظهر في كل شيء؛ أي من حيث إن الأشياء كلها مجالي ومظاهر لمعاني أسمائه، فيظهر في أهل العزة معنى كونه معزاً، وفي أهل الذلة معنى كونه مذلاً، وهكذا... وقوله: ظهر لكل شيء؛ أي تجلى لكل شيء حتى عرفه وسبحه. كما قال تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[2]. وقولُه: وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؛ أي فهو الذي وجوده أزلي وأبدي، فوجوده ذاتي، والذاتي أقوى من العَرَضي، فلا يصح أن يكون حاجباً له. وقولُه: وهو أظهر من كل شيء؛ أي لأن الظهور المطلق أقوى من المقيد، وإنما لم يُدْرك للعقول مع شدة ظهوره لأن شدة الظهور لا يطيقها الضعفاء، كالخفاش يبصر بالليل دون النهار لضعف بصره لا لخفاء النهار، على حد ما قيل:

ما ضرَّ شمسَ الضحى في الأُفْقِ طالعةً ... أنْ لا يرى ضوءَها مَنْ ليس ذا بصر

= والحجاز. وأنكر عليه أهل الديار المصرية (شطحات) صدرت عنه. واستقر في دمشق، فتوفي فيها. له نحو أربعمائة كتاب ورسالة. (٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ) (١١٦٥ ـ ١٢٤٠ م). اهـ «الأعلام» للزركلي (٧/ ١٧٠).

(١) سورة فصلت: الآية (٥٣) وتمامها مع الآية التي بعدها ﴿سَنُرِيَهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنْفُسِهم حتى يتبيَّنَ لهم أنَّه الحقُ أوَ لمْ يكفِ بربكَ أنَّه على كلِّ شيءٍ شهيدٌ * ألا إنهم في مِرْيةٍ مِنْ لقاءِ ربِّهم ألا إنَّه بكلِ شيءٍ مُحيطُ ﴾.

(٢) سورة الإسراء: الآية (٤٤) وتمامها ﴿ تُسبح له السمواتُ السبع والأرضُ ومَنْ فيهنَّ وإنْ من شيءٍ إلا يُسَبِّحُ بحمدِهِ ولكنْ لا تَفْقَهُون تسبيحَهُم إنَّه كانَ حليماً غفوراً ﴾.

وقولُه: وهو الواحد الذي ليس معه شيء، أي لأن كل ما سواه في الحقيقة عدم محض كما تقدم. وقد قام البرهان على وحدانيته تعالى بقوله سبحانه: ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾[1]. وقولُه: أقرب إليك من كل شيء؛ أي بعلمه وإحاطته وتدبيره. كما قال تعالى في كتابه المجيد: ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾[2]. وقولُه: ولولاه ما كان وجود كل شيء، هو بمعنى قوله أولاً وهو الذي أظهر كل شيء. ولكون المقصودِ المبالغةَ في نفي الحجاب لم يضر هذا التكرار؛ لأن المحل محل إطناب. ثم قال: يا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم؛ أي يجتمع معه وهما ضدان. أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم؟ حتى يكون حجاباً للعظيم المنان. قال ابن عباد: وهذا الفصل من قولِه: الكون كله ظلمة إلى هنا، أبدع فيه المؤلف غاية الإبداع، وأتى فيه بما تقربه الأعين، وتلذ به الأسماع. فإنه ـ رضي الله عنه ـ ذكر جميع متعلقات الظهور، وأبطل حجابية كل ظلام ونور، وأراك فيه الحق رؤية عيان وبرهان، ورفعك من مقام الإيمان إلى أعلى مراتب الإحسان. كل ذلك في أوجز لفظ، وأفصح عبارة، وأتم تصريح، وألطف إشارة. فلو لم يكن في هذا الكتاب إلا هذا الفصل لكان كافياً شافياً فجزاه الله عنا خيراً.

(١٧) ما تَرَكَ من الجهلِ شيئاً مَنْ أراد أنْ يَحْدُثَ في الوقت غيرُ ما أظْهَرَهُ اللهُ فيه.

يعني أنَّ مِنْ حُسْنِ الأدب أن يكون المريد راضياً بما أقامه الله فيه. كما قال بعض العارفين: لي منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته. فإنْ سَخِط المريدُ الحالةَ التي يكون عليها، وتَشَوَّفَ إلى

(١)سورة الأنبياء: الآية (٢٢) وتمامها مع ما قبلها ﴿ أم اتخذوا آلهةً مِنَ الأرضِ هم يُنشِرون﴾ لو كان فيها آلهةٌ إلا اللهُ لفَسَدَتَا فسبحانَ اللهِ ربِّ العرشِ عما يَصِفُون ﴾ قوله يُنشرون أي يحيون الموتى ا هـ.

(٢)سورة ق: الآية (١٦) وتمامها ﴿ ولقد خلقْنا الإنسانَ ونَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ به نَفْسُهُ ونحنُ أقربُ إليه مِنْ حَبْلِ الوريدِ ﴾.

الانتقال عنها بنفسه، وأراد أنْ يَحْدُثَ غيرُ ما أظهره الله تعالى، فقد بلغ غاية الجهل بربه، وأساء الأدب في حضرته.

(١٨) إحالتُكَ الأعمالَ على وجودِ الفراغِ من رُعُونَاتِ النفسِ.

أي إحالتك ـ أيها المريد ـ الأعمال الصالحة على وجود الفراغ من أشغال الدنيا، تُعد من رعونات النفس؛ أي حماقتها، لما في ذلك من إيثار الدنيا على الآخرة، وأشغالُ الدنيا لا تنقضي.

فما قضىٰ أحدٌ منها لُبانتَهُ ... ولا انتهىٰ أربٌ إلا إلىٰ أربِ

وقال آخر:

نَرُوُح ونَغْدو لحاجاتِنا ... وحاجاتُ مَنْ عاشَ لا تنقضي

وقد قالوا: الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك. وفي الحديث: «ما من يوم إلا وهو ينادي: يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فاغتنم مني، فإني لا أعود إلىٰ يوم القيامة»[1].

(١٩) لا تَطْلُبْ منه أنْ يُخرجَك من حالة ليستعملَكَ فيما سواها، فَلَوْ أرادَكَ لاستعملَكَ من غير إخْراجٍ.

أي لا تطلب ـ أيها المريد ـ من الله تعالى أن يخرجك من حالة موافقة للشرع دنيوية أو دينية لتوهمك أن غيرها أرقى منها؛ لأنه تخيير على مولاك، ولا خِيَرَةَ لك في ذاك. فلو أرادك؛ أي جعلك من أهل إرادته وخاصته، لاستعملك استعمالاً محبوباً عنده من غير إخراج من الحالة التي أنت عليها. وأما لو كانت الحالة غير موافقة للشرع، فإنه يجب عليك المبادرة، وطلب الإخراج منها، والانتقال إلى غيرها. كما قال بعض الأكابر:

---

(١) الحديث: ساقه الحافظ ابن رجب الحنبلي في «لطائف المعارف» ص (٧) موقوفاً على بكر المزني بلفظ: «ما من يوم أخرجه الله إلى أهل الدنيا إلا ينادي! ابنَ آدم اغتنمني لعله لا يوم لك بعدي. ولا ليلة إلا تنادي ابنَ آدم اغتنمني لعله لا ليلة لك بعدي».

فإنْ أَقَامَكَ عظيمُ المِنَّهْ   في عملٍ موافقٍ للسُّنَّهْ
فهو مقامك الذي يليق بكْ   فلا تَرُمْ خِلافه بشهوتكْ
لو شاءَ ربُّنا العظيمُ المالكْ   ومَنْ له التَّصريفُ في الممالكْ
لكنْتَ في المطلوبِ مِنْ غير طلبْ   فارْضَ بحُكْمِ الله الزَمِ الأدبْ
وَإنْ أقامَك هَواءُ الطَّبْعِ   في عملٍ مخالفٍ للشرعِ
فبادِرِ الخُروجَ لا تُماطِلْ   واقطعْ بسيفِ العزمِ كلَّ حَائلْ

(٢٠) ما أرادتْ هِمَّةُ سالِكٍ أنْ تقف عندما كُشِفَ لها إلا ونادتْهُ هواتفُ الحقيقةِ: الذي تَطْلُبُ[١] أمامَكَ، ولا تبرَّجَتْ له ظواهرُ المكوَّناتِ إلا ونادته حقائقُها: ﴿إنما نحن فتنةٌ فلا تكفر﴾[٢].

أي ما قصد سالك؛ أي سائر إلى الله تعالى، أن يقف بهمته عندما كشف لها من الأنوار والأسرار في أثناء السير ظناً منه أنه وصل إلى النهاية في المعرفة، إلا ونادته هواتف الحقيقة؛ جمع هاتف وهو ما يُسمع صوته ولا يُرىٰ شخصه. أي قالت له بلسان الحال: الذي تطلبه أمامك، فلا تقف.

وما ألْطَفَ قولَ أبي الحسنِ التُّسْتَري[٣] في هذا المعنى:

ولا تلتفتْ في السَّير غيراً فكلُّ ما   سوىٰ الله غيرٌ فاتخذ ذكرَه حصنا
وكلُّ مقام لا تقم فيه إنه   حِجابٌ فجُدَّ السيرَ واستنجدِ العونا

---

(١) وفي نسخة: الذي تطلبه أمامك.

(٢) سورة البقرة: من الآية (١٠٢).

(٣) هو: سهل بن عبدالله بن يونس، التُّسْتَريُّ، أبو محمد: أحد أئمة الصوفية والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال. (٢٠٠ ـ ٢٨٣ هـ) (٨١٥ ـ ٨٩٦ م). اهـ «الأعلام» للزركلي (٣/ ٢١٠).

وقال السلمي في «طبقات الصوفية» (٢٠٦): صحب خاله محمد بن سَوَّار، وشاهد ذا النون المصري سنة خروجه إلى الحج بمكة.

وقال صاحب «الرسالة القشيرية» (١٤): أحد أئمة القوم، لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع.

ومهما ترى كلَّ المراتب تُجْتلىٰ عليكَ فَحُلْ عنها فعَنْ مثلها حُلْنا
وقُلْ ليس لي في غيرِ ذاتِكَ مَطْلَبٌ فلا صورةٌ تُجلىٰ ولا طَرْفَةٌ تُجْنىٰ

وقال سلطان العاشقين ابن الفارض[1]:

قَالَ لي حُسْنُ كلِّ شَيءٍ تجلّى بي تملّىٰ فقلتُ قصدي وَرَاكا
لي حبيبٌ أراكَ فيه مُعَنّىٰ غُرَّ غيريْ وفيهِ معنىٰ أرَاكا
وحَّدَ القلبُ حبَّه فالتفاتي لكَ شِرْكٌ ولا أرى الإشْراكا

وقوله: ولا تبرجت؛ أي أظهرت له زينتَها ظواهرُ المكوَّنات التي هي كالعروس في تبرجها، إلا ونادته حقائقُها؛ أي بواطنها بلسان الحال: إنما نحن فتنة؛ أي ابتلاء واختبار، فلا تكفر؛ أي فلا تفتتن بنا، ولا تقف عندنا، فتحجب بنا عن معرفة الله التي لا تتناهى في دار البقاء الأبدية، فضلاً عن هذه الدار الدنية، وهو كفر بحق المنعِم جلّ شأنه. وبالجملة فالوقوف بالهمة على شيء دون الحق خسران، والاشتغال بطلب ما يقرب إليه كرامة من الله ورضوان. فجد في الطلب، والتزم حسن الأدب.

(٢١) طلبُكَ منه اتهامٌ[2] له، وطلبُكَ له غيبةٌ منك عنه، وطلبُكَ لغيره لقلةِ حيائِك منه، وطلبُكَ من غيره لـوجودِ بُعْدِكَ عنه.

أي طلبك منه تعالى حوائجَك معتمداً على الطلب، معتقداً أنه لولاه لما

(١) سبقت ترجمته في التعليق على الحكمة رقم (١).
(٢) زيادة في تأكيد ما ذهب إليه الشارح ـ رحمه الله تعالى ـ لمطلع هذه الحكمة، أقول: إن الحكمة (١٦٦) هي خير ما يُرجع إليه في شرح قوله: (طلبك منه اتهام له) إذ يقول فيها: لا يكن طلبك تسبباً إلى العطاء منه، فَيقِلَّ فهمُكَ عنه. وليكن طلبك لإظهار العبودية، وقياماً بحقوق الربوبية.
وبهذا نجد أنَّ ابن عطاء ـ رحمه الله تعالى ـ لا يحضُّ على عدم الطلب، وإنما يريد من العبد أن يتحقق في طلبه العبودية والانكسار لله تعالى، استجابة لقوله سبحانه: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾.
والدافع إلى هذا التعليق هو شرح كلام ابن عطاء ـ رحمه الله ـ بكلامه. حتى لا يُقال: إنَّه =

حصل مطلوبك، اتهام له تعالى بأنه لا يرزقك إلا بالطلب، إذ لو وثقت به في إيصال منافعك إليك من غير سؤال لما طلبت. وأما إذا كان الطلب على وجه التعبد امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾[1] فلا يكون معلولاً، وبهذا يجمع بين طلب الدعاء والنهي عنه. وكذلك طلبك له تعالى؛ بأن تطلب قربك منه والوصول إليه بعملك، غيبةٌ منك عنه، إذْ الحاضر لا يُطلب، وهو تعالى أقرب إليك من حبل الوريد. وكذلك طلبك لغيره من الأعراض الدنيوية، أو المراتب الأخروية، لقلة حيائك منه؛ إذْ لو استحييت[2] منه لم تُؤْثِرْ عليه سواه. وكذلك طلبك من غيره تعالى، غافلاً في حال الطلب عن مولاك، إنما يكون لوجود بعدك عنه؛ إذ لو كان قريباً منك لكان غيره بعيداً عنك. فالطلب بأوجهه الأربعة معلول، سواء كان متعلقاً بالحق أو الخلق، إلا ما كان على وجه التعبد والتأدب، واتباع الأمر، وإظهار الفاقة.

(٢٢) مَا مِنْ نَفَسٍ تُبْدِيهِ، إلاّ ولهُ قَدَرٌ فِيكَ يُمْضِيه.

النفس؛ بفتح الفاء جزء من الهواء يخرج من باطن البدن في جزء من الزمن. والمعنى ليس من نَفَس من أنفاسك تبديه؛ أي تظهره بقدرة الله تعالى، إلا وله تعالى فيك قدر؛ بفتح الدال المهملة؛ أي أمر مقدرٌ ناشىءٌ عن قدرته وإرادته. يمضيه؛ أي ينفذه كائناً ما كان، فأنت رهين القضاء والقدر في كل نفس وفي كل طرفة عين، فكن عبداً لله في كل شيء، عطاءً ومنعاً وعزاً وذلاً وقبضاً وبسطاً وفقداً ووجداً، إلى غير ذلك من مختلفات الآثار، وتنقلات الأطوار، فإن الكاملين من أهل الله يراعون الحق في كل نَفَس، حتى يكونوا أبداً بالموافقة مع

= قد أُوِّلَ كلامُهُ والتُمِسَ له مخرجٌ منه. إذ قوله (طلبك منه اتهام له) مما أشكل على بعضهم ووَجَدَ في نفسه شيئاً منه.

(١) سورة غافر: الآية (٦٠) وتمامها ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيَدْخُلون جهنم داخرين ﴾.

(٢) (استَحْيَاه) و(استَحْيَا منه) بمعنىً من الحياء. ويقال (استَحَيْتُ) بياء واحدة وأصله استحيَيْتُ فأعَلُّوا الياء الأولى وألْقَوْا حركتها على الحاء فقالوا استَحَيْتُ لَمَّا كثرُ في كلامهم... اهـ مختار الصحاح.

الله تعالى. وهذا مقام شريف لا يُوفي[1] به إلا أهل العنايات. ومن غفل في حسابه خسر في اكتسابه. وقال بعض العارفين: من أدرك في نفسه التغيير والتبديل في كل نفس فهو العالم بقوله تعالى: ﴿ كلّ يوم هو في شأن ﴾[2] وما ألطف قولَ بعضهم:

نفذتْ مقاديرُ الإلهِ وحُكْمُهُ ... فأرحْ فؤادَكَ من لَعَلَّ ومن لوِ

(٢٣) لا تترقبْ فرَاغَ[3] الأغيارِ، فإن ذلك يقطعُكَ عن وجود المراقبةِ له فيما هو مُقيمُكَ فيه.

أي لا تنتظر ـ أيها المريد ـ انتهاء الأغيار؛ أي الشواغلِ التي منها ما أقامك فيه الحقُّ، بل راقبه فيما تترقب فراغه، فإن تأميلك للوقت الثاني يمنعك من القيام بحق الوقت الذي أنت فيه. والفقير الصادق يكون في كل وقت بحسبه. وسُئل بعض العارفين متى يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم يرَ وقتاً غير الوقت الذي هو فيه. وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾[4] أي نختبركم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، وقيل بما تحبون وما تكرهون، لننظر شكركم فيما تحبون، وصبركم فيما تكرهون.

(٢٤) لا تَسْتَغْرِبْ وقوعَ الأكدارِ ما دمتَ في هذه الدارِ، فإنها ما أبرزتْ إلا ما هو مُسْتَحَقُّ وَصْفِها وواجبُ نَعْتِها.

أي لا تَعُدَّ وقوعَ الأكدار أمراً غريباً مدة كونك في هذه الدار الدنيوية، فإنها ما أبرزت أي؛ أظهرت إلا ما هو مُسْتَحَقُّ وصفها؛ أي وصفها المستحق لها،

---

(١) (وَفَى) بعهده (وَفاءً) و (أوْفَىٰ) بمعنىً. . . اهـ مختار الصحاح.

(٢) سورة الرحمن: الآية (٢٩) وتمامها ﴿ يسأله مَنْ في السمواتِ والأرضِ كلَّ يَوْمٍ هو في شَأْنٍ ﴾.

(٣) وفي نسخة: فروغ.

(٤) سورة الأنبياء: الآية (٣٥) وتمامها مع ما قبلها ﴿ وما جعلْنا لبشرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْد أفإن مِتَّ فهمُ الخالدون * كلُّ نفس ذائقةُ الموت ونبلوُكُمْ بالشرِّ والخير فتنةً وإلينا تُرجَعُون ﴾.

وواجب نعتها؛ أي نعتها الواجب؛ أي اللازم لها. فمن ضرورياتها وجود المكاره فيها مع الانهماك عليها، كما قال بعض واصفيها:

طُبِعَتْ على كَدَرٍ وأنت تريدُها صَفْواً من الأقذاءِ والأقذارِ
ومكلِّفُ الأيامِ ضِدَّ طِبَاعِها متطَلِّبٌ في الماءِ جَذْوَةَ[1] نارِ

ومن كلام جعفر الصادق[2]: من طلب ما لم يُخْلَق، أتعب نفسه ولم يرزق. قيل له وما ذاك؟ قال: الراحة في الدنيا. وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال:

تطلبُ الراحةَ في دارِ العَنَا خابَ مَنْ يطلب شيئاً لا يكونُ

وقال الصفي الحلي[3]:

---

(١) الجذوة مثلثة: الجمرة. قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أو جَذْوةٍ من النار﴾ أي قطعة من الجمر. اهـ مختار الصحاح.

(٢) هو: جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن السبط، الهاشمي القرشي، أبو عبدالله الملقب بالصادق: سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية. كان من أجلاء التابعين. وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة، منهم الإمامان؛ أبو حنيفة ومالك. ولقب بالصادق لأنه لم يُعرف عنه الكذب قط. له أخبار مع الخلفاء من بني العباس، وكان جريئاً عليهم صداعاً بالحق. له «رسائل» مجموعة في كتاب، ورد ذكرها في «كشف الظنون» يقال إن جابر بن حيان قام بجمعها. مولده ووفاته بالمدينة (٨٢ ـ ١٤٨ هـ) (٦٩٩ ـ ٧٦٥ م). اهـ «الأعلام» للزركلي (٢/١٢١).

وترجمه ابن الأثير في كتابه «اللباب» فقال: جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم. روى عن أبيه والزهري ومحمد بن المنكدر والقاسم بن محمد وغيرهم. روى عنه ابنه موسى بن جعفر ويحيى بن سعيد الأنصاري وشعبة ومالك والثوري وابن عيينة ومحمد بن إسحاق وغيرهم. اهـ «اللباب» لابن الأثير (٢/٢٢٨) بتصرف.

وانظر نبذة من أخباره في «صفة الصفوة» (٢/١٦٨).

(٣) هو: عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم السنبسي الطائي: شاعر عصره. ولد ونشأ في «الحلة» بين الكوفة وبغداد، واشتغل بالتجارة؛ فكان يرحل إلى الشام ومصر وماردين وغيرها في تجارته، ويعود إلى العراق، وانقطع مدة إلى أصحاب ماردين، فتقرب من ملوك الدولة الأرتقية، ومدحهم، وأجزلوا له عطاياهم. ورحل إلى القاهرة سنة (٧٢٦ هـ) فمدح

قال العذولُ لمَ اعتزلْتَ عنِ الورىٰ وأقمْتَ نفسَكَ في المقام الأوْهَنِ
ناديتُ طالبُ راحةٍ فأجابني أتعبْتَها بطِلابِ ما لم يُمْكِنِ

وقال آخر:

وَمَنْ رامَ في الدنيا حياةً سليمةً من الهمِّ والأكدارِ رَامَ مُحالاً

فينبغي للمريد أنْ يوطِّنَ نفسه على المحن، فإنه لا يتحرك من قلبه عند نزولها به ما سكن. على حد ما قيل:

يُمَثِّل ذو اللُبِّ في لُبِّه شدائدَه قبل أنْ تَنْزلا
فإن نَزَلَتْ بغتةً لم يُرَعْ لما كان في نَفْسِهِ مَثَّلا
رأىٰ الأمر يُفْضي إلى آخرٍ فَصَيَّر آخرَهُ أولا
وذو الجهل يأمَنُ أيامَهُ وينسىٰ مَصارِعَ مَنْ قَدْ خلا
فإن دهمَتْهُ صروفُ الزمانِ ببعض مصائبِه أعْوَلا
ولو قدَّمَ الحزْمَ في نفسِهِ لعلَّمهُ الصبرَ عند البلا

(٢٥) ما تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أنت طالبُهُ بربِّكَ، ولا تَيَسَّرَ مطلبٌ أنت طالبُهُ بنفسك.

أي ما تعسر مطلب من مطالب الدنيا والآخرة أنت طالبه بربك؛ أي بالاعتماد عليه، والتوسل إليه. فمتى أنزلتَ حوائجك به فقد تمسكتَ بأقوى سبب، وفزتَ بقضائها من أفضاله بغير تعب. ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[1] ومعنى قوله: ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك؛ أنك لو اعتمدت ـ أيها المريد ـ على حولك وقوتك، تعسرت عليك المطالب، ولم تتحصل على بغيتك.

= السلطان الملك الناصر. وتوفي ببغداد (٦٧٧ ـ ٧٥٠ هـ) (١٢٧٨ ـ ١٣٤٩ م). ا هـ «الأعلام» للزركلي (٤/١٤١).

(١) سورة الطلاق: الآية (٣) وتمامها مع جزء من الآية قبلها ﴿ . . . ومنْ يتق الله يجعلْ له مخرجاً * ويرزقْه مِنْ حيثُ لا يحْتَسِبُ ومنْ يتوكَّلْ على الله فهو حَسْبُه إنَّ الله بالغُ أمرِهِ قَدْ جعلَ اللهُ لكلِ شيءٍ قَدْراً﴾.

(٢٦) من علاماتِ النُّجْحِ في النِّهايات، الرجوعُ إلى اللهِ في البدايات.

أي من العلامات الدالة على النُجح بضم النون؛ أي الظفر للمـريد بمقصوده في نهايته، الرجوعُ إلى الله تعالىٰ، بالتوكل عليه والاستعانة به في بدايته. فمن صحح بدايته بالرجوع إلى الله، والتوكل في جميع أموره عليه، نجح في نهايته التي هي حال وصوله إلى مطلوبه، وفاز بما يقربه لديه. وأما من لم يصحح بدايته بما ذُكر، انقطع عن الوصول، ولم يبلغ في نهاية أمره المأمول. قال بعض العارفين: من ظن أنه يصل إلى الله بغير الله، قُطع به. ومن استعان على عبادة الله بنفسه، وكل إلى نفسه.

(٢٧) مَنْ أشْرَقَتْ بدايتُه، أشرقت نهايتُه.

أي من عَمَّرَ أوقاته في حال سلوكه بأنواع الطاعة، وملازمة الأوراد، أشرقت نهايته بإفاضة الأنوار والمعارف، حتى يظفر بالمراد. وأما من كان قليل الاجتهاد في البداية، فإنه لا ينال مزيد الإشراق في النهاية.

(٢٨) ما استُودِعَ في غَيْبِ السَّرائرِ، ظَهَرَ في شَهادةِ الظَّواهرِ.

هذه علامات يُعرف بها حال المريد السلك. فإن الظاهر عنوان الباطن. فمن طابت سريرتُه حُمِدتْ سيرتُهُ.

وَمَهما تكنْ عندَ امـرىءٍ مِنْ خَليقَةٍ   وإنْ خالَها تخفىٰ علىٰ النَّاسِ تُعْلَمِ

وقال آخر:

دلائـلُ الحبِّ لا تَخْفَى علىٰ أحـدٍ   كحامِلِ المِسْكِ لا يَخْفَى إذَا عَبِقَا[١]

فما في القلب من محمود أو مذموم يـظهر على الجـوارح. لما في الحديث: «لو خَشَع قَلْبُ هذا لـخَشَعَتْ جوارُحُهُ»[٢] فمن ادعى بقلبه معرفة الله

(١) عبق به الطيب كفرح عبقاً وعباقة: لَزِقَ به. اهـ مختار القاموس المحيط.

(٢) الحديث: رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وهو ضعيف. وقد ذكره عبدالله بن المبارك في الزهد موقوفاً على سعيد بن المسيب وهو ضعيف أيضاً.

تعالى ومحبته، ولم تظهر على ظاهره ثمرات ذلك من اللَّهَج[1] بذكره، والمسارعةِ إلى اتباع أمره، والفرارِ من القواطع الشاغلة عنه. والاضطرابِ عن الوسائط المُبْعِدَة منه، فهو كذاب في دعواه متخذ إلّه هواه.

(٢٩) شَتَّانَ بين مَنْ يَسْتَدِلُّ به أو يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ، المُسْتَدِلُّ به عَرَفَ الحقَّ لأهلِهِ، وأثبتَ[2] الأمْرَ مِنْ وُجودِ أصْلِهِ، والاستدلالُ عليه مِنْ عَدَمِ الوصولِ إليهِ. وإلَّا فَمَتَىٰ غابَ حتى يُسْتَدَلَّ عليه؟ وَمَتَىٰ بَعُدَ حتى تكونَ الآثارُ هي التي تُوصِلُ إليه؟.

شتان؛ اسم فعل ماض بمعنى بعد. أي بعد ما بين من يستدل به تعالى على المخلوقات، وهم المرادون أهل الشهود. أو بمعنى الواو؛ أي وبين من يستدل عليه تعالى بالمخلوقات، وهم المريدون أهل السلوك. فأحوال هذين الفريقين متفاوتة في الرتبة. فالمستدِل به تعالى على غيره عَرَفَ الحق؛ وهو الوجود الذاتي، لأهله؛ وهو الله تعالىٰ، وأثبت الأمر؛ أي وجود الحوادث، من وجود أصله، وهو الله تعالى؛ أي جعل وجودهم مستفَاداً من وجوده، إذ لولا إيجاده لهم لما وجدوا، وهؤلاء هم أهل الجذب الذين جذبتهم يد العناية؛ إما ابتداء، أو بعد السلوك، وهم العارفون بربهم، فلا يشهدون غيره، ولذلك يستدلون به على الأشياء في حال تدليهم. وأما الاستدلال عليه تعالى، فلا يكون إلا من عدم الوصول إليه؛ لأن السالك يكون محجوباً بالآثار، فيستدل بها على مَنْ كَوَّرَ الليل والنهار، فيكون من الاستدلال بالمجهول على المعلوم، وبالمعدوم على الموجود، وبالأمر الخفي على الظاهر الجلي. وذلك لوجود الحجاب، ووقوفه مع الأسباب. وإلا فمتى غاب الحق حتى يُستدَلَّ بمخلوقاته عليه، ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار الناشئة عن قدرته هي التي توصل إليه. وما ألطف قولَ بعض أهل الشهود في هذا المقام المحمود:

---

(١) اللهج بالشيء: الوَلُوع به، وقد لَهِجَ به من باب طرب: إذا أُغْرِيَ به فثَابَر عليه. ا هـ مختار الصحاح.

(٢) وفي نسخة: فأثبت الأمر. ا هـ.

عجيبٌ لمن يبغي عليك شهادةً   وأنت الذي أشهدتَه كلَّ مَشْهدِ

قال ابن عباد نقلاً عن لطائف المنن[1]: واعلم أنَّ الأدلة إنما تنصب لمن يطلب الحق، لا لمن يشهده، لأن الشاهد غني بوضوح الشهود عن أن يحتاج إلى دليل، فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسبية، ثم تعود في نهايتها ضرورية. وإذا كان من الكائنات ما هو غني بوضوحه عن إقامة دليل، فالمكوِّن أولى بغناه عن الدليل منها. ثم قال: ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه. فليت شعري هل لها وجود معه، حتى توصل إليه؟ أو هل لها من الوضوح ما ليس له، حتى تكون هي المظهرة له؟ وإن كانت الكائنات موصلة إليه، فليس لها ذلك من حيث ذاتها، لكنْ هو الذي ولَّاها رتبة التوصيل فوصَّلت، فما وصَّل إليه غير إلآهيته. ولكن الحكيم هو واضع الأسباب، وهي لمن وقف عندها، ولم تنفذ قدرته عين الحجاب.

(٣٠) ﴿ لينفق ذو سَعة من سَعته ﴾[2] الواصلون إليه ﴿ ومن قُدِرَ عليه رزقه ﴾[2] السائرون إليه.

أي لينفق الفريق صاحب السعة في المعرفة وعلوم الأسرار من سعته؛ وهم الواصلون إليه تعالى، فيفيضون على غيرهم مما آتاهم الله، ويتصرفون في العوالم كيف شاءوا. ومن قُدِر؛ بضم القاف وكسر الدال المهملة؛ أي والفريق الذي ضُيِّقَ عليه رزقه من ذلك، فلينفق مما آتاه الله على قدر ما أعطاه، وهم السائرون إليه تعالى. فقوله الواصلون خبر مبتدأٍ محذوف؛ أي هم الواصلون إليه. وكذلك السائرون.

---

(١) كتاب لطائف المنن للشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري. ذكر فيه جملاً من فضائل الشيخ أبي العباس المرسي، وشيخه أبي الحسن الشاذلي. ورتبه على مقدمة بيَّن فيها تفضيل النبي ﷺ على جميع بني آدم وذكر أقسام الولاية، وعشرة أبواب وخاتمة. ا هـ «كشف الظنون» (٢/١٥٥٤) بتصرف.

(٢) سورة الطلاق: الآية (٧) وتمامها: ﴿ لِيُنْفِقْ ذو سَعَةٍ من سَعَتِه ومن قُدِرَ عليه رزقُهُ فليُنفِقْ مما آتاه الله لا يُكلِّفُ اللهُ نفْساً إلا ما آتَاها سيجعلُ اللهُ بعد عُسْرٍ يُسْراً ﴾.

(٣١) اهتدىٰ الراحلونَ إليه بأنوارِ التوجُّهِ، والواصلونَ لهم أنوارُ المواجهةِ. فالأوَّلون للأنوارِ، وهؤلاء الأنوارُ لهم، لأنَّهم لله لا لشيءٍ دونَه، ﴿ قل اللهُ ثم ذَرْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُون ﴾[١].

أي اهتدى السالكون السائرون إلى الله تعالى بأنوار التوجه؛ أي الأنوار الناشئة من العبادات، والرياضات التي توجهوا بها إلى حضرة الرب، فإن الله تعالى يقول: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[٢]. والواصلون إلى الله تعالى لهم أنوار المواجهة؛ أي التقرب والتحبب. فالأولون عبيد للأنوار؛ لاحتياجهم إليها في الوصول إلى مقصودهم. وهؤلاء؛ أي الواصلون، الأنوار لهم؛ لأنهم لله لا لشيء دونه، عملاً بإشارة قوله تعالى: ﴿ قل اللهُ ﴾ أي توجه إليه، ولا تمل إلى أنوار ولا غيرها، ﴿ ثم ذرهم ﴾؛ أي اتركهم، ﴿ في خوضهم يلعبون ﴾. فإفراد التوحيد بعد فناء الأغيار، هو حق اليقين. ورؤية ما سوى الله، خوض ولعب.

(٣٢) تَشَوُّفُك إلى ما بَطَنَ فيكَ مِنَ العيوبِ، خَيْرٌ[٣] من تَشوُّفِك إلى ما حُجِبَ عنكَ من الغيوب.

تشوفك؛ بالفاء في الموضعين؛ أي تطلعك بعين البصيرة إلى ما بطن؛ أي خفي فيك، من العيوب والأمراض القلبية؛ كالكبر والحقد والعجب والرياء والسمعة والمداهنة وحب الرياسة والجاه ونحو ذلك، حتى تتوجه همتك إلى زوال ذلك بالرياضة والمجاهدة، خصوصاً على يد شيخ عارف، خَيْرٌ لك من تطلعك إلى ما حجب عنك من الغيوب؛ أي ما غاب عنك، كالأسرار الإلٓهية، والكرامات الكونية؛ لأن هذا حظ نفسك، وذلك واجب عليك لربك. فإن نفسك

---

(١) سورة الأنعام: من الآية (٩١).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٦٩) وتمامها ﴿ والذينَ جَاهدُوا فينا لنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنا وإنَّ اللهَ لَمَعَ المحسنين ﴾.

(٣) وفي نسخة: خير لك من...

تطلب الكرامة، ومولاك مطالبك بالاستقامة؛ ولأن تكون بحق مولاك خير من أن تكون بحظ نفسك وهواك. وهذه الحكمة عمدة في طريق القوم، فطَهِّرْ نفسك من أنواع الرذائل، قبل أن يتوجه عليها اللوم.

(٣٣) الحقُّ ليسَ بمحجوبٍ[١]، وإنَّما المحجوبُ أنْتَ عن النَّظرِ، إذ لو حَجَبَهُ شيءٌ لسَتَرَه ما حَجَبَهُ، ولو كان له ساترٌ لكانَ لوجودِهِ حاصرٌ، وكلُّ حاصرٍ لشيء فهو لَهُ قاهِرٌ. ﴿ وهو القاهرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾[٢].

يعني أن الحجاب لا يتصف به الحق سبحانه وتعالى؛ لاستحالته في حقه. وإنما المحجوب أنت أيها العبد، بصفاتك النفسانية عن النظر إليه، فإن رمت الوصول فابحث عن عيوب نفسك وعالجها، فإن الحجاب يرتفع عنك، فتصل إلى النظر إليه بعين بصيرتك، وهو مقام الإحسان الذي يعبرون عنه بمقام المشاهدة. وقد استدل المصنف على استحالة الحجاب على رب الأرباب بقوله: إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه؛ أي عن النظر إليه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده؛ أي ذاته حاصر أي محيط به؛ لاستلزام الساتر لانحصار المستور فيه، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر؛ لأنه يجعله في أسر قبضته وتحت حكمه، وذلك لا يصح في حقه تعالى لقوله في كتابه: ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ فوقية معنوية لا مكانية، فإنه تعالى منزه عن الزمان والمكان.

(٣٤) أُخْرُجْ من أوصافِ بشريَّتِكَ، عن كل وَصْفٍ مناقضٍ لعبوديتكَ، لتكونَ لنداءِ الحقِّ مجيباً، ومن حَضْرَتِهِ قريباً.

أوصاف البشرية إما ظاهرة؛ وهي أعمال الجوارح. وإما باطنة؛ وهي أعمال القلب. وكل منهما إما طاعة، وإما معصية. والنظر فيما يتعلق بالأعمال

---

(١) وفي نسخة: الحق ليس بمحجوب عنك. ا هـ.

(٢) سورة الأنعام: الآية (١٧) وتمامها ﴿ وهو القاهرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وهو الحكيمُ الخبيرُ ﴾ والآية (٦١) وتمامها ﴿ وهو القاهرُ فوقَ عبادِهِ ويرسِلُ عليكم حَفَظَةً حتى إذا جاءَ أحدَكم الموتُ توفَّتْهُ رسلُنا وهم لا يُفرِّطُون ﴾.

الظاهرة، من طاعة أو معصية، يسمىٰ تفقهاً. وفيما يتعلق بالأعمال الباطنة، يسمى تصوفاً. ومتى صلح الباطن، صلح الظاهر. فإن القلب كالملك، والجوارح كالجنود التي لا تتخلف عن طاعته. وصلاحه إنما يكون بالتخلي عن كل وصف مناقض للعبودية، كالكبر والعجب والرياء وغير ذلك، والتحلي بالأوصاف المحمودة التي تقربه إلى السيد المالك؛ كالتواضع والحلم والرضا والإخلاص في العبودية إلى غير ذلك من أوصاف الإيمان التي يكتسب بها أبهى مزية. فإذا تَخَلَّق المريد بذلك، ناداه الحق بقوله له: يا عبدي، فيجيبه حينئذ بقوله: لبيك يا ربي، فيكون صادقاً في إجابته، محققاً لنسبته. وهذه هي العبودية الخاصة؛ لأن العبودية قسمان: عبودية ملك وقهر؛ وهي عامة لكل المخلوقات، كما في قوله تعالى: ﴿ إنْ كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمنِ عبداً ﴾[1]. وعبودية خاصة بأحبابه[2]؛ وهي المرادة بقول القاضي عياض[3]:

---

(١) سورة مريم: الآية (٩٣) وتمامها مع آيتين بعدها: ﴿ إنْ كُلُّ مَنْ في السمواتِ والأرضِ إلا آتي الرحمنِ عَبْداً * لقد أحْصَاهُمْ وعدَّهُمْ عدّاً * وكلُّهم آتيه يومَ القيامةِ فَرْداً ﴾.

(٢) وأحب أحبابه سبحانه خير خلقه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الذي خصه بقوله تعالى: ﴿ سبحانَ الذي أسرىٰ بِعَبْدِهِ ليلاً مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجد الأقصى الذي باركْنَا حولَهُ لِنُرِيَهُ من آياتِنا إنه هو السميعُ العليمُ ﴾.

(٣) هو: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم. ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة، وتوفي بمراكش. من تصانيفه «الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ» (٤٧٦ ـ ٥٤٤ هـ) (١٠٨٣ ـ ١١٤٩ م). اهـ «الأعلام» للزركلي (٥/٢٨٢) باختصار.

وقال ابن خلكان: كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو، واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، وصنف التصانيف المفيدة، وله شعر حسن.

ونقل عن كتاب «الصلة» لابن بشكوال (٤٢٩) فقال: دخل الأندلس طالباً للعلم، فأخذ بقرطبة عن جماعة، وجمع من الحديث كثيراً، وكان له عناية كبيرة به والاهتمام بجمعه وتقييده. وهو من أهل التفنن في العلم والذكاء واليقظة والفهم، واستقضي ببلده ـ يعني مدينة سبتة ـ مدة طويلة حمدت سيرته فيها ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة. اهـ «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣/٤٨٣) بتصرف واختصار.

ومِـمَّـا زادنـي شَـرَفـاً وتـيـهـاً　　وَكِـدْتُ بـأخْمَصي أطَـأُ الثُّـرَيَّـا
دخـولي تحت قـولِـكَ يـا عبـادي　　وأنْ صَـيَّـرتَ أحْـمَـدَ لـي نَـبِـيَّـا

ويكون أيضاً من حضرته تعالى قريباً؛ لبعده عن نفسه التي من شأنها النفور عنها، والفرار منها. فمرتبة العبودية، أنالته هذه الخصوصية. واعلم أن المراد بحضرة الله تعالى ـ حيث أُطلقت في لسان القوم ـ شهودُ العبد أنه بين يدي الله تعالى، فما دام هذا مشهده، فهو في حضرة الله. فإذا حُجب عن هذا المشهد، فقد خرج منها. ثم إن هذا السلوك لا يتيسر إلا لمن حاسب نفسه، وأخذ حذره منها. كما قال المصنف:

(٣٥) أصلُ كلِّ معصيةٍ وغَفْلَةٍ وشهوةٍ الرِّضا عن النَّفْسِ، وأصلُ كلِّ طاعةٍ وَيَقَظَةٍ وَعِفَّةٍ عدمُ الرِّضا منكَ عَنْها. وَلأَنْ تَصْحَبَ جَاهِلاً لا يَرْضَىٰ عن نَفْسِه، خيرٌ لك من أنْ تصحبَ عالماً يرضَىٰ عن نَفْسِهِ، فأيُّ علمٍ لعالمٍ يرضى عَنْ نفسِه؟ وأيُّ جهلٍ لجاهلٍ لا يرضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ؟.

يعني أن النظر إلى النفس بعين الرضا يوجب تغطيةَ عيوبها، ويصيِّرُ قبيحها حسناً. والنظر إليها بعين السخط يكون بضد ذلك، على حد قول القائل:

وعينُ الـرِّضَـا عن كُـلِّ عيبٍ كليلةٌ　　كما أنَّ عينَ السُّخْطِ تُبْدي المَساوِيا

فمن رضي عن نفسه، استحسن حالها، فتستولي عليه الغفلة عن الله تعالى، فينصرف قلبه عن مراعاة خواطره، فتثور عليه الشهوة، وتغلبه؛ لعدم وجود المراقبة القلبية التي تدفعها، فيقع في المعاصي لا محالة. فعَطْفُ الغفلةِ والشهوةِ على المعصية، من عطف السَّبَبِ على المسبَّب. وكذا عَطْفُ اليقظةِ والعفة على الطاعة، فإن اليقظة التي هي التنبه لما يرضي الله تعالى، والعفة التي هي علو الهمة عن الشهوات، يتسبب عنهما الطاعة التي هي اتباع المأمورات، واجتناب المنهيات. وإنما كان الرضا عن النفس أصل كل معصية؛ لأنها أمَّارة بالسوء، فهي العدو الملازم. وفي الحديث: «أعدىٰ عدوِّكَ نَفْسُك التي بينَ

جَنْبَيْكَ»[1]. وناهيك قول يوسف الصديق: ﴿ وما أُبَرِّىءُ نفسي إنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوءِ ﴾[2]. ولله دَرُّ الإمام البوصيري[3] حيث قال:

---

(١) الحديث: ذكره الغزالي في «الإحياء»، وقال الحافظ العراقي في تخريجه: أخرجه البيهقي في الزهد من حديث ابن عباس، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين أقول: وانظر ترجمته في «ميزان الاعتدال» للذهبي.

وقد ذكر هذا الحديث العجلوني في «كشف الخفاء» وضعفه، وقال: وله شاهد من حديث أنس ولم يذكره.

وما أحسن ما قيل:

إنـي بـليـت بـأربـع مـا سُـلِّطُوا إلا لأجـل شـقـاوتـي وعـنـائـي
إبـليس والـدنيـا ونـفـسـي والـهـوى كـيـف الـخـلاص وكـلهـم أعـدائـي

«الكشف» حديث رقم (٤١٢).

(٢) سورة يوسف: الآية (٥٣) وتمامها ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نفسي إنَّ النَّفْسَ لأمَّارةٌ بالسُّوءِ إلا ما رَحِمَ ربِّي إنَّ ربي غفورٌ رحيمٌ ﴾.

(٣) هو: محمد بن سعيد بن حماد بن عبدالله الصنهاجي البوصيري المصري، شرف الدين، أبو عبدالله: شاعر حسن الديباجة مليح المعاني. نسبته إلى بوصير (من أعمال بني سويف بمصر) أمه منها. وأصله من المغرب من قلعة حماد، من قبيل يعرفون ببني حبنون. ومولده في بهشيم (من أعمال البهنساوية صناعة الكتابة في الشرقية ببلبيس). (٦٠٨ - ٦٩٦ هـ) (١٢١٢ - ١٢٩٦ م). ا هـ «الأعلام» للزركلي (١١/٧).

وقال عنه صاحب «فوات الوفيات»: كان أحد أبويه من أبوصير والآخر من دَلَاص، فركبت له نسبة منهما وقيل الدلاصيري، لكنه اشتهر بالبوصيري. وللبوصيري في مدائح النبي ﷺ قصائد طنانة، منها قصيدة مهموزة أولها: كيف ترقىٰ رقيك الأنبياء، وقصيدة على وزن بانت سعاد، وأولها:

إلـى متـى أنت بـالـلذات مـشـغـول وأنت عن كـل مـا قـدمت مسـؤول

وقصيدته المشهورة بالبردة. قال البوصيري: كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله ﷺ منها ما كان اقترحه علي الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فالج أبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه البردة، فعملتها واستشفعت به إلى الله تعالى في أن يعافيني، وكررت إنشادها، وبكيت، ودعوت، وتوسلت، ونمت، فرأيت النبي ﷺ فمسح على وجعي بيده المباركة، وألقى علي بردة، فانتبهت، ووجدت فيَّ نهضة، فقمت وخرجت من بيتي. ا هـ «فوات الوفيات» للكتبي (٤١٢/٢) بتصرف واختصار.

وَخَالِفِ النَّفْسَ والشَّيْطَانَ واعْصِهِمَا ... وإنْ هُمَا مَحَضَاكَ النُّصحَ فاتَّهِمِ
ولَا تُطِعْ منْهُما خَصْماً وَلَا حَكَماً ... فَأنْتَ تعرِفُ كَيْدَ الخَصْمِ والْحكَمِ

ولما كان الرضا عن النفس، من شأن من يتعاطى العلوم الظاهرية، التي لا تدل على عيوب النفس، نهى المصنفُ عن صحبتهم بقوله: وَلأَنْ تَصْحَبَ؛ بفتح لام الابتداء الداخلة على أنِ المصدرية؛ أي وَلَصُحْبَتُكَ جاهلاً لا يرضى عن نفسه، خير لك في تحصيل فائدة الصحبة التي هي الزيادة في حالك، من أن تصحب عالماً بالعلوم الظاهرية، يرضى عن نفسه. فإن المدار في الانتفاع بالصحبة، إنما هو على العلم بعظمة الله وجلاله وإحسانه، الذي ينشأ عنه معرفة النفس وعيوبها، لا على العلوم العقلية والنقلية. فأيُّ عِلْمٍ؛ أي نافعٍ لعالم بالعلوم الظاهرية يرضى عن نفسه. وأيُّ جَهْلٍ ضارٍ لجاهل بالعلوم الظاهرية لا يرضى عن نفسه؛ لعلمه بعيوبها، فإنه وإن قَلَّتْ بضاعته من الأحكام، لا بد أن يحصلها بالوقائع على مدى الأيام. فلا ينبغي للمريد أن يصحب إلا من يكون عارفاً بعيوب نفسه، غيرَ راضٍ عنها؛ ليقتدي به في أفعاله، فإن الطبع سراق. كما قال بعضهم:

عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قرينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بالمقارَنِ يَقْتَدي
إذا كُنْتَ في قَوْمٍ فَصاحِبْ خِيَارَهُمْ ... وَلَا تَصْحَبِ الأَرْدىٰ فَتَرْدىٰ مَع الرَّدي

(٣٦) شُعاعُ البَصيرةِ يُشْهِدُكَ قربَهُ منكَ، وعينُ البَصيرةِ يُشْهِدُكَ[١] عدمَكَ لِوُجُودِه، وَحَقُّ البَصيرةِ يُشْهِدُكَ وُجودَهُ، لا عدَمَكَ ولا وُجودَكَ.

يشير إلى ثلاث مراتب: فشعاعُ البصيرة؛ ويُعَبَّر عنه بنور العقل وبعلم اليقين، يشهدك قربه تعالى منك؛ قرب علم وإحاطة، فتستحي منه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك. وعينُ البصيرة؛ ويعبر عنه بنور العلم وبعين اليقين، يشهدك عدمك لوجوده الذي تضمحل الموجودات معه، فإن وجودها عاريةٌ منه،

---

(١) وفي نسخة: تشهدك.

وعند ذلك لا يبقى في نظرك ما تستند إليه سواه، فإنك إذ ذاك لا تشهد إلا إياه. وحقُّ البصيرة؛ ويعبر عنه بنور الحق وبحق اليقين، يشهدك وجوده، لا عدمك ولا وجودك، فتكون في مشاهدة الحق حال كونك في مقام الفناء الكامل، الذي تفنى فيه حتى عن فنائك، استهلاكاً في وجود سيدك.

وبعد الفنا في اللهِ كُنْ ما تشا فعلمُكَ لا جهلٌ وفعلُكَ لا وزرُ

(٣٧) كانَ اللهُ ولا شيءَ مَعَهُ، وهو الآنَ على ما عَلَيْه كانَ.

أي كينونة لا يصحبها زمان ولا مكان، فإنهما من مخلوقاته، والمراد بهذه الحكمة؛ أنه لا شيء معه في أبده، كما لم يكن معه شيء في أزله؛ لثبوت أَحَدِيَّتِهِ. يوضح ذلك قوله فيما سيأتي: الأكوانُ ثابتةٌ بإثباته مَمْحُوَّةٌ بأحديةِ ذاته[1].

(٣٨) لا تَتَعَدَّ نِيَّةُ همَّتِكَ إلىٰ غيرِهِ، فالكريمُ لا تَخَطاهُ الآمالُ.

أي لا تجعل قصدك متعدياً إلى غيره تعالى، فالكريم لا تتخطاه آمال المؤملين، فإن ذا الهمة العلية يأنف من رفع حوائجه إلى غير كريم، ولا كريم على الحقيقة إلا رب العالمين. وأجمع العبارات في معنى وصف الكريم ما قيل: الكريم هو الذي إذا قَدرَ عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبالي كم أعطى، ولا لمن أعطى، وإن رُفعت حاجةٌ إلى غيره لا يرضى، وإذا جُفيَ عاتب وما استقصىٰ، ولا يضيع من لاذ به والتجا، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء. فإذا كانت هذه الصفات لا يستحقها أحد سوى الله تعالى فينبغي أن لا تتخطاه آمال المؤملين. كما قال بعض العارفين:

حرام علىٰ مَنْ وحَّدَ اللهَ ربَّهُ وأفْرَدَهُ أنْ يجتدي أحداً رِفْدا
ويا صاحبي قِفْ بي مع الحقِّ وِقْفَةً أموتُ بها وَجْداً وأحيا بها وَجْدا
وَقُلْ لملوكِ الأرضِ تَجْهَدُ جَهْدَها فذا المُلْكُ مُلْكٌ لا يُباع ولا يُهْدىٰ

(١) الحكمة رقم (١٤١).

(٣٩) لا تَرْفَعَنَّ إلى غيرِه حاجةً هو مورِدُها عليكَ، فكيفَ يَرْفَعُ غيرُه ما كانَ هُوَ له واضعاً؟ مَنْ لا يستطيعُ أنْ يَرفعَ حاجَةً عَنْ نَفْسِهِ، فكيفَ يستطيعُ أنْ يكونَ لها عِن غَيْرِهِ رافعاً؟.

أي لا ترفع إلى غيره تعالى حاجة؛ كفقرٍ أو نازِلَةٍ هو موردها عليك اختباراً لك، بل ارفع ذلك إليه، فإنه سبحانه يحب أن يُسأل. وفي الحديث: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عليه»[1]. وما ألطف قولَ بعضهم:

لا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدمَ حاجَةً ... وَسَلِ الَّذي أبوابُهُ لا تُحجبُ
فاللهُ يغضَبُ إن تَركْتَ سُؤالَهُ ... وبُنَيُّ آدمَ حينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

ومن المحال أن يرفع غيرُه سبحانه ما كان هو له واضعاً، فإن الله غالب على أمره. والعبد شأنه العجز عن رفع النازِلة عن نفسه، فكيف يستطيع أن يرفعها عن غيره؟ فالطلب من الخلق غرور وباطل، وليس تحته عند أرباب البصيرة طائل. وهذا إذا كان على وجه الاعتماد عليهم، والاستناد إليهم، مع الغفلة في حال الطلب عن الله تعالى. وأما إذا كان من باب الأخذ بالأسباب، مع النظر إلى أنَّ المعطيَ في الحقيقة الملكُ الوهاب، فهو من هذا الباب. والله أعلم بالصواب.

(٤٠) إنْ لم تُحسِّن ظنَّكَ به لأجْلِ وَصْفِهِ، حَسِّنْ ظَنَّكَ به لأجْلِ معاملتِهِ[2] مَعَكَ، فهل عَوَّدَكَ إلاّ حُسْناً؟ وهل أسْدىٰ إليكَ إلا مِنناً؟

---

(١) الحديث: رواه أحمد في «المسند» (٢/٤٤٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٦٥٨)، والترمذي رقم (٣٣٧٠)، وابن ماجه رقم (٣٨٢٧)، والحاكم في «المستدرك» (١/٤٩١) من حديث أبي هريْرة ـ رضي الله عنه ـ وإسنادُه ضعيف، ولكن للحديث شواهد بمعناه، منها؛ حديث «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل» من حديث عبدالله بن مسعود وحديث: «إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء» فهو حديث حسن بشواهده. وحديث «إن الله يحب الملحين في الدعاء» رواه الطبراني في الدعاء، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) وفي نسخة: (إن لم تُحَسِّنْ ظنك به لأجل حُسْنِ وَصْفِهِ، فَحَسِّنْ ظنك به لوجود معاملتِهِ مَعَكَ، فهل عودك. . . .).

اعلم أنَّ تحسين الظن بالله تعالى أحد مقامات اليقين، والناس فيه على قسمين: فالخاصة يُحسِّنُون الظن به؛ لاتصافه بالصفات العلية، والنعوت السنية. والعامة لما عودهم به من الإحسان، وأوصله إليهم من النعم الحسان. فإن لم تصلْ ـ أيها المريد ـ إلى مقام الخاصة، فحسِّنْ ظنك به لحسن معاملته معك، فإنه ما عَوَّدَكَ إلّا عطاءً حسناً، ولا أسدى؛ أي أوصل، إليك إلّا مِنناً.

والله عَــوَّدَكَ الـجـمـيــلَ فَقِسْ عـلى مــا قَــدْ مَـضَـى

وينبغي للعبد أن يُحْسِنَ الظن بربه في أمر دنياه وأمر آخرته؛ أما أمر دنياه فأن يكون واثقاً بالله تعالى في إيصال المنافع إليه من غير كد ولا سعي، أو بسعي خفيف مأذون فيه مأجور عليه، بحيث لا يفوِّتُهُ شيئاً من فرض ولا نفل، فيوجب له ذلك سكوناً وراحة في قلبه، فلا يستفزه طلب، ولا يزعجه سبب. وأما أمر آخرته فأن يكون قوي الرجاء في قبول أعماله الصالحة، فيوجب له ذلك المبادرة لامتثال الأمر، والتكثير من أعمال البر. ومن أعظم مواطن حسن الظن بالله تعالى حالة الموت لما في الحديث: «لا يموتَنَّ أَحَدُكُم إلا وهو يُحْسِنُ الظَّنَ باللهِ»[1] وورد: «أنا عند ظَنِّ عبدي بي فليَظُنَّ بي ما شَاءَ»[2].

---

(١) الحديث: رواه أحمد في «المسند» (٣/٢٩٣)، ومسلم في «صحيحه» رقم (٢٨٧٧)، وأبو داود رقم (٣١١٣)، وابن ماجه رقم (٤١٦٧) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ، قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عزّ وجلّ».

(٢) الحديث: رواه بهذا اللفظ الدارمي (٢/٣٠٥)، وأحمد في «المسند» (٤/١٠٦)، والطبراني في «الكبير»، والحاكم في «المستدرك» (٤/٢٤٠) من حديث واثلة بن الأسقع ـ رضي الله عنه ـ وهو حديث صحيح. ورواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ شبراً، تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً، تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة».

(٤١) العَجَبُ كلُّ العجبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مما لا انفكاكَ لهُ عَنْهُ، ويَطْلُبُ ما لا بقاءَ لَهُ مَعَهُ ﴿فإنَّها لَا تعمى الأبصارُ ولكنْ تعمى القلوبُ التي في الصُّدور﴾[1].

أي العجب الكامل من العبد الذي يهرُب ـ بضم الراء من باب نصر ـ أي يَتباعد من ربه الذي لا انفكاك له عنه؛ بأن لا يفعل ما يقرِّبُه إليه، مع توارد إحسانه عليه. ويطلب ما لا بقاء له معه؛ وهو الدنيا، وكل شيء سوى الله، بأن يقبل على شهواته، ويتبع شيطانه وهواه. وما ألطفَ ما قيل لمن هو من هذا القبيل:

تَفْنى اللّذائذُ يا مَنْ نالَ شهوتَهُ ... مِنَ المعاصي ويبقى الإِثْمُ والعارُ
تبقى عواقبُ سُوءٍ لا انفكاكَ لها ... لا خيرَ في لذةٍ مِنْ بعدها النَّارُ

وهذا إنما يكون من عمى البصيرة؛ التي هي عين القلب، حيث استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وآثر الفاني على الباقي. فإنها؛ أي القصة والشأن، وجملة لا تعمى الأبصار خبر مفسِّر لها. وفي الآية إشارة إلى أنَّ عمى الأبصار بالنسبة لعمى البصائر كلاعمى، فإن عمى الأبصار إنما يحجب عن المحسوسات الخارجية. وأما عمى البصائر؛ أي عيون القلوب، فإنه يحجب عن المعاني القلبية والعلوم الربانية.

(٤٢) لا ترحلْ من كَوْنٍ إلى كون، فتكونَ كحمارِ الرَّحى يسير[2] والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحلَ مِنْهُ، ولكنِ ارحَلْ من الأكوانِ إلى المكوِّنِ ﴿وأنَّ إلى ربِّكَ المُنْتَهى﴾[3] وانظر إلى قوله ﷺ: «فمَنْ كانتْ هجرتُه إلى اللهِ ورسولهِ فهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولهِ. ومَنْ كانتْ هجرتُه إلى دنيا يصيبُها أو

---

(١) سورة الحج: الآية (٤٦) وتمامها: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوب يعقلونَ بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنَّها لا تعمى الأبصارُ ولكنْ تعمى القلوبُ التي في الصدور﴾.

(٢) وفي نسخة: والمكان الذي ارتحل إليه...

(٣) سوة النجم: الآية (٤٢).

امرأةٍ يتزوجُها، فهجرتُه إلى ما هاجر إليه»[1]. فافهم قَوْلَهَ عليه الصلاةُ والسلامُ[2]، وتأمَّلْ هذا الأمرَ إنْ كنتَ ذا فهم. والسلام[3].

أي لا تطلب بأعمالك الصالحة عوضاً، ولو في الآخرة. فإنَّ الآخرة كَوْنٌ كالدنيا. والأكوان متساوية؛ في أنها أغيار، وإنْ وُجِدَ في بعضها أنوار. بل اطلب وجه الكريم المنان؛ الذي كَوَّنَ الأكوانَ، وفاءً بمقتضى العبودية، وقياماً بحقوق الربوبية؛ لِتَتَحقَّق بمقام: ﴿ وأنَّ إلى رَبِّكَ المُنْتَهى ﴾[4]. وهذا مقام العارفين الذين رغبوا عن طلب الثواب، ومَحَضُوا النظر إلى الكريم الوهاب، فتحققوا بمقام الإخلاص الناشيء عن التوحيد الخاص. وأمَّا مَنْ فرَّ مِنَ الرياء في عبادته، وطلب بها الثواب، فقد فَرَّ من كَوْن إلى كَوْن بلا ارتياب، فهو كحمار الرحى؛ أي الطاحون، يسير ولا ينتقل عمَّا سار منه لرجوعه إليه. وفي هذا التشبيه من التنفير عن هذا الأمر ما لا مزيد عليه. وانظر إلى قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ أي نيةً وقصداً، فهجرته إلى الله ورسوله»؛ أي وصولاً. فلم يتحد الشرط والجزاء[5] في المعنى. فقولُه: فهجرته إلى الله ورسوله، هو معنى الارتحال من

---

(١) الحديث: هو جزء من حديث أوله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى» رواه البخاري في عدة أمكنة من «صحيحه»، ومسلم رقم (١٩٠٧)، وأبو داود رقم (٢٢٠١) والنسائي (١/٥٩ ـ ٦٠)، وابن ماجه رقم (٤٢٢٧)، وأحمد في «المسند» (١/٢٥، ٤٣). وهو من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، وتدخل الأحكام كلها في هذا الحديث، ويشير الحديث إلى أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى فهو باطل لا ثمرة له في الدنيا ولا في الآخرة. واتفق عبد الرحمن بن مهدي، والشافعي، وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني، وأبو داود، والترمذي، والدارقطني على أنه ثلث الإسلام.

(٢) وفي نسخة: فافهم قوله عليه الصلاة والسلام: «فهجرته إلى ما هاجر إليه» وتأمل هذا....

(٣) وفي نسخة: بحذف (والسلام).

(٤) سورة النجم: الآية (٤٢).

(٥) قوله: (فلم يتحد الشرط والجزاء في المعنى) يعني: أن فعل الشرط وجزاءه اتحدا في اللفظ واختلفا في المعنى، فقُصِدَ بفعل الشرط النيةُ، وبالجواب الوصولُ إلى الله تعالى.

الأكَوْانِ إلى المكوِّن، وهو المطلوب من العبد. وقولُه: فهجرته إلى ما هاجر إليه، هو البقاء مع الأكوان وهو المنهي عنه.

(٤٣) لا تُصْحَبْ مَنْ لا يُنْهِضُكَ حالُه، ولا يَدُلُّكَ على الله مقالُه.

أي لا تصحب من لا يرقِّيك حالُه الذي هو عليه؛ لعدمِ علو همته، فإن الطبع سراق. كما قال بعضهم:

بُنَيَّ اجتنبْ كلَّ ذي بِذْعَةٍ ... ولا تَصحبَنْ مَنْ بها يوصفُ
فيسرقُ طبعُك مِنْ طبْعِهِ ... وأنت بذلك لا تَعْرِفُ

بل اصحب شيخاً عارفاً ينهضك حاله، بأن تكون همته متعلقة بالله تعالى، فلا يلجأ في حوائجه إلا إليه، ولا يتوكل في جميع أموره إلا عليه، ويدلك على الله مقالُهُ؛ لمعرفته بالله تعالى. فصحبةُ الأخيار أصل كبير في طريق القوم. وأما صحبة الأشرار ففيها كبير اللوم، لما فيها من عظيم الآفات الموجِبَة إلى رجوع القهقرى، والانحطاط عن علي الدرجات. كما قال المصنف:

(٤٤) ربّما كنتَ مسيئاً فأراكَ الإِحسانَ منك صُحْبَتُك إلى مَنْ هو أسْوَأُ حالاً منكَ.

فإن صحبتك؛ أي انضمامك إلى من هو أسوأ حالاً منك، سبب لتغطية عيوبِ نفسك، ورؤية كمالِها بالنسبة لغيرك، فتقع في مهاوي الإعجاب والزُّهُوِ بالأعمال، التي ربما كانت في الحقيقة كسراب.

(٤٥) ما قَلَّ عملٌ بَرَزَ من قلبٍ زاهدٍ، ولا كَثُرَ عملٌ بَرَزَ من قلبٍ راغبٍ.

يعني: أن العمل الصادر من الزاهد في الدنيا، كثير في المعنى وإن كان قليلاً في الصورة؛ لسلامته من الآفات القادحة في قبوله من الرياء، والتصنع للناس، وطلب الأعراض الدنيوية. بخلاف الصادر من الراغب فيها، فإنه على العكس من ذلك. وقد شكا بعض الناس لرجل من الصالحين أنه يعمل أعمال البر ولا يجد لها حلاوة في قلبه، فقال: لأنَّ عندك بنتَ إبليس؛ وهي الدنيا، ولا

بد للأب أن يزور ابنته في بيتها؛ وهو قلبك، ولا يؤثر دخوله إلا فساداً. ثم أشار إلى ما هو كالدليل لذلك بقوله:

(٤٦) حُسْنُ الأعمالِ بنتائجُ حُسْنِ الأحوال، وحُسْنُ الأحوال من التَّحقُّق في مقاماتِ الإنزال.

يعني: أن الأعمال الحسنة، إنما هي نتائج الأحوال الحسنة القائمة بالقلب؛ من الزهد في الدنيا، والإخلاص لله تعالى، لا لطلب حظ عاجل، ولا ثواب آجل. وحسن الأحوال ناشىء من التحقق؛ أي التمكن في مقامات الإنزال؛ أي في المقامات التي تنزل في قلوب العارفين، وهي كناية عن المعارف الإلٓهية التي يوردها الله تعالى على قلوبهم، فتكون سبباً في رفع الدعوى، وعدم التعلق بغير المولى. وهذه الثلاثة المذكورة مرتَّب بعضُها على بعض. وبهذا اتضح قول الإمام الغزالي[1]: لا بد في كل مقام من مقامات اليقين، من علم وحال وعمل؛ فالعلم ينتج الحال، والحال ينتج العمل.

---

(١) هو: محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام: فيلسوف متصوف، له نحو مئتي مصنف. مولده ووفاته بالطابران (قصبة طوس بخراسان) رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته. نسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غزالة (من قرى طوس) لمن قاله بالتخفيف (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) (١٠٥٨ - ١١١١ م). اهـ «الأعلام» للزركلي (٧/٢٤٧ - ٢٤٨).

وترجم له ابن خلكان فقال: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الملقب حجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي؛ لم يكن للشافعية في آخر عصره مثله، اشتغل في مبدأ أمره بطوس على أحمد الراذكاني، ثم قدم نيسابور واختلف إلى دروس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، وجدَّ في الاشتغال حتى تخرج في مدة قريبة وصار من الأعيان المشار إليهم في زمن أستاذه، وصنف في ذلك الوقت، وكان أستاذه يتبجح به، ولم يزل ملازماً له إلى أن توفي. أُسْنِد له التدريس في المدرسة النظامية بمدينة بغداد.

وأعجب به أهل العراق، وارتفعت عندهم منزلته. ثم ترك جميع ما كان عليه، وسلك طريق الزهد والانقطاع، وقصد الحج، فلما رجع توجه إلى الشام فأقام بمدينة دمشق مدة يذكر الدروس في زاوية الجامع في الجانب الغربي منه، وانتقل منها إلى البيت المقدس، واجتهد في العبادة وزيارة المشاهد والمواضع المعظمة، ثم قصد مصر وأقام بالإسكندرية =

(٤٧) **لا تترُكِ الذِّكرَ لعدم حضورِكَ مع اللهِ فيه؛ لأنَّ غَفْلَتَكَ عن وجودِ ذكرِه أشدُّ من غَفْلَتِكَ في وجودِ ذِكْرِهِ. فعسى أنْ يرفعَكَ منْ ذكرٍ مع وجودِ غَفْلَةٍ، إلى ذكرٍ مع وجودِ يَقَظَةٍ، ومِنْ ذكرٍ مع وجودِ يَقَظَةٍ، إلى ذكرٍ مع وجودِ حُضُور، ومِنْ ذكرٍ مع وجودِ حضورٍ، إلى ذكرٍ مع[1] غيبةٍ عمَّا سوى المذكورِ، ﴿وما ذلك على الله بعزيزٍ﴾[2].**

أي لا تترك ـ أيها المريد ـ الذكر الذي هو منشور الولاية؛ لعدم حضور قلبك مع الله فيه، لاشتغاله بالأعراض الدنيوية، بل اذكره على كل حال؛ لأن غفلتك عن وجود ذكره؛ بأن تتركه بالكلية، أشد من غفلتك في وجود ذكره، لأنك في هذه الحالة حركت به لسانك، وإن كان قلبك غافلاً عن المذكور. فعسى أن يرفعك؛ أي يرقيك بفضله، من ذكر مع وجود غفلة عنه، إلى ذكر مع وجود يقظة؛ أي تيقظ قلب، لما يناسب حضرته من الآداب، ومن ذكر مع وجود يقظة، إلى ذكر مع وجود حضور في حضرة الاقتراب، ومن ذكر مع وجود حضور، إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور، فتفنى حتى عن الذكر. وفي هذا المقام ينقطع ذكر اللسان، ويكون العبد محواً في وجود العيان، كما قال بعض أهل هذا المقام:

مـا إنْ ذكـرتُـكَ إلا هَمَّ يَقْتُلُني[3] سِـرِّي وقَلْبِي ورُوْحِي عِنْدَ ذِكْـراكَـا

= مدة. ثم عاد إلى وطنه بطوس واشتغل بنفسه وصنف الكتب المفيدة في عدة فنون منها؛ «إحياء علوم الدين» وهو من أنفس الكتب وأجلّها، وله في أصول الفقه «المستصفى». ثم ألزم بالعود إلى نيسابور والتدريس بها بالمدرسة النظامية، فأجاب إلى ذلك بعد تكرار المعاودات، ثم ترك ذلك وعاد إلى بيته في وطنه، واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره، ووزع أوقاته على وظائف الخير: من ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب والقعود للتدريس، إلى أن انتقل إلى ربه. اهـ «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/٢١٦ - ٢١٨) باختصار وتصرف يسير.

(١) وفي نسخة (إلى ذكر مع وجود غيبة...).

(٢) سورة إبراهيم: الآية (٢٠).

(٣) وفي شرح ابن عباد للحكم ورد (يُقْلِقُني) بدلاً من (يقتلني).

حتَّى كـأنَّ رقيبـاً منـكَ يهتفُ بي   إيَّـاكَ وَيْحَـكَ والتَّـذْكـارَ إيَّـاكـا
أما ترى الحقَّ قـد لاحَتْ شواهـدُهُ   وواصَـلَ الكـلَّ من معنـاه معنـاكـا

وإذا صدر ذكر اللسان في هذا المقام، فإنه يخرج من غير قصد ولا تدبر، بل يكون الحقُّ المبين لسانَه الذي ينطق به؛ لأن صاحبه في مقام الحب المشار إليه بحديث: «لا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبَّه، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سمعَهَ الذي يسمعُ به، وبَصَرَه الذي يُبْصِرُ به، ولسانَهُ الذي يَنْطِقُ به»[1] إلى آخر الحديث وهذه المراقي لا يعرف حقيقتها إلا السالكون فقابلها بالتسليم إن لم تكن من أهلها ﴿ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾[2] وخذ في الأسباب يرتفع عنك الحجاب «وما ذلك على الله بعزيز»[3].

(٤٨) مِنْ علاماتِ مَوْتِ القَلْبِ عدمُ الحُزْنِ على ما فاتَكَ من الموافِقاتِ، وَتَرْكُ النَّدمِ على ما فَعَلْتَهُ مِنْ وجودِ الزَّلَّاتِ.

أي إنَّ عَدَمَ حزنك ـ أيها المريد ـ على ما **فاتك** من الموافِقات بكسر

---

(١) الحديث: هو جزء من حديث قدسي طويل، رواه البخاري في «صحيحه» في الرقاق باب التواضع من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته». دون قوله: ولسانه الذي ينطق به. وانظر «جامع العلوم والحكم» ص (٣٤٤) للحافظ ابن رجب الحنبلي فإنه قال: وفي بعض الروايات (ولسانه الذي ينطق به) كما في رواية المؤلف. أقول: ولكنها ضعيفة. وانظر ما قاله الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١/٢٩٢ ـ ٢٩٣) حول هذا الحديث، فإنه من الأحاديث التي تكلم عليها علماء هذا الفن، وإن كان في صحيح البخاري، ولكنه صحيح بطرقه وشواهده.

(٢) سورة الجاثية: الآية (١٨) وتمامها مع ما بعدها ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ على شريعةٍ من الأمر فاتَّبِعْها ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذين لا يعلمون * إنهم لن يُغْنُوا عنكَ من اللهِ شيئاً وإنَّ الظالمين بعضُهم أولياءُ بعضٍ واللهُ وليُّ المتقينَ ﴾.

(٣) سورة إبراهيم: الآية (٢٠).

الفاء؛ أي الطاعات الموافقة للشرع، وتَرْكَ ندمك على ما فعلته من وجود الزلات؛ أي المعاصي التي توجد منك، علامة موت قلبك. ويُفْهَمُ منه أن سرورك بالطاعة، وحزنك على المعصية، علامة حياته. لما في الحديث: «مَنْ سَرَّتْهُ حسَنَتُه وساءَتْهُ سيئته فهو مؤمن»[1]. فإن الأعمال الحسنة علامةَ على رضا الحق، ورضاه يقتضي السرور. والأعمال السيئة علامة على غضبه، وغضبه يقتضي الحزن. فمن رضي الله عنه، وفقه لصالح الأعمال. ومن غضب عليه، تركه في زوايا الإهمال. أسأل الله التوفيق لأقْوَمِ طريق.

(٤٩) لا يَعْظُمِ الذنبُ عندكَ عظمةً تَصُدُّكَ عن حُسْنِ الظنِّ بالله تعالى، فإنَّ مَنْ عَرَفَ ربَّهُ استصْغَرَ في جَنْبِ كَرَمِهِ ذنبَهُ.

لما أفهم كلامُه أن الندم على المعصية حياة القلب، أشار بهذا إلى أن المراد الندم الذي لا يؤدي لليأس من رحمة الله تعالى. فالمطلوب أن تكون خائفاً راجياً، فالخوف يحملك على التوبة من الذنب، والرجاء يُطَمِّعُكَ في القبول. فإن من عرف ربه باللطف والفضل والامتنان، استصغر في جنب كرمه

---

(١) الحديث: جزء من حديث طويل رواه أحمد في «المسند» (١/ ١٨) من حديث عبدالله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ ورواه أيضاً أحمد في «المسند» (١/ ٢٦) من حديث جابر بن سمرة عن عمر ـ رضي الله عنه ـ والترمذي رقم (٢١٦٦) وإسناده حسن، ورواه مختصراً الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٣) من حديث أبي موسى الأشعري، وصححه، ووافقه الذهبي، ورواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٤٦) من حديث عامر بن ربيعة ـ رضي الله عنه ـ وأحمد في «المسند» (٥/ ٢٥١) من حديث أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ فهو حديث صحيح. ونص الحديث كما ورد في «سنن الترمذي» رقم (٢١٦٦) باب ما جاء في لزوم الجماعة، عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس! إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال: «أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يُسْتَحْلَف ويشهد الشاهد ولا يُستشهد ألا لا يخلوّن رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد من أراد بُحبوحة الجنة فليلزم الجماعة من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن».

ذنبه أياً كان. قال الله تعالى: ﴿ إن اللهَ لا يغفرُ أنْ يُشْرَكَ به ويغفر ما دونَ ذلك لمن يشاء ﴾[1]. ولله در القائل:

ذُنُوبيَ إنْ فَكَّرْتُ فيها كثيرةٌ ورحمةُ ربي مِنْ ذنوبيَ أوْسَعُ
هو اللهُ مولايَ الذي هُوَ خالقي وإنِّي له عبدٌ أذلُ وأخْضَعُ
وما طمعي في صالحٍ قَدْ عمِلْتُهُ وَلكنَّني في رحمةِ اللهِ أطْمَعُ

(٥٠) لا صغيرةَ إذا قابَلَكَ عَدْلُه، ولا كَبيرةَ إذا واجَهَكَ فَضْلُه.

أي لا صغيرة من ذنوبك، بل كلُّها كبائر، إذا قابلك عدله تعالى. فإن صفة العدل إذا ظهرت على من أبغضه الله، تلاشت حسناته، وعادت صغائره كبائر؛ لأنه يعذبه على أصغر ذنب. ولا كبيرة إذا واجهك فضله؛ وهو إعطاء الشيء بغير عوض، فإن صفة الفضل إذا ظهرت لمن أحبه اضمحلَّت سيئاته، وَبُدِّلَتْ حسناتٍ. وأنا أقول كما قال الإمام الشاذلي[2]: اللهم اجعل سيئاتِنا سيئاتِ مَنْ أحببتَ، ولا تجعلْ حسناتِنا حسناتِ مَنْ أبغضتَ. فالإحسانُ لا ينفع مع البغض منك، والإساءة لا تضر مع الحب منك.

(٥١) لا عَمَلَ أرْجَىٰ للقَبُولِ مِنْ عَمَلٍ يغيبُ عنكَ شُهُودُه، ويُحْتَقَرُ عندكَ وجودُه.

أي لا عمل من أعمال البر أكثرُ رجاء للقبول؛ أي لقبول الله له، وفي نسخة للقلوب؛ أي لإصلاحها، مِنْ عملٍ يغيب عنك شهودُه؛ لأنك إن غبت عن شهود عملك، فقد بقيت حينئذ بربك، وصار وجود العمل محتقراً عندك، لاتهامك لنفسك في القيام بحقه. ولذا قال بعض العارفين: كلُّ شيء من أفعالك إذا اتصلتْ به رؤيتُك، فذلك دليل على أنه لا يُقْبَلُ منك؛ لأن المقبول مرفوع

(١) سورة النساء: الآية (٤٨) وتمامها ﴿ إنَّ اللهَ لا يغْفِرُ أنْ يُشركَ به ويغفرُ ما دونَ ذلك لمن يَشاءُ ومَنْ يُشركْ بالله فقد افترىٰ إثماً عظيماً ﴾. والآية (١١٥) وتمامها ﴿ إنَّ اللهَ لا يغفرُ أنْ يُشركَ به ويغفرُ ما دونَ ذلك لمنْ يَشاءُ ومَنْ يُشركْ بالله فقدْ ضَلَّ ضلالاً بعيداً ﴾.

(٢) انظر ترجمته في التعليق على الحكمة رقم (١٥).

مغيب عنك، وما انقطعتْ عنه رؤيتُك، فذلك دليل على القبول. يشير إلى قوله تعالىٰ: ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾[1].

(٥٢) إنَّما أوْرَدَ عليكَ الـوارِدَ لتكونَ به عليه وارِداً.

أي إنما أورد الله **عليك** ـ أيها المريد ـ الوارد؛ وهو ما يرد على قلبك من المعارف الربانية واللطائف الرحمانية. لتكون به؛ أي بذلك الوارد المطهِّر لقلبك، عليه سبحانه وارداً. فإنَّ الحضرةَ مُنَزَّهةٌ عن كل قلب متكدر بالآثار، متلوث بأقذار الأغيار. ولذا قال المصنف:

(٥٣) أورَدَ عليكِ الـوارِدَ لِيَسْتَلِمَكَ من يدِ الأغْيَارِ، ويُحَرِّرَكَ من رِقِّ الآثارِ.

فالأغيار والآثار التي هي أعراض الدنيا وشهوات النفس، غاصبة لك؛ لحبك لها، وسكونك إليها. فأورد **عليك** الوارد ليسْتَلِمَكَ قَهْراً مِنْ يـد مَنْ غصبك، ويحررك مِنْ مُلْكِيَّةِ مَنْ استرقَّك، فتكون حينئذ صالحاً لعبوديتـه، ومشاهداً لعظمة ربوبيته. كما قال المصنف:

(٥٤) أوْرَدَ عَليكَ الـوارِدَ لِيُخرِجَكَ مِنْ سجنِ وجودِكَ، إلىٰ فضاءِ شُهُودِكَ.

فإن وجودك الشبيه بالسجن، هو شهودك لنفسك، ومراعاتك لحظك. وشهودك الشبيه بالفضاء في السعة، هو أن تغيب عن ذلك بمشاهدتك عظمة ربك. ولذا قال بعضهم: سجنُك نفسُك، إذا خرجت منها وقعت في راحة الأبد.

(٥٥) الأنوارُ مطايا القلوبِ والأسْرارِ.

أي أن الأنوار الإلَٰهية، التي ترد على قلب المريد، وتحصل غالباً من الأذكار والرياضات، هي مطايا القلوب، والأسرارُ جمع سر وهو باطن القلب؛ أي

---

(١)سورة فاطر: الآية (١٠) وتمامها ﴿ مَنْ كانَ يريدُ العزَّةَ فلله العزَّةُ جميعاً إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعملُ الصالحُ يرفَعُه والذين يَمْكُرونَ السيئاتِ لهم عذابٌ شديدٌ ومكرُ أولئك هو يَبُورُ ﴾.

توصلها إلى مطلوبها الذي هي متوجِّهَةٌ إليه؛ وهو دخولها حضرة القرب من الله تعالى، كما أن المطية توصِلُ راكبَها إلى مطلوبه.

(٥٦) النُّور جُنْدُ القلبِ، كما أنَّ الظُّلمةَ جُنْدُ النَّفْسِ. فإذا أرادَ اللهُ أنْ ينصرَ عبدَهُ أمدَّهُ بجنودِ الأنْوارِ، وقَطَعَ عنه مَدَدَ الظُّلَمِ والأغيارِ.

يعني أن النور للقلب في كونه يَتَوَصَّلُ به إلى مقصده، وهو حضرة الرب، بمنزلة الجند للأمير في كونه يتوصل به إلى مقصوده من قهر أعدائه، كما أن الظلمةَ التي هي من وساوس الشيطان جندُ النفس الأمَّارَةِ بالسوء ـ دون المطمئنة، فإنها توافق العقل أبداً ـ. ومقصد النفس الأمارة، الشهوات، والأغراض العاجلة. فلا يزال الحرب بينها وبين العقل. فإذا أراد الله أن ينصر عبده؛ أي يعينه على قمع شهواته، أمده؛ أي أمد قَلْبَهُ الذي فيه العقل بجنود الأنوار؛ أي بالأنوار الشبيهة بالجنود، أو بجنود هي الأنوار، وقطع عنه مدد الظُّلَم ـ بفتح اللام جمع ظلمة ـ أي مدداً هو الظُّلَمُ. وعطف الأغيار عليه من عطف المرادف؛ يعني وإذا أراد خُذْلانَهُ، فعلى العكس من ذلك. فعلى العبد أن يفزع إلى ربه عند التقاء الصفين، ويسأله الإعانة على النفس الأمارة بالسوء، متوسلاً بسيد الكونين. قال ابن عباد: وهذه العبارات الخمس من قوله إنما أورد عليك الوارد إلى هنا، تَفَنَّنَ بها صاحبُ الكتاب، وكررها بألفاظ مختلفة، والمعاني فيها متقاربة. وهذه عادته في مواضع كثيرة من هذا الكتاب.

(٥٧) النورُ له الكَشْفُ، والبَصيرةُ لها الحُكْمُ، والقلبُ له الإقْبالُ والإدْبار.

يعني أن النور الذي يقذفه الله في قلب المريد؛ وهو العلم اللدني، له الكشف؛ أي كشف المعاني، كحسن الطاعة، وقبح المعصية. والبصيرة؛ التي هي عين القلب، لها الحكم؛ أي إدراك الأمر الذي شاهدته، وكُشِفَ لها عنه بالنور. فإنه كما لا يمكن إدراك البصر للمحسوسات، إلا بالأنوار الظاهرة كالشمس والسراج، لا يمكن إدراك البصيرة لشيء من المعاني، إلا بالأنوار الباطنية. والقلب له الإقبال على ما كُشِفَ للبصيرة، وحكمتْ بحسنه كالطاعة،

والإدبار عما كُشِفَ لها وحكمتْ بقبحه كالمعصية، وحينئذ تتبعه الجوارح لما في الحديث: «ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صَلَحتْ صَلَح الجسدُ كلُّه وإذا فَسَدَتْ فسد الجسدُ كلُّه ألا وهي القلب»[1] كما تقدم.

(٥٨) لا تُفْرِحْكَ الطّاعةُ لأنَّها بَرَزَتْ منكَ، وافْرَحْ بها لأنَّها برزَتْ مِنَ اللهِ إليكَ. ﴿قُلْ بفَضْلِ اللهِ وبرَحْمَتِهِ فبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هو خيرٌ مما يَجْمَعُونَ﴾[2].

أي لا يكون فرحك بالطاعة لأجل كونها بَرَزَتْ منكَ، فإنك إذا فرحت بها من هذه الحيثية، أورثتك العُجْبَ المحبط لها؛ لأنك شاهدت أنها بحولك وقوتك. وإنما يكون فرحك بها، لأجل كونها بَرَزَتْ من الله إليك، وتَفَضَّلَ بها عليك. قال تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾[3]. ولذا استدل بآية: ﴿قل بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هو خيرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2].

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم - رحمهما الله تعالى - في صحيحيهما. وقد ذكرت الحديث كاملاً في تعليق شرح الحكمة التاسعة فانظره هناك.

(٢) سورة يونس: الآية (٥٨).

(٣) سورة الصافات: الآية (٩٦). وهي في سياق قصة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع أبيه وقومه لمَّا أنكر عليهم عبادة الأصنام، وتولوا عنه مدبرين. وقد بين الله سبحانه موقفه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿فَرَاغَ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون * مالكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضَرْباً باليمين * فأقبلوا إليه يَزِفُّون * قال أتعبدون ما تَنْحِتُونَ * واللهُ خلقَكُمْ وما تَعْمَلُونَ﴾.
أقول: رغم أن الآية في سياق هذه القصة إلا أن المفسرين بَيَّنُوا فيها مذهب أهل السنة والجماعة في خلق الله أفعال العبد.

فقال النسفي في تفسير قوله تعالى ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾: وخلق ما تعملونه من الأصنام. أو ما مصدرية؛ أي وخلق أعمالكم، وهو دليلنا في خلق الأفعال؛ أي الله خالقكم وخالق أعمالكم، فلم تعبدون غيره؟، تفسير النسفي.

وقال الخطيب الشربيني في تفسير الآية: دلت هذه الآية على مذهب الأشعرية؛ وهو أن فعل العبد مخلوق لله عزّ وجلّ، وهو الحق. وذلك لأن النحويين اتفقوا على أن لفظ (ما) مع ما بعده في تقدير المصدر، فقوله تعالى: ﴿وما تعملون﴾ معناه وعملكم. وعلى هذا فيصير معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم. السراج المنير.

(٥٩) قَطَعَ السائرينَ لَهُ والواصلينَ إليهِ، عَنْ رُؤْيَةِ أعمالِهم، وشهودِ أحوالِهم.

أما السَّائرون؛ فلأنهم لم يتحقَّقُوا الصِّدْقَ مع اللهِ فيها. وأما الواصلون؛ فلأَنَّهُ غَيَّبَهم بشُهودِهِ عنها.

يعني أن الله تعالى حجب السائرين له عن رؤية أعمالهم، ومنع الواصلين إليه عن شهود أحوالهم. فهو لَفٌّ ونَشْرٌ مرتب. وخَصَّ الواصلين بالأحوال، وإن كانت لهم أعمال، لأن تلك الأحوال التي هي الأعمال الباطنة الصالحة، أفضل من الأعمال الظاهرة، فعبر في جانبهم بالأفضل. كما أنه عبر في جانب السائرين بالأعمال، وإن كانت لهم أحوال أيضاً، لمناسبة ذلك لهم. فالسائر إلى الله لا يرى شيئاً من أعماله، اتهاماً لنفسه بعدم كمالِهِ. والواصل غائب في شهوده حتى عن نفسه، فإنه محال أن يراه ويشهدَ معه سواه. فقد أسبغ الله نعمته على الفريقين، وأعطىٰ الفريق الثاني أفضل المنزلتين.

(٦٠) ما بَسَقَتْ أغْصَانُ ذُلٍّ إلاَّ على بِذْرِ طَمَعٍ.

يُقال: بسقت النخلة بسوقاً إذا طالتْ. قال تعالى: ﴿والنخل باسقات﴾[١] والأغصان جمع غصن؛ وهو ما تَشَعَّبَ عن سوق الشجر. وقد شبه هنا الذُّلَّ بشجرة على طريق الاستعارة المكنية، وأثبت لها الأغصان تخييلاً، وبسقت ترشيح[٢]. وإضافة بذر إلى طمع من إضافة المشبه به للمشبه؛ أي طمع شبيه بالبذر؛ أي المبذور الذي تنشأ عنه الشجرة. والمراد لا تغرسْ بذرَ الطمع في قلبك، فتخرجَ منه شجرة الذل، وتتشعب أغصانها. فإن الطمع أصل جميع الآفات؛ لأنه موجِب للوقوع في عظيم الهلكات[٣]، فلا يزال صاحبه يتملق إلى

---

(١) سورة (ق): الآية (١٠) وتمامها ﴿والنخْلَ باسِقَاتٍ لها طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾.

(٢) وإجراء الاستعارة أن نقول: شبه الذُّلَ بشجرة وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الغصن فالاستعارة مكنية، وكَوْنُ المستعَارِ له غيرَ محقَّقٍ ـ وهو إثبات الأغصان ـ فهي تخييلية، ولمَّا ذَكَرَ ملائمَ المشبه به ـ وهو بسقت ـ فهي ترشيحية. فالاستعارة إذاً مكنية ـ تخييلية ـ مرشحة.

(٣) الهَلَكَات: جمع هَلَكَة. قال في المصباح المنير: والهلكة مثال قصبة بمعنى الهلاك اهـ.

الناس حتى يحصل له من نور يقينه الإفلاس، مع أن المؤمن ينبغي أن يحرص على عزة إيمانه المتين، ويردد قوله سبحانه ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[1]، ولا يكون ذلك إلا باعتماده على مولاه، وقطع طماعيَّتِهِ فيما سواه. فإنَّ مَنْ طمع في شيء ذل له وانقاد لحكمه، حتى يقال: قاده وذَلَّلَهُ. وما ألطف قول بعضهم:

أَتَطْمَعُ في ليلىٰ وتَعْلَمُ أنَّمَا تُقَطِّعُ أعناقَ الرِّجالِ المَطَامِعُ

(٦١) ما قَادَكَ شيءٌ مثلُ الوَهْمِ.

يعني أن انقياد النفس إلى الأمور الوهمية الباطلة، أشد من انقيادها إلى الحقائق الثابتة. فتوهم النفع من المخلوقين هو السبب في الطمع في الناس، وهو في الحقيقة مبني على غير أساس؛ لأن الطمع تصديق الظن الكاذب، والطمع فيهم طمع في غير مَطْمَع[2]؛ ولذلك كانت أرباب الحقائق بمعزل عنه، فلا تتعلق همتهم إلا بالله، ولا يتوكلون إلا على الله، قد تَرَقَّتْ عن ملاحظة الأغيار قلوبُهم، فلم يحلَّ فيها الطمع، واتصفوا بصفات الكمال التي من أجَلِّها الزهادة والورع، فأحياهم الله حياة طيبة بالقناعة، ولم يكشف أحد منهم لمخلوق قِناعه، تخلصاً من رق الأغيار، وتطلباً لأن يكون من الأحرار. كما قال المصنف:

(٦٢) أنْتَ حُرٌّ مما أنت عنه آيِسٌ، وعَبْدٌ لما أنتَ لهُ طامعٌ.

أي أنت حر من كل شيء أنت عنه؛ أي منه آيس، لأن اليأس من الشيء دليل على فراغ القلب منه، وذلك عين الحرية منه. كما أن الطمع في الشيء دليل على الحب له وفَرْطِ الاحتياج إليه، وذلك عين العبودية له. وقوله لما أنت له؛ أي فيه طامع. فالطامع عبد، واليائس حر. كما قيل:

العَبْدُ حُرٌّ إنْ قَنِعْ والحُرُّ عَبْدٌ إنْ قَنَعْ

(١) سورة المنافقين: الاية (٨) وتمامها ﴿يقولون لئن رجعْنَا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ ولله العزةُ ولرسولِهِ وللمؤمنين ولكنَّ المنافِقينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

(٢) المَطْمَعُ: ما يُطْمَعُ فيه. مختار القاموس.

فاقْنَعْ ولا تَطْمَعْ فَمَا شَيءٌ يشِينُ سِوى الطَّمَعْ

وقوله: (إن قنع) في آخر المصراع الأول بكسر النون بمعنى رضي، والثاني بفتحها بمعنى سأل، وقوله: (فاقنَعْ) بفتح النون أمر من القناعة. وما ألطف قول بعضهم:

اضْرَعْ إلىٰ اللهِ لا تَضْرَعْ إلىٰ النَّاسِ واقْنَعْ بعِزٍّ فَإنَّ العِزَّ في الْيَاسِ
واسْتَغْنِ عَنْ كُلِّ ذِي قُرْبىٰ وذِي رَحِمٍ إنَّ الْغَنِيَّ مَنِ اسْتَغْنىٰ عَنِ النَّاسِ

(٦٣) مَنْ لم يُقْبِلْ على الله بملاطفات الإحسان، قِيدَ إليهِ بسلاسل الامْتِحان.

أي مَنْ لم يقبل على الله تعالى بسبب ملاطفات هي الإحسان، قِيدَ بالبناء للمفعول؛ أي قاده الله إليه بالامتحانات الشبيهة بالسلاسل. فالنفوس الكريمة تقبل على الله لإحسانه، والنفوس اللئيمة لا ترجع إليه إلا ببلائه وامتحانه. ومراد الرب من العبد رجوعه إليه طوعاً أو كرهاً.

(٦٤) مَنْ لم يَشْكُرِ النِّعَمَ فقد تعرَّضَ لزوالها، ومَنْ شَكَرَها فقد قَيَّدَها بعِقَالها.

فيه تشبيه النِّعم بالإبل التي شأنها النِّفَار إن لم تقيد بالعِقال على سبيل المكنية، وإثبات العقال تخييل، والتقييد ترشيح[1]. ومن كلامهم: الشكر قيد للموجود، وصيد للمفقود. وناهيك قوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[2] وهو لغة: فِعْلٌ ينبىء عن تعظيم المُنْعِم بسبب كونه مُنْعِماً على الشاكر أو غيره، سواء كان ذِكْراً باللسان، أو عملاً بالأركان، أو اعتقاداً بالجَنان. كما قال الشاعر:

ومـا كان شُكْـري وافِيـاً بِنَـوالِكُمْ ولكنَّني حاولْتُ في الجَهْدِ مَذْهَبا

---

(١) وتوضيح الاستعارة أن تقول: شبه النِعم بالإبل وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو العقال فالاستعارة مكنية، ولما كان إثبات العقال للمستعار له ـ أي للمشبه ـ غير محقق كانت الاستعارة تخييلية، ولما ذكر ملائم المشبه به ـ وهو التقييد ـ كانت الاستعارة ترشيحية.

(٢) سورة إبراهيم: الآية (٧) وتمامها ﴿وإذْ تَأَذَّنَ ربُّكُم لئِنْ شكرْتُم لأزيدنَّكُمْ ولئن كفرْتُم إنَّ عذابي لشديدٌ﴾. ومعنى (تأذن): أي آذن... كأنه قيل: إذ آذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك والشبه. تفسير النسفي.

أفَـادَتْكُمُ النَّعْمـاءُ مني ثَـلاثَـةً   يـدي ولساني والضميـرَ المُحَجَّبَا

وفي الاصطلاح: صَرْفُ العبدِ جميعَ ما أنعمَ اللهُ به عليه فيما خُلِقَ لأجله. وقد قيل للجنيد[1] ـ وهو ابن سبع سنين ـ يا غلام ما الشكر؟ فقال: أنْ لا يُعصى اللهُ بِنِعَمِه.

(٦٥) خَفْ مِنْ وُجُودِ إحسانِهِ إليكَ، ودوامِ إساءَتِكَ معَهُ، أنْ يكونَ ذلك استدراجاً لكَ، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُون﴾[2].

أي خف ـ أيها المؤمن ـ مِنْ وجود إحسانه سبحانه عليك، مع دوام إساءتك معه بترك أوامره، أنْ يكون ذلك استدراجاً؛ أي تدريجاً لك شيئاً فشيئاً،

---

(١) هو: الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم: صوفي من العلماء بالدين. مولده ومنشأه ووفاته ببغداد. أصل أبيه من نهاوند، وكان يعرف بالقواريري نسبة لعمل القوارير. وعرف الجنيد بالخزاز لأنه كان يعمل الخز. قال أحد معاصريه: ما رأت عيناي مثله؛ الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه. وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد. وقال ابن الأثير في وصفه: إمام الدنيا في زمانه. وعده العلماء شيخ مذهب التصوف؛ لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة، ولكونه مصوناً من العقائد الذميمة، مَحْمِيَّ الأساس من شبه الغُلاة، سالماً من كل ما يوجب اعتراض الشرع. من كلامه: طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدىٰ به. (٢٩٧ هـ، ٩١٠ م). ا هـ «الأعلام» للزركلي (٢/١٣٧ ـ ١٣٨).

وقال عنه السلمي في طبقاته: من أئمة الصوفية. وكان فقيهاً، تفقه على أبي ثور، وكان يفتي في حلقته. وصحب السري السقطي، والحارث المحاسبي، ومحمد بن علي القصاب البغدادي وغيرهم. وهو من أئمة القوم وسادتهم، مقبول على جميع الألسنة. ا هـ «طبقات الصوفية» ص (١٥٥ ـ ١٥٦).

وقال عنه القشيري في رسالته: وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور، وكان يفتي في حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة، صحب خاله السري وغيره. ا هـ «الرسالة القشيرية» ص (١٨).

وانظر طائفة من أخباره في «صفة الصفوة» (٢/٤١٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٨٢) وتمامها مع التي بعدها ﴿والذين كذَّبوا بآياتنا سنستدرجُهُم من حيثُ لا يعلمون * وأُملي لهم إنَّ كيْدي متينٌ﴾.

حتى يأخذك بغتة. فإن الخوف من الاستدراج بالنعم من صفات المؤمنين، كما أن عدم الخوف منه مع الدوام على الإساءة من صفات الكافرين. قال تعالى: ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾[1] أي لا يشعرون بذلك؛ وهو أن يُلْقيَ في أوهامهم أنهم على شيء، وليسوا كذلك، يستدرجهم بذلك حتى يأخذهم بغتة. كما قال تعالى: ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾[2] إشارة إلى مخالفتهم وعصيانهم ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾[2]؛ أي فتحنا عليهم أبواب الرفاهية ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾[2] من الحظوظ الدنيوية، ولم يشكروا عليها ﴿ أخذناهم بغتة﴾[2] أي فجأة ﴿ فإذا هم مبلسون ﴾[2] أي آيسون قانطون من الرحمة. وقيل في قوله تعالى: ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها. فإذا ركنوا إلى النعمة، وحجبوا عن المنعم أُخذوا. ومن أنواع الاستدراج ما ذكره المصنف بقوله:

(٦٦) مِنْ جَهْلِ المريدِ أنْ يُسيءَ الأدَبَ فَتُؤَخَّرَ العقوبةُ عنه فيقولَ: لو كان هذا سوءَ أدبٍ لقَطَعَ الإمدادَ، وأوْجبَ الإبْعَادَ. فقد يَقْطَعُ المددَ عَنْهُ مِنْ حيثُ لا يَشْعُرُ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ إلا مَنْعَ المزيدِ. وقد يُقامُ مُقَامَ البُعْدِ وهو لا يَدْري، ولَوْ لَمْ يكنْ إلا أنْ يُخَلِّيَكَ وما تُريدُ.

يعني أنَّ مِنْ جهلِ المريد بحقائق الأشياء أن يسيء الأدب؛ إما مع الله بنحو الاعتراض عليه في أفعاله كأن يقول: ليت هذا الأمر لم يكن. وإما مع المشايخ بنحو الاعتراض عليهم، وعدم قبول إشاراتهم فيما يشيرون به عليه. وإما مع بعض الناس بنحو الازدراء بهم. فتؤخر العقوبة عنه؛ أي عن ذلك المريد، بأن لا يعاقب في ظاهره بالأسقام والبلايا، ولا في باطنه بحسب زعمه،

---

(١) انظر الحاشية رقم (٢) في الصفحة السابقة.

(٢) سورة الأنعام: الآية (٤٤) وتمامها ﴿ فلما نَسُوا ما ذكِّروا به فتَحْنا عليهم أبوابَ كُلِّ شيءٍ حتى إذا فَرِحُوا بما أُوتُوا أَخْذَناهم بغتَةً فإذا هم مُبْلِسون ﴾. ومعنى قوله ﴿ مبلسون ﴾: آيسون متحسرون، وأصله الإطراق حزناً لما أصابه أو ندماً على ما فاته. تفسير النسفي.

فيقول: لو كان الذي وقع منه سوء أدب لقطع الإمداد؛ بكسر الهمزة ـ مصدر أمدَّه، أو بفتحها جمع مدد ـ؛ أي ما يرد من بحر إفضال الواحد الصمد. وأوجب الإبعاد؛ أي بعدي عنه. وإنما كان ذلك جهلاً من المريد؛ لأنه قد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر، ولو لم يكن من قطع المدد عنه إلا مَنْعُ المزيدِ؛ أي الزيادة من المدد، لكان كافياً في قطعه. فجواب لو محذوف. وقد يقام ـ أي ذلك المريد ـ مقام؛ أي في مقام البعد، وهو لا يدري، ولو لم يكن من إقامته في مقام البعد إلا أن يخليك ـ أيها العبد المسيء ـ وما تريد، بأن يسلط نفسك عليك، ويمنع نصرتك عليها، لكان ذلك كافياً في البعد. وفي هذا التفاتٌ من الغيبة إلى الحضور، فإنه التفت إلى مخاطبة المريد كأنه حاضر بين يديه. ولعمْري إنه يستحق هذا التصنيف. فإن قوله: (لو كان هذا سوء أدب) يشعر برضاه عن نفسه الذي يوجب الملام عليه، فإن الرضا عن النفس لا ينشأ عنه إلا كل ضير، كما أن اتهامها وعدم الرضا عنها أصل كل خير. ومن إساءة الأدب مع بعض الناس ما ذكره المصنف بقوله:

(٦٧) إذا رأيْتَ عبداً أقامهُ الله تعالى بوجود الأوراد، وأدامهُ عليها مع طول الإمداد، فلا تَسْتَحْقِرَنَّ ما مَنَحَهُ مَوْلاكَ؛ لأنَّك لم ترَ عليه سِيما العارفين، ولا بَهْجَةَ المحبينَ. فلولا واردٌ ما كانَ وِرْدٌ.

اعلم أنَّ عباد الله المخصوصين على قسمين: منهم من أقامه الحق بوجود الأوراد؛ بأنْ أظْهرها منه، والمراد بها ما يقع بكسب العبد من أنواع العبادات الموظفة على الأوقات، كصلاة وصيام وذكر ونحو ذلك. وهؤلاء هم العبَّاد والزهاد الذين عملوا لرَفْع الدرجات في عليِّ الجنَّات، فعملوا لحظوظهم، ولم يمحضوا النظر إلى وجه ربهم. ومنهم من أُخِذُوا عن حظوظهم، ولم يطلبوا إلا وجه ربهم، وهم العارفون والمحبون. فإذا رأيت عبداً من الفريق الأول أقامه الله بوجود الأوراد وأدامه عليها؛ أي جعله مداوماً عليها مع طول الإمداد؛ أي إدامة المعونة والتيسير، فلا تستحقرن ما منحه؛ أي أعطاه مولاه. وعلَّل الاستحقار بقوله: لأنك؛ أي لكونك، لم تر عليه سيما العارفين؛ أي علامتهم

من ترك الحظوظ والإرادات، ولا بهجة المحبين من الشغف بمرضاة محبوبهم من غير نظر إلى عليٍّ الجنات. ثم علَّلَ عدم الاستحقار بقوله: فلولا وارد أي تجلٍّ إلـهي أورده الله على قلبه، ما كان ورد؛ أي عبادة، فهو لم يخرج عن دائرة العناية، ولم يبعد عن الملاحظة والرعاية. فلا تستقل ما منحه مولاه، فإن كل فريق قام بحق المقام الذي أقامه الحق فيه وتولاه. كما قال المصنف:

(٦٨) قَوْمٌ أقَامَهُمْ الحقُّ لخدمتِهِ، وقومٌ اختَصَّهم بمحبَّتِهِ، ﴿كُلًّا نُمِدُّ هؤلاءِ وهؤلاءِ مِنَ عَطاءِ ربِّكَ وما كانَ عطاءُ ربِّكَ مَحْظُوراً﴾[1].

أي قوم اختارهم الحق تعالى لخدمته حتى صلحوا لجنته، وهم العابدون. وقوم اختصهم بمحبته حتى صلحوا لدخول حضرته، وهم العارفون والمحبون. والكل منتسبون إلى خدمته، لكنَّ خدمةَ الأوَّلين أكثرُها بالجوارح، والآخرين أكثرها بالقلوب، على حسب ما يليق بكل من القسمة الأزلية التي منحها لهم علام الغيوب. كما قال تعالى: ﴿كلاً نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء مِنْ عطاءِ ربِّك وما كانَ عطاءُ ربك محظوراً﴾[1] أي ممنوعاً. فإذا شهد العبد انفراد الله تعالى بهذه الإقامة، رجع عن الاحتقار، فإن ذلك من الجهل بحكمة العزيز الغفار.

(٦٩) قَلَّما تكونُ الوَارداتُ الإلَهيَّةُ إلا بَغْتَةً، لئلا[2] يَدَّعِيَها العُبَّادُ بوجود الاسْتعْدادِ.

أي أن الواردات الإلَهية التي هي الأسرار العرفانية، يقل حصولها غير بغتة؛ أي فجأة من غير استعداد لها بعبادة، لئلا يدعيها العُبَّاد ـ بضم العين المهملة وشد الموحدة، جمع عابد ـ بوجود الاستعداد لها. فإنَّ تُحَفَ الله تعالى وهداياه مقدسة عن أن تعلل بالأعمال؛ لأنها من مواهب الغني المفضال، فحصولها بغير استعداد كثير، وأما حصولها بالاستعداد فَنْزرٌ يسير.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٢٠).

(٢) وفي نسخة (صيانة لها أنْ يدّعِيَها العِباد، بوجود الاستعداد).

(٧٠) مَنْ رأَيْتَهُ مجيباً عن كُلّ ما سُئِلَ، ومعبِّراً عن كلِّ ما شَهِدَ، وذاكراً كَلَّ ما عَلِمَ، فاستدل بذلك علىٰ وجودِ جهْلهِ.

يعني: أنك إذا رأيت إنساناً مجيباً عن كل ما سئل فيه من المسائل، ومعبراً عن كل ما شهده؛ أي ذاقه بباطنه من العلوم والمعارف، وذاكراً كل ما علم، فاستدل بذلك على وجود جهله. أما الإجابة عن كل سؤال فلاقتضائها منه الإحاطةَ بجميع المعلومات[١]، وذلك محال في حقه. قال تعالى: ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾[٢]. وما ألطف قول[٣] بعضهم:

ومَنْ كـان يهوى أن يُـرىٰ متصـدِّراً ويكـره لا أدري أصيبَتْ مـقـاتِلُهْ

وأما التعبير عن كل مشهود، فلأنَّ فيه نوعاً من إفشاء السر الذي أمروا بكتمه، فإنهم قالوا: قلوب الأحرار قبور الأسرار، ولأنَّ مدارك الشهود يضيق عنها نطاق التعبير بالعبارة، ولذلك اكتفى العارفون فيما بينهم بالإشارة. كما قال بعضهم: علمنا إشارة فإذا صار عبارة خفي. وأما الذكر لكل معلوم فلعدم تفرقته بين المعلومات، وقد يكون له علم يختص به فإذا ذكره لغيره استغربه[٤] كما قال بعض العارفين:

إنـي لأكْتُـمُ من عـلمي جـواهـرَهُ كي لا يَرَىٰ الحقَّ ذو جهلٍ فَيَفْتَتِنا

(٧١) إنما جَعل الدار الآخرة محلاً لجَزَاءِ عبادِه المؤمنين، لأن هذه الدار لا تسعْ ما يريدُ أنْ يُعْطِيَهُمْ، ولأنَّه أجَلَّ أقدارَهُمْ عَنْ أنْ يُجازيهُمْ في دار لا بقاء لها.

أي إنما جعل الله تعالى الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين دون

---

(١) وفي نسخة العلومات. أقول: لَعَلَّها جَمْعُ علوم.

(٢) سورة الإسراء: الآية (٨٥) وتمامها ﴿ ويَسْألُونك عن الرِّوحِ قل الروحُ من أمْر ربي وما أُوتِيتُم مِن العلم إلا قليلاً ﴾.

(٣) وفي نسخة: وما ألطف ما قيل.

(٤) أقول وقد يفتن غيره بذكر ما لا يدركه عقله. وقد ذكر مسلم في أوائل صحيحه أن عبدالله بن مسعود قال: ما أنت مُحَدِّثٌ قوماً حديثاً لا تَبْلُغُهُ عقولهم إلا كانَ لبعضهم فِتْنَةً.

الدنيا لوجهين: الأول أنْ هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم من صنوف النعم، لما في عدة أخبار من أن الله تعالى يعطي لبعض أهل الجنة أضعاف أمثال الدنيا[1]. والثاني أنه أجَلّ؛ أي أعْظم أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها، فإن كل ما يفنى وإن طالت مدته كلا شيء، بل أعطاهم في الجنة النعيم المقيم، ومتعهم بالنظر إلى وجهه الكريم. أسأل الله بجاه نبيه العظيم أن يجعلنا منهم إنه رؤوف رحيم.

(٧٢) من وجد ثمرة عمله عاجلاً، فهو دليل على وجود القبول آجلاً.

يعني: أَنّ **من وجد ثمرة** عمله الصالح **عاجلاً**، من استئناس مكاشفات، وحلاوة مناجاة، كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[2]، **فهو دليل على وجود القبول آجلاً**. قال بعض المحققين في قوله

---

(١) من ذلك ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. وإليك الرواية كما جاءت في صحيح البخاري عن عبدالله رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً، رجل يخرج من النار حبْواً، فيقول الله: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيخيّل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر مني، أو تضحك مني وأنت الملك. فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذُهُ، وكان يقال: ذلك أدْنى أهلِ الجَنَّة منزلة» انظر صحيح البخاري كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار. وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب آخر أهل النار خروجاً.

(٢) الحديث: جزء من حديث أوله: «حبب إليّ من الدنيا؛ النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة». رواه أحمد في «المسند» (٣/١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، والنسائي (٧/٦١)، والحاكم (٢/١٦٠) وصححه ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. وبعض الناس يزيد في الحديث كلمة ثلاث. وكلمة «ثلاث» لا أصل لها في شيء من طرق الحديث، ومفسدة للمعنى؛ لأن النساء والطيب من الدنيا، وقرة العين في الصلاة ليست من الدنيا. وقال الحافظ في الفتح (١١/٢٩٦): ومن كانت قرة عينه في شيء فإنه يود أن لا يفارقه، ولا يخرج منه، لأن فيه نعيمه، وبه تطيب حياته، وإنما يحصل ذلك للعابد بالمصابرة على النصب.

تعالى: ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾[1] جنة معجلة وهي حلاوة الطاعات، ولذاذة المناجاة، والاستئناس بفنون المكاشفات. وجنة مؤجّلة وهي فنون المثوبات، وعلو الدرجات اهـ.

ولا ينبغي للعامل إذا وجد الحلاوة أن يفرح بها أو يقف معها، لأنه في الظاهر يكون قائماً لله، وفي الباطن إنما قام لحظ نفسه، بل لا ينبغي أن يكون عمله لنيلها، لما فيها من اللذة والحظ، وذلك يقدح في إخلاص عبادته، وصدق إرادته. وليكن اعتناؤه بحصولها، لتكون ميزاناً لأعماله، ومحكاً لأحواله.

(٧٣) إذَا أردْتَ أنْ تعرِفَ قدرَكَ عندَهُ فانْظُرْ فيما[2] ذا يُقيمُكَ.

هذه الحكمة تشير إلى قوله ﷺ: «من أراد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه»[3]. ومما يدور على ألسنة العوام: إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر في أي شيء أقامك. وفي الحديث: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[4] فإذا رضيك الله أيها المريد لحسن طاعته فاعرف قدرها واشكره على عظيم نعمته.

---

(١) سورة الرحمن: الآية (٤٦).

(٢) هكذا أثبتت في جميع النسخ، ولعل الصواب أن تكتب (في ماذا).

(٣) الحديث: رواه الحاكم في «المستدرك» (١/٤٩٤) بلفظ «من أحب...» وإسناده ضعيف. ولكن له شاهد من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ عند الدارقطني في الأفراد، وشاهد آخر من حديث أبي هريرة وسمرة ـ رضي الله عنهما ـ عند أبي نعيم في «الحلية» وفي سنده ضعف أيضاً. ولكن الحديث حسن بشواهده.

(٤) الحديث: رواه هكذا مختصراً الطبراني في «الكبير» من حديث عبدالله بن عباس، وعمران بن حصين رضي الله عنهم وهو حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل رواه البخاري (٨/٥٤٤) في «التفسير» باب تفسير سورة ﴿والليل إذا يغشىٰ﴾ ومسلم رقم (٢٦٤٧) (٧) في القدر، والترمذي رقم (٢١٣٧) في القدر، باب ما جاء في الشقاوة والسعادة، وابن ماجه رقم (٧٨) في المقدمة، كلهم من حديث علي رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في جنازة، فأخذ شيئاً فجعل ينكت به الأرض، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة» قالوا: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق لـه. أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان =

(٧٤) متى رزقك الطاعة والغنى به عنها، فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمة ظاهرة وباطنة.

أي متى رزقك الله الطاعة التي هـي امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات في ظاهرك، والغنى به عنها؛ بأن لا تركن إليها بباطنك، فاعلم أنه قد أسبغ؛ أي أتم عليك نعمه: ظاهرة وهي تلك الطاعات، وباطنة وهي معرفتك التي باعدتك عنها، وأوجبت لك رفيع الدرجات. فإن المطلوب من العبد شيئان: إقامة الأمر في الظاهر، والتعلق بالله لا غيره في الباطن. فمن رزقه الله هذين الأمرين فقد أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وأوصله إلى غاية أمله في الدارين. وقد كان أبو بكر الوراق[1] يقول: إني لأصلي الركعتين، وأنصرف عنهما كأني أنصرف عن السرقة استحياء منه.

(٧٥) خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك.

أي خير شيء تطلبه من الله تعالى ما هو طالبه منك من الاستقامة على سبيل العبودية له. فإن هذا خير لك من طلبك لحظوظك ومراداتك دنيوية كانت أو أخروية. ومن دعاء أبي القاسم الجنيد[2]: اللهم اجعل غاية قصدي إليك ما هو لك، ولا تجعل قصدي إليك ما أطلبه منك.

= من أهل الشقاء، فييسر لعمل أهل الشقاء، ثم قرأ: ﴿ فأما من أعطى واتقى وصَدَّقَ بالحسنى فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى، وأما من بَخِلَ واستغنى وكَذَّبَ بالحسنى فَسَنُيَسِّرُهُ للعُسرى ﴾. ورواه البخاري ومسلم أيضاً من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، ورواه مسلم وابن حبان (١٨٠٩) في «الموارد» من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

(١) هو: محمد بن عمر الحكيم. أصله من ترمذ، وأقام ببلخ. لقي أحمد بن خضرويه وصَحِبَهُ، وصحب محمد بن سعد بن إبراهيم الزاهد، ومحمد بن عمر بن خشنام البلخي. له الكتب المشهورة في أنواع الرياضيات والمعاملات والآداب. وأسند الحديث. اهـ «طبقات الصوفية» ص (٢٢١).

وانظر بعض أخباره في «الرسالة القشيرية» ص (٢٢)، وفي «صفة الصفوة» (١٦٥/٤) طبعة دار المعرفة.

(٢) انظر ترجمته في التعليق على الحكمة رقم (٦٤).

(٧٦) الحزن على فقدان الطاعَة مع عدم النهوض إليها من علامات الاغْتِرارِ.

يعني: أن الحزن الكاذب على فقدان الطاعة ـ بكسر الفاء وضمهما ـ؛ أي عدم وجودها في الحال مع عدم النهوض إليها في المستقبل، من علامات الاغترار؛ وهو التعلق بما لا حقيقة له، فليس بمقام السالكين الأبرار. وإنما مقامهم الحزن الصادق مع النهوض إليها والبكاء عليها، فإنَّ صاحب هذا الحزن يقطع من طريق الله تعالى في شهر ما لا يقطعه غيره في سنين. وفي الحديث: «إن الله يحب كل قلب حزين»[١] وقد كان ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكر.

(٧٧) ما العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إلـيه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له؛ لفنائه في وجودِهِ، وانطوائِهِ في شهوده.

يعني: ليس العارف الكامل في المعرفة من إذا أشار إلى شيء من أسرار التوحيد وجد الحق تعالى وشهده قبل تلك الإشارة، لأنه حينئذ يكون باقياً مع نفسه، وملاحظاً أن هناك إشارة ومشيراً، فهو مع الأغيار، بل العارف الكامل من لا إشارة له أصلاً مشهودةً، لفنائه عنها في وجوده تعالى، فلا يشهد إلا إياه. وقوله: (وانـطوائه فـي شهوده) عطف تفسير. والإشارة عند الصوفية هي: إفادة أسرار التوحيد بالكناية والتلويح. قال الشبلي[٢]: وكل إشارة أشار بها الخلق إلى الحق فهي مردودة عليهم، حتى يشيروا إلى الحقّ بالحـق وليس لهم إلى ذلك

---

(١) الحديث: رواه ابن أبي الدنيا في (الهم والحزن) وابن عدي، والقضاعي، وابن عساكر من طريق أبي بكر بن أبي مريم الغساني عن حمزة بن حبيب عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، ورواه الحاكم (٣١/٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩٠/٦) وإسناده ضعيف. وذكره الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٠٩/١٠) وقال: رواه البزار والطبراني وإسنادهما حسن. أقول: ولكنه غير حسن، لأن مداره عندهم جميعاً على أبي بكر بن أبي مريم الغساني الشامي، وهو ضعيف.

(٢) هو: دُلَف بن جحدر الشبلي: ناسك، كان في مبدأ أمره والياً في دنباوند (من نواحي رستاق الري) وولي الحجابة للموفق العباسي، وكان أبوه حاجب الحجاب. ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، فاشتهر بالصلاح. له شعر جيد، سلك به مسالك المتصوفة. أصله من خراسان، ونسبته إلى قرية «شبلة» من قرى ما وراء النهر، ومولده بسر من رأى، ووفاته=

طريق ا هـ. ولذا قال الشيخ يوسف العجمي: من تكلم في مقام الجمع فليس بمتكلم، وإنما المتكلم الحق سبحانه وتعالى على لسان عبده، وهو قوله في الخبر القدسي: «فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق»[1]. وسئل بعضهم عن الفَناء فقال: هو أنْ تبدو العظمة على العبد، فتنسيه الدنيا والآخرة والدرجات والأحوال والمقامات والأذكارَ، وتفنيه عن كل شيء حتى عن نفسه، وعن فنائه عن الأشياء، وعن فنائه عن الفناء، فيستغرق في التعظيم ا هـ.

(٧٨) الرَّجاءُ ما قارنَهُ عَمَلٌ، وإلاَّ فهو أُمْنِيَّةٌ.

يعني: أن الرجاء الصادق الذي هو مقام شريف من مقامات اليقين، هو ما

= ببغداد. اشتهر بكنيته، واختلف في اسمه ونسبه. (٢٤٧ - ٣٣٤ هـ) (٨٦١ - ٩٤٦ م) ا هـ «الأعلام» للزركلي (٣٠/٢٠ - ٢١).

وقال عنه السلمي في طبقاته: إنه تاب في مجلس خير النساج. وصحب الجنيد ومن في عصره من المشايخ وصار أوحد وقته حالاً وعلماً. وكان عالماً فقيهاً على مذهب مالك. كتب الحديث الكثير ورواه.

عاش سبعاً وثمانين سنة، ومات في ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. ودفن في مقبرة الخيزران، وقبره اليوم ظاهر. ا هـ «طبقات الصوفية» ص (٣٣٧ - ٣٣٨) بتصرف واختصار.

وقال عنه صاحب الرسالة القشيرية: ولما تاب الشبلي في مجلس خير النساج أتى دماوند، وقال: كنت والي بلدكم فاجعلوني في حل. وكانت مجاهداته في بدايته فوق الحد. ا هـ «الرسالة القشيرية» ص (٢٥). وانظر بعض أخباره في «صفة الصفوة» (٤٥٦/٢).

(١) الحديث: تقدم في شرح الحكمة (٤٧) والتعليق عليها من رواية البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - بلفظ: «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به...» وليس عنده (وبي ينطق) وقد ذكره الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٤٨/٢) من رواية الطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - بلفظ «ولسانه الذي ينطق به» وفي سنده علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف. وذكره أيضاً الهيثمي (٢٦٩/١٠) من رواية أبي يعلى الموصلي عن ميمونة زوج النبي ﷺ بلفظ: «كنت رجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها، ولسانه الذي ينطق به وقلبه الذي يعقل به... إلخ».

وفي سنده يوسف بن خالد السَّمتي، وهو ضعيف. وانظر «جامع العلوم والحكم» للحافظ ابن رجب الحنبلي ص (٣٣٧).

قارنه عمل؛ لأن الرجاء الحقيقي ما كان باعثاً على الاجتهاد في الأعمال، لأن من رجا شيئاً طلبه وإلا فهو أُمْنِيَّةٌ؛ أي مجرد أمنية لا طائل تحتها. وفي الحديث: «الكيِّسُ ـ أي العاقل ـ من دان نفسه ـ أي حاسبها ـ وعمل لما بعد الموت. والعاجزُ مَنْ أتْبَعَ نفسه هواها، وتمنّىٰ على الله الأماني»[1]. وقال الحسن[2]

---

(١) الحديث: رواه أحمد في «المسند» (٤/١٢٤)، والترمذي رقم (٢٤٦١)، وابن ماجه رقم (٤٢٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/٥٧)، والقضاعي والعسكري، كلهم من حديث شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ وفي سنده أبو بكر بن أبي مريم الغساني الشامي، وهو ضعيف. وقد حسنه الترمذي، ولعله بشواهده في بعضه في المعنى. ولبعض الحديث شاهد من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ عند البيهقي في «شعب الإيمان» بلفظ «الكيس من عمل لما بعد الموت» وفي سنده عون بن عمارة القيسي، وهو ضعيف. وله شاهد آخر بمعناه ذكره الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» والحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٣٠٩) من رواية الطبراني في «الصغير» عن عبدالله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رجل من الأنصار: يا رسول الله! من أكيس الناس، وأحزم الناس؟ قال: «أكثرهم ذكراً للموت وأكثرهم استعداداً للموت أولئك الأكياس» ورواه ابن ماجه رقم (٤٢٥٩) وحسن المنذري والهيثمي إسناد الطبراني في «الصغير» فلعل من حَسَّنه إنما حسَّنه بهذه الشواهد التي هي بمعناه، والله أعلم.

(٢) إذا أطلق الحسن، فهو الحسن البصري: وهو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد: تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه. وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النُّساك. ولد بالمدينة، وشب في كنف علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ واستكتبه الربيع ابن زياد والي خراسان في عهد معاوية، وسكن البصرة. وعظمت هيبته في القلوب؛ فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحق لومة، وكان أبوه من أهل ميسان مولى لبعض الأنصار. قال الغزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء وأقربهم هدياً من الصحابة. وكان غاية في الفصاحة، تتصبب الحكمة من فيه. وله مع الحجاج بن يوسف مواقف، وقد سلم من أذاه. ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه: إني قد ابتليت بهذا الأمر فانظر لي أعواناً يعينوني عليه. فأجابه الحسن: أما أبناء الدنيا فلا تريدهم، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك، فاستعن بالله. أخباره كثيرة، وله كلمات سائرة. توفي بالبصرة. (٢١ ـ ١١٠ هـ) (٦٤٢ ـ ٧٢٨ م). اهـ «الأعلام» للزركلي (٢/٢٤٢).

ومما قاله عنه ابن الجوزي: إنه ولد في خلافة عمر، وحنكه عمر ـ رضي الله عنه ـ بيده، وكانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبي ﷺ فربما غابت فتعطيه أم سلمة ثديها تعلله به إلى =

رضي الله عنه: إنّ قوماً أَلْهَتْهُم أمانيُّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا، وليس لهم حسنة، يقول أحدهم: أُحَسِّن الظنّ بربي، وهو يكذب، لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل. وتلا قوله تعالى: ﴿وذلكم ظنُّكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾[1].

ويرحم الله القائل:

يـا من يـريـد منـازلَ الأبـدالِ   منْ غيـر قَصْـدٍ منْـهُ لـلأعْمـالِ
لا تطمعَنْ فيها فلسْتَ مِنَ أهْلها[2]   إنْ لَمْ تُـزاحِمْهُمْ عـلى الأحْـوالِ

(٧٩) مَطْلَبُ العارفين من اللهِ الصِّدْقُ في العبوديَّةِ، والقيامُ بحُقُوقِ الربوبيَّةِ.

يعني: أنَّ مطلب العارفين من ربهم أعلى من مطلب غيرهم، سواء كانوا عبَّاداً أو زهَّاداً. فإنَّ مطلب العارفين إنما هو الصدق؛ أي الإخلاص في العبودية، والقيام بحقوق الربوبية فقط، مِنْ غير مراعاة حظ، ولا بقاء مع نفس. وأما مَنْ عَدَاهم فلم يفارقوا الحظوظ والأغراض في مطالبهم. وشَتَّانَ بين مَنْ همته الحورُ والقصورُ، وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور.

(٨٠) بَسَطَكَ كيْ لا يُبْقِيَكَ مع القَبْضِ، وقَبَضَكَ كي لا يَتْرُكَكَ مع البَسْطِ، وأخرجَكَ عنهما كي لا تكونَ لشيءٍ دُونَهُ.

أي بسطك مولاك ـ أيها العارف ـ كي لا يبقيك مع القبض الذي فيه قهر لنفسك. وإن كان فيه نفع لك، وقبضك كي لا يتركك مع البسط الذي فيه حظ لها، وأخرجك عنهما بفنائك عن نفسك وبقائك به كي لا تكون لشيء دونه. فالقبض والبسط من الأحوال التي يتلون بها العارفون. وهما بمنزلة الخوف والرجاء للمريدين المبتدئين. وسببهما الواردات التي ترد على باطن العبد، فإذا

أن تجيء أمه فيدر عليه ثديها فيشربه. فكانوا يقولون: فصاحته من بركة ذلك. اهـ «صفة الصفوة» (٣/٢٣٣).

(١) سورة فصلت: الآية (٢٣).

(٢) بوصل همزة (أهلها) للضرورة الشعرية. والبيت من البحر الكامل.

تجلى للقلب وارد الجلال حصل فيه القبض، وإذا تجلى له وارد الجمال حصل فيه البسط. والمقصود ههنا أنهما وصفان ناقصان بالنسبة إلى ما فوقهما، وهو فناؤه عن نفسه، وبقاؤه بالله. فإنَّ بقاء العارف مع شيء من أوصافه المؤنسةِ أو المُؤْلِمَةِ حجابٌ له عن مولاه.

(٨١) العارفونَ إذا بُسِطُوا أخوفُ منهم إذا قُبِضوا، ولا يقفُ على حدودِ الأدبِ في البَسْطِ إلا قليلٌ.

يعني: أن العارفين في مقام البسط أكثر خوفاً من أنفسهم في مقام القبض؛ لأن البسط فيه مناسبة لهوى أنفسهم، فيخافون حينئذ من الوقوع فيما تدعو إليه من التحدث بالأحوال والكرامات، وربما كان في ذلك الطرد عن عليِّ الدرجات، ولهذا تأكد عليهم مراعاة الأدب في هذا المقام الذي زلت فيه أقدام كثير من السادة الفِخَام[1]. وأما القبض فهو أقرب إلى وجود السلامة، كما بين ذلك المصنف بقوله:

(٨٢) البَسْطُ تأخذُ النَّفسُ منه حَظَّها بوجودِ الفَرَحِ، والقَبْضُ لا حظَ للنَّفسِ فيه.

فإن النفس متى أخذت حظها من البسط لا تتمالك حتى تقع في سوء الأدب، من التحدث بإدراك المقامات والحصول على خوارق العادات وغير ذلك مما هو مناف للعبودية، بخلاف القبض فإنه لا حظ للنفس فيه بالكلية، ولذا آثره العارفون على البسط كما قال بعضهم: القبض حق الحق منك، والبسط حظك منه ولأن تكون بحق ربك خير من أن تكون بحظ نفسك.

(٨٣) رُبَّما أعْطَاكَ فَمَنَعكَ، ورُبَّما مَنَعَكَ فأعطاكَ.

أي ربما أعطاك مولاك ما تميل إليه من الشهوات، فمنعك التوفيق؛ لعظيم القرب والطاعات. وربما منعك من شهواتك، فأعطاك التوفيق الذي هو بغية

(١) جمع فَخْم، ورجل فَخْمٌ: أي عظيم القدر. مختار الصحاح.

السالك. وحينئذ فيجب على المريد ترك التدبير، وتفويض الأمر إلى العليم الخبير. ولا ينظر لظاهر العطاء، قبل أن ينكشف عنه الغِطاء.

(٨٤) متىٰ فَتَحَ لكَ بابَ الفَهْمِ في المَنْعِ، عادَ المَنْعُ عينَ العَطَاء.

أي متى فتح لك مولاك باب الفهم عنه في المنع؛ بأن فهمت أنه بمنعه أشهدك قهره، وعرفت حكمته فيه، عاد المنع؛ أي صار عين العطاء. كما سيقول المصنف: متى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره[١].

(٨٥) الأكْوانُ ظاهرُها غِرَّةٌ، وباطِنُها عِبْرَةٌ، فالنَّفْسُ تَنْظُرُ إلى ظاهِرِ غِرَّتها، والقَلْبُ ينظرُ إلى باطِنِ عِبْرَتِها.

يعني: أَنَّ الأكوان؛ بمعنى المكوَّنات التي فيها حظ للنفس من متاع الدنيا وزهرتها. ظاهرها **غِرَّةٌ** - بكسر الغين المعجمة -؛ أي سبب في الاغترار بها لحسنها وبهجتها، وباطنها عبرة؛ أي سبب في الاعتبار بها لقبحها وخستها. فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها؛ أي إلى غرتها الظاهرة، فتغتر بها حتى تهلك صاحبها. والقلب؛ أي العقل، ينظر إلى باطن عبرتها؛ أي إلى عبرتها الباطنة، فيعتبر بها، ويسلم من شرها. فمن نظر إلى ظاهرها قال: حلوة خضرة، ومن نظر إلى باطنها قال: جيفة قذرة.

(٨٦) إنْ أرَدْتَ أنْ يكونَ لكَ عِزٌ لا يَفْنَىٰ، فلا تَسْتَعِزَّنَ بِعِزٍّ يفنىٰ.

العز الذي لا يفنى هو الغنى عن الأسباب كلها بوجود مُسَبِّبها، فالتعلق به سبحانه عزٌ لا يفنى. وأما التعلق بالأسباب، مع الغيبة عن مسبِّبها، فهو العز الذي يفنىٰ. وليس لك - أيها المريد - إلا أحدهما، لأنهما ضدان لا يجتمعان. فإن اخترت التعلق بمسبِّب الأسباب، فَنِعْمَتِ الحالةُ التي تكون عليها. وإن اخترت التعلق بالأسباب خَذَلَتْكَ وأَسْلَمَتْكَ أحْوَجَ ما تكون إليها. وما ألطف قولَ بعض العارفين:

---

(١) وذلك في الحكمة رقم (٩٣).

اجعــلْ بــربِّـك شـأْنَ عِـزْ زِكَ يَـسْـتَـقِـرُّ ويَـثْـبُـتُ
فـإنْ اعْـتَـزَزْتَ بـمـنْ يـمـو تُ فـإنَّ عــزَّكَ مَـيِّـتُ

(٨٧) الطَّيُّ الحقيقيُّ أنْ تَطْوِيَ مَسَافَةَ الدنيا عَنْكَ، حتى ترى الآخرة أقْرَبَ إليك منكَ.

يعني: أنَّ الطي الحقيقي ليس هو أن تطويَ مسافة الأرض، حتى تكون من أهل الحِظْوَة[1]، فإن ذلك ربما كان استدراجاً. وإنما هو أن تطوي - أيها المريد - مسافة الدنيا عنك؛ بأن لا تركن إليها، بل تغيبَ عنها حتى ترى الآخرة **أقرب إليك** منك، فإنه متى أشرق نور اليقين في قلبك، تنعدم الدنيا في نظرك، وترى الآخرة حاضرة لديك، ومتى شاهدت أنَّ ذاتك فانية، فإنك ترى الآخرة أقرب إليك منك بهذا الاعتبار. ومن كانت هذه مشاهدته فلا يُتَصَوَّرُ منه حُبُّ الغائب الفاني؛ وهو الدنيا، واستبدالُه بالحاضر الباقي؛ وهو الآخرة. ولذلك كان أصلَ الرغبة في الدنيا وإيثارَها على الآخرة ضَعْفُ اليقين.

(٨٨) العَطَاءُ من الخَلْقِ حِرْمَانٌ، والْمَنْعُ من اللهِ إحْسَانٌ.

يعني: أنَّ العطاء من الخلق، مع الغفلة عن الحق، حرمان في نفس الأمر؛ لأنه يوجِبُ حبَّهم والتعلَّقَ بهم وصرفَ الوقت في مكافأتهم، وذلك يوجب ذهولَ القلب عن الحق، فيفوته من المعارف ما لا يُحصى، وأيُّ حرمانٍ أعظم من ذلك. وما ألطف قولَ بعضهم:

فــلا ألْبِسُ النَّعمــا وغيـرُك مُلْبِسي ولا أقْبَـلُ الـدُّنيـا وغيـرُك واهبي

والمنع من الله إحسان في الحقيقة؛ لاقتضائه الالتجاءَ إليه، ودوامَ وقوف السائل بين يديه، وذلك عبودية، وأيُّ إحسانٍ أعظم من التوفيق لها.

(٨٩) جَلَّ ربُّنا أنْ يعاملَهُ العبدُ نَقْداً فيُجازِيَهُ نَسيئَةً.

أي تعالى ربنا عن أنْ يعامله العبد بالعمل الصالح نقداً؛ أي معاملة ناجزة،

---

(١) بكسر الحاء وضمها: المِكانةُ والحظُّ من الرِّزق. اهـ مختار القاموس.

فيجازيه نسيئة؛ أي مجازاة مؤجلة. فإن جزاء المعاملة لا يختص بالدار الآخرة، بل ربما أظهر الحقُّ تعالى منه لبعض أوليائه أنموذجاً يحملهم على الاجتهاد في الأعمال، ومن أعظم المعجل مجازاته على الحسنة بالتوفيق لحسنة أخرى، وبالحفظ من معصية يكون العبد بصددها، ومن ذلك الحفظ من الآفات والمكاره، ومنه ما أشار له المصنف بقوله:

(٩٠) كَفَىٰ مِنْ جزائِهِ إيَّاكَ على الطَّاعةِ[١] أنْ رَضِيَكَ لها أهْلاً.

أي كفى من مجازاته سبحانه لك على الطاعة أنْ رضيك ـ أيها العبدُ ـ الضعيف أهلاً لها، فإن خدمة ملك الملوك مما تتطاول إليها الأعناق، فكونه رضيك لها من أعظم النعم التي امتن بها عليك الكريم الخلاق. ومن ذلك ما أشار له المصنف أيضاً بقوله:

(٩١) كفَىٰ العاملين جَزَاءً ما هو فاتِحُهُ على قلوبهم في طاعَتِهِ، وما هو مورِدُهُ عليهم مِنْ وجودِ مؤانَسَتِه.

أي كفاهم في المجازاة ما هو فاتحه على قلوبهم في حال طاعته من الإلهامات السَّنِيَّةِ، والمواهب اللدنية، حتى يجدوا حلاوة المناجاة مع الملك الخَلَّاق التي يعبر عنها أهل الطريق: بالأحوال والمواجيد والأذواق، وكفاهم أيضاً ما هو مورده عليهم؛ أي على قلوبهم، من وجود مؤانسته البهيَّة، وسرور القلب بشهود صفاته الجمالِيَّة، فإن هذا من علامة الرِّضوان[٢] الأكبر الذي يتلاشى عنده كل شيء ويحقر.

(٩٢) مَنْ عَبَدَهُ لشيءٍ يرجوهُ منهُ، أو ليدفعَ بطاعتِهِ ورُودَ العقوبةِ عنْهُ، فَما قامَ بحَقِّ أوصافِهِ.

يعني: أن مَنْ عبده تعالى لشيء يرجوه منه كالثواب، أو ليدفع عن نفسه

(١) وفي نسخة: على الطاعات.

(٢) بكسر الراء وضمها: بمعنى الرضا. اهـ مختار الصحاح.

بطاعته ورود العقوبة يوم الحساب، فما قام بحق أوصافه سبحانه؛ لأن حَقَّ أوصافه أن يعبد لذاته لا طلباً لثوابه، ولا خوفاً من عقابه، فإنَّ العبد يستحِقُّ عليه مولاه كلَّ شيء، ولا يستحق هو شيئاً على مولاه. وكان أبو حازم المدني[1] يقول: إني لأستحيي من ربي أن أعبده خوفاً من العذاب؛ فأكون مثل عبد السوء إن لم يخف لم يعمل، وأستحيي أن أعبده لأجل الثواب؛ فأكون كالأجير السوء إن لم يُعْطَ أجر عمله لم يعمل. ولكن أعبده محبة له. اهـ. فإذا عمل المريد على ذلك كان عبداً لله حقاً، فإنْ طلب منه الثواب، أو استعاذ به من العقاب، فإنما يكون ذلك انتجازاً لوعد ربه، واتباعاً لما أذن له فيه من طلبه، لفضله وإحسانه وكرمه وامتنانه، لا أنَّ رجاءَه لحصول ذلك هو الباعث له على القيام بطاعته وملازمته لعبادته، وهذا مذهب العارفين الواصلين إلى رب العالمين.

(٩٣) متى أعطَاكَ أشهدَكَ بِرَّهُ، ومتى منَعَكَ أشهدكَ قَهْرَهُ، فهو في كلِّ ذلكَ مُتَعرِّفٌ إليكَ، ومُقْبِلٌ بوجود لُطْفِهِ عليكَ.

أي متى أعطاك مولاك ـ أيها المريد ـ ما تريد أشهدك برَّه؛ أي صفاتِه البِرِّيَّة التي تقتضي البر: من الجود والكرم واللطف والعطف ونحو ذلك. ومتى منعك أشهدك قهره؛ أي صفاته القهرية التي تقتضي القهر: كالكبرياء والعزة والاستغناء. فهو في كل ذلك؛ أي في كلتا الحالتين متعرف إليك؛ أي مريد منك أن تعرفه بأوصافه الجمالية والجلالية، ومقبل بوجود لطفه **عليك**؛ لأن مشاهدتك لصفات بره وقهره لطف عظيم منه سبحانه بك، ونعمة منه عليك. فإنه لا سبيل إلى معرفته إلا بِتَعَرُّفِهِ لعباده، ولا يكون ذلك إلا بمقتضى صفاته، سواء كان ذلك موافقاً لطبعهم؛ وهو الإعطاء، أو مخالفاً له؛ وهو المنع. فمن كان عارفاً بربه لم

---

(١) هو: محمد (ظافر) بن محمد حسن بن حمزة ظافر الطرابلسي المغربي المدني: متصوف من فقهاء المالكية. ولد في مسراتة (بطرابلس الغرب) وسكن المدينة فنسب إليها واستقر شيخاً لزاوية الشاذلية بالآستانة، وتوفي بها (١٢٤٤ ـ ١٣٢١ هـ) (١٨٢٩ ـ ١٩٠٣ م) ا هـ «الأعلام» للزركلي (٣٠٢/٧).

يفرق بين المنع والعطاء؛ لأن كلًا منهما له طريق توصله إلى معرفة مولاه. وهذا من جملة فَتْح بابِ الفهم في المنع كما مر فافهم.

(٩٤) إنَّما يُؤْلِمُكَ المنْعُ لعَدَمِ فَهْمِكَ عن اللهِ فيهِ.

أي إنما يؤلمك ـ أيها المريد ـ المنعُ الذي هو في الحقيقة مثل العطاء؛ لعدم فهمك عن الله فيه، إذ لو فهمت عن الله أنه إنما منعك ليُصيِّرَكَ من أحبابه الذين حماهم من الدنيا، لما تألمت منه بل تلذذت به. فإن الفقير لا يكمل حتى يجدَ لِلْمَنْعِ حلاوةً لا يجدها في العطاء.

(٩٥) رُبَّما فَتَحَ لكَ بابَ الطَّاعةِ، وما فَتْحُ لكَ بابَ القَبُولِ، وربما قَضَىٰ عليك بالذَّنْبِ، فكانَ سبباً في الوُصُولِ.

يعني: أن الطاعة ربما قارنها آفات قادحة في الإخلاص فيها؛ كالإعجاب بها واحتقار مَنْ لم يفعلها، فلا يُفتح لها بابُ القَبول. وربما قارن الذنبَ شدةُ النَّدمِ واستصغار النفس وحسن الاعتذار إلى الله، فيكون سبباً في الوصول. كما بين ذلك المصنف بقوله:

(٩٦) مَعْصِيةٌ أوْرَثَتْ ذُلًّا وافتقاراً، خيرٌ مِنْ طاعةٍ أورثت عِزّاً واستكْبَاراً.

فإن الذل والافتقار من أوصاف العبودية، والتَّحقُّقَ بهما موجب للقرب من رب البَرِيَّة. وأما العز والاستكبار فإنهما من أوصاف الربوبية، والتعلق بهما مُقْتَضٍ للخِذْلانِ والتباعد عن المراتب العلية. ولذا قال أبو مدين[1]: انكسار

---

(١) هو: شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني، أبو مدين: صوفي من مشاهيرهم. أصله من الأندلس. أقام بفاس، وسكن «بجاية» وكثر أتباعه. وتوفي بتلسمان وقد قارب الثمانين أو تجاوزها. (٥٩٤ هـ، ٨٦٠ م) اهـ «الأعلام» للزركلي (٣/٢٤٤).

وقال عنه ابن العماد الحنبلي في وفيات سنة (٥٩٠): وفيها أبو مدين الأندلسي الزاهد العارف شيخ أهل المغرب. شعيب بن الحسين. سكن تلمسان، وكان من أهل العمل والاجتهاد، منقطع القرين في العبادة والنسك، بعيد الصيت. ويسميه الشيخ محي الدين بن=

العاصي خير من صولة المطيع. وكان أبو العباس المرسي[1]، ربما دخل عليه المطيع فلا يعبأ به، وربما دخل عليه العاصي فيكرمه؛ لمشاهدته أن الطائع أتى وهو متكبر بعمله، ناظر لفعله، والعاصي دخل عليه بذلة مخالفته، ومشاهدة معصيته. فينبغي أن لا ينظر العبد إلى صور الأشياء، بل إلى حقائقها. فإن أعمال البر والطاعة ليست مشروعة لذاتها، ولا مطلوبة لصورها، بل لما احتوت عليه من التذلل والخشوع، فإذا خلت من ذلك فخير منها المعصية التي تورث الخضوع.

(٩٧) نِعْمَتَانِ ما خَرَجَ موجودٌ عنهما، ولا بُدَّ لُكلِّ مُكَوَّنٍ منهما: نِعْمةُ الإِيجادِ، ونِعْمةُ الإمدادِ.

يعني أنه لا بد لكل مكوَّن ـ بفتح الواو المشددة ـ؛ أي موجود، من نعمتين لا يخرج عنهما: الأولى نعمة الإيجاد؛ أي نعمة هي إيجاد الله إياه بعد العدم السابق، والثانية نعمة هي إمداد بالمنافع التي تقتضي بقاء صورته وهيكله إلى أجل مسمى. فهو المنعم ابتداءً ودواماً. كما قال المصنف:

= عربي؛ بشيخ الشيوخ. ونشر الله ذكره وتخرج به جماعة من الفضلاء، كأبي عبدالله القرشي وغيره، وانتهى إليه كثير من العلماء المحققين وفضلاء الصالحين كابن عربي. وله في الحقائق كلام واسع، ومن شعره:

يا من علا فرأىٰ ما في الغيوب وما ... تحت الثرىٰ وظلامُ الليل منسدلُ
أنت الغياثُ لمن ضاقتْ مذاهبه ... أنت الدليلُ لمن حارتْ به الحيلُ
إنا قصدناك والآمالُ واثقةٌ ... والكل يدعوك ملهوفٌ ومبتهلُ
فإن عفوتَ فذو فضل وذو كرمٍ ... وإن سطوتَ فأنت الحاكمُ العدلُ

طلبه سلطان المغرب فلما وصل إلىٰ تلمسان قال: ما لنا وللسلطان، نزور الإخوان. ثم نزل واستقبلَ القبلة وتشهد وقال: ها قد جئت. ها قد جئت، وعجلت إليك رب لترضى. فمات، ودفن في جبانة العباد. وقد قارب الثمانين. وقبره بها مشهور مزور. اهـ «شذرات الذهب» لابن العماد (٤/٣٠٣).

(١) هو: أحمد بن عمر المرسي، أبو العباس، شهاب الدين: فقيه متصوف، من أهل الإسكندرية، لأهلها فيه اعتقاد كبير إلى اليوم. أصله من مرسية في الأندلس. (٦٨٦ هـ، ١٢٨٧ م). اهـ «الأعلام» للزركلي (١/١٧٩).

(٩٨) أنْعَمَ عـليكَ أولاً بالإيجادِ، وثانياً بتوالي الإمْدَادِ.

وقد وَجَّهَ الكلام في هذه الحكمة على طريق الخطاب؛ ليستحضرهما الإنسان في نفسه، ويعلم أن الإمداد متواصل لا يتخلله انقطاع، فيعرف من نفسه الفاقة الذاتية، وهي النتيجة التي قصدها المصنف من هذه المقدمات بقوله:

(٩٩) فاقَتُكَ لكَ ذاتِيَّةٌ، ووُرُودُ الأسْبابِ مَذَكِّراتٌ لكَ بما خَفِيَ عليكَ منها. والفاقَةُ الذاتِيَّةُ لا تَرْفَعُها[١] العوارِضُ.

أي إذا علمت أنَّ العدم سابق على وجودك، وأنَّ وجودك مفتقِرٌ إلى المدد في كل وقت، وإلا تلاشى وانعدم، علمت أنَّ فاقتك ذاتية لك، وأنَّ الاضطرار لازم لوجودك، وأنَّ ورود الأسباب كالفقر والمرض مذكِّرات لك بما خفي عليك من الفاقة الذاتية. فإن غالب الناس يغفلون عن الفاقة الذاتية إذا دامت عليهم صحةُ أبدانهم وكثرةُ أموالهم. بل قال بعضهم: إنما حمل فرعونَ على قوله: ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾[٢] طولُ العافية والغنى. فإنه لبث أربعمئة سنة لم يتصدع رأسه، ولم يضرب عليه عرق، ولو أخذته الشقيقة ساعة واحدة لشغله ذلك عن دعوى الربوبية. والفاقة الذاتية اللازمة للعبد لا ترفعها العوارض كالصحة والغنى، فإنه يجوز في حقه تعالى أنْ يزيل ذلك. ويبدله بضده المقتضي للافتقار والاضطرار، ولا يزايل العبدَ هذا الاضطرارُ لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو دخل الجنة، فهو محتاج إلى الله تعالى دائماً وأبداً، وإذا لاحظ العبد ذلك وقف عند حده، وقام بعبودية ربه، وخاف من تهديد قوله تعالى: ﴿ وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجَنْبِهِ أو قاعداً أو قائماً فلمَّا كَشَفْنا عنه ضُرَّهُ مَرَّ كأنْ لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّه ﴾[٣].

(١) وفي نسخة: لا تَدْفعُها.

(٢) سورة النازعات: الآية (٢٤) وهي مع ما قبلها وما بعدها، ﴿اذهبْ إلى فرعونَ إنَّه طَغىٰ * فَقُلْ هَلْ لَكَ إلىٰ أنْ تَزَكَّىٰ * وَأهْدِيَكَ إلىٰ ربِّكَ فَتَخْشَىٰ * فَأراهُ الآيَةَ الكُبْرىٰ * فَكَذَّبَ وعَصَىٰ * ثُمَّ أدْبَرَ يَسْعىٰ * فَحَشَرَ فنادىٰ * فقالَ أنا ربُّكُمُ الأعْلَىٰ * فَأخَذَهُ اللهُ نكالَ الآخِرَةِ والأُولىٰ * إنَّ في ذلك لَعِبْرةً لمنْ يَخْشَىٰ * ﴾.

(٣) سورة يونس: الآية (١٢) وتتمتها ﴿ . . . كَذَلِكَ زُيِّنَ للمُسْرِفينَ ما كانوا يَعْمَلُونَ ﴾.

(١٠٠) **خَيْرُ أوْقَاتِك وَقْتٌ تَشْهَدُ فيه وجودَ فاقَتِك، وتُرَدُّ فيه إلى وُجودِ ذِلَّتِك.**

أي خير أوقاتك ـ أيها المريد ـ وقت تشهد فيه وجود فقرك إلى مولاك، وترد فيه إلى وجود ذلتك ـ بكسر الذال المعجمة ـ أي: تذللك بين يدي مَنْ خلقك وسواك. وإنَّما كان هذا خيرَ أوقاتِ المريدِ لحضوره فيه مع الملك المجيد. كما سيقول المصنف: أوقات الفاقات أعياد المريدين[١]. بخلاف الوقت الذي يشهد فيه غناه وعزَّهُ، فإنه شر الأوقات؛ لوجود الحُجُب المانعة من الوصول إلى رب البرِيَّات. وما ألطف قول بعضهم:

بنى اللهُ للأحباب بيتاً سماؤه همومٌ وأحزانٌ وحيطانُهُ الضُرُّ
وَأَدْخَلَهُمْ فيهِ وَأَغْلَقَ بابَهُ وقالَ لهمْ مِفْتَاحُ بابكمُ الصَّبْرُ

(١٠١) **متى أوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ فاعلمْ أنَّه يريدُ أنْ يَفْتَح لكَ بابَ الأُنْسِ بِهِ.**

أي متى أوحشك الله من خلقه؛ بأن نَفَّر قلبَكَ من الاستئناس بهم، فاعلم أنه يريد أنْ يفتح لك باب الأنس به؛ لتصير له وحده. ومتى فتح لك هذا الباب صَيَّرك من الأحباب، وآنسك بالخطاب. فاترك الأغيار في مرضاة العزيز الوهاب.

(١٠٢) **متى أطْلَقَ لسانَكَ بالطَّلبِ فاعْلَمْ أنَّه يُريدُ أنْ يُعطيَكَ.**

أي متى حَلَّ مولاك عقدةَ لسانِك التي أوجبها الاستغناءُ بالأغيار، وعَدَمُ رؤيةِ الفاقة والافتقار؛ بأن أشهدك فقرك وفاقتك، حتى دعوته بلسان الاضطرار، فاعلم أنه يريد أن يعطيك لصدق الوعد بإجابة دعاء المضطر، لا سيما في الأسحار. وما ألطف قول بعض العارفين:

لو لم تُرِدْ نيلَ ما أرجوهِ مِنْ طَلَبِ مِنْ فيضِ جُودِك ما ألهمْتَني الطَّلَبا

وفي الحديث: «من أُعطي الدعاء لم يحرم الإجابة»[٢]. واعلم أنَّ الإجابة

---

(١) وهي الحكمة رقم (١٧٤) ونصها: ورُودُ الفاقاتِ أعيادُ المريدينَ.

(٢) الحديث: جزء من حديث طويل ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٧١) من رواية الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وقال السيوطي: وأخرج =

تارة تكون بعين المطلوب، وتارة تكون بغيره عاجلاً أو آجلاً ﴿ وربُّكَ يَخْلُقُ ما يشاءُ ويخْتَارُ ما كانَ لهم الخِيَرَةُ ﴾[1].

(١٠٣) العارِفُ لا يزولُ اضْطِرارُهُ، ولا يكونُ مع غَيْرِ اللهِ قرارُهُ.

يعني: أنَّ العارف بالله لا يزول اضطراره وافتقاره إلى مولاه، فإنه بقدر معرفته لنفسه بالذل والافتقار؛ يعرف ربه بالعز والعظمة والاقتدار. وأما غير العارف من العامة، فإن اضطرارهم إنما يكون عند مُثِيراتِ الأسباب من الفقر والمرض ونحو ذلك؛ لغلبة دائـرة الحس على مشهدهم، ومتى زالت زال اضطرارهم، فلو شهدوا قبضة الله الشاملةَ المحيطة، لعلموا أن اضطرارهم إلى الله تعالى دائم. ومن أوصاف العارف أيضاً أنه لا يكون مع غير الله قراره؛ لوجود وحشته من المخلوقات، فلا يأنس إلا بباريء الأرض والسموات.

(١٠٤) أنَارَ الظواهِرَ بأنوارِ آثارِهِ، وأنارَ السَّرائرَ بأنوارِ أوصافِهِ؛ لأجْلِ ذلكَ أفَلَتْ أنوارُ الظَّواهِرِ، ولم تَأْفُلْ أنوارُ القلوبِ والسَّرائِرِ، ولذلكَ قِيلَ:

إنَّ شَمْسَ النَّهـارِ تَغْـرُبُ بـاللَّيْـ ـلِ وشَمْسُ القُلوبِ لَيْسَتْ تَـغِيـبُ

يعني: أنه سبحانه أنار الظواهر؛ أي المكوَّنات، بأنوار الكواكب والشمس والقمر التي هي آثار قدرته، فنرى المكوَّنات بذلك النور، ونأخذ منها ما ينفع، ونحترز عما يضر. وأنار السرائر؛ أي بواطن قلوب العارفين بأنوار أوصافه؛ أي بالعلوم العِرْفَانِيَّةِ والأسرار الربانية؛ لأجل ذلك أفلت؛ أي غابت أنوار الظواهر،

= البخاري في «تاريخه»، والضياء المقدسي في «المختارة» عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من ألهم خمسة لم يحرم من خمسة؛ من ألهم الدعاء لم يحرم الإجابة لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ ومن ألهم التوبة لم يحرم القبول، لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة، لأن الله تعالى يقول: ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ومن ألهم الاستغفار لم يحرم المغفرة، لأن الله تعالى يقول: ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ ومن ألهم النفقة لم يحرم الخلف، لأن الله تعالى يقول: ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾».

(١) سورة القصص: الآية (٦٨) وتتمتها ﴿ . . . سُبْحانَ اللهِ وتَعَالىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

فيذهب نور الشمس في الليل، ونور القمر في النهار، لكونها ناشئةً عن الحادث. ولم تأفُل ـ بضم الفاء ـ أي: لم تغب أنوار القلوب والسرائر؛ لكونها ناشئة عن الصفات القديمة. وقد استشهد بالبيت على ما ذكره، ومعناه واضح، وفي هذا تنبيه على أن الأمور الباقية هي التي ينبغي أنْ يُعْتَنَىٰ بها، بخلاف الأمور الفانية الآفِلَةِ، فلا يعتنى بالعلوم الظاهرية مثل ما يعتنى بالعلوم الباطنية، فإن الثانية لبقائها أولى بالاعتناء بها. وحينئذ يكون العبد على ملة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿ لا أحب الآفلين ﴾[1]. ومن اللطائف أنَّ رجلاً سأل سهل بن عبدالله[2] رضي الله عنه عن القوت. فقال: هو الحي الذي لا يموت. فقال: إنما سألتك عن القِوام[3]. فقال: القِوام هو العلم. فقال: سألتك عن الغِذَاء. فقال: الغِذاء هو الذكر. فقال: إنما سألتك عن طُعْمِ[4] الجسد. فقال: مالَكَ وللجسد، دَعْ مَنْ تولَّاهُ أولاً يتولَّاهُ آخراً. وما ألطف قول بعضهم:

يا خادمَ الجسمِ كم تَشْقى بخدمتِهِ وتَطْلُبُ الرِّبْحَ مما فيه خُسْرانُ
عليكَ بالرُّوحِ فاسْتَكْمِلْ فضائِلَها فأنتَ بالروحِ لا بالجِسْمِ إنسانُ

(١٠٥) ليُخَفِّفْ ألمَ البَلاءِ عَنْكَ[5] علمُكَ بأنَّه سبحانه هو المُبْلي لكَ، فالذي واجَهَتْكَ مِنْهُ الأقدارُ، هو الذي عَوَّدَكَ حُسْنَ الاختيارِ.

هذه الحكمة تسلية للسالكين، حتى يذوقوا منها مذاق العارفين. فإنه مَنْ عرف أنَّ البلايا من مولاه وسيده الذي هو أرحم به من والدته ووالده، كيف يبقى

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٧٦) وتمامها ﴿ فلما جَنَّ عليهِ اللَّيْلُ رأى كَوْكَباً قال هذا ربِّي فلمَّا أفَلَ قالَ: لا أُحِبُّ الآفِلينَ ﴾.

(٢) انظر ترجمته في تعليق الحكمة رقم (٢٠).

(٣) قِوام الأمر بالكسر: نظامه وعماده، يقال: فلان قِوام أهل بيته، وقيام أهل بيته، وهو الذي يقيم شأنهم. . . . وقوام الأمر أيضاً مِلاَكه الذي يقوم به، وقد يفتح. ا هـ مختار الصحاح.

(٤) والطُّعْم بالضم الطعامُ، وقد طَعِمَ بالكسر طُعْماً بضم الطاء، إذا أكل أو ذاق، فهو طاعم. . . . ا هـ مختار الصحاح.

(٥) وفي نسخة: (عليك) بدلاً من (عنك)، وفي أخرى ليخفف عنك ألَمَ البلاء علمُكَ. . . ا هـ.

له بالألم إحساس؟ أم كيف لا يتلذذ به؟ كما يتلذذ بالنعمة سائر الناس. كما قال في التنوير[1]:

وخفَّفَ عني ما أُلاقي من العَنَا ... بأنَّكَ أنتَ المبتَلِي والمقدِّرُ
وما لامْرِئٍ عما قضىٰ اللهُ مَعْدِلٌ ... وليس لَهُ منه الذي يَتَخَيَّرُ

يعني: أن علمك ـ أيها المريد ـ بأنه سبحانه هو المبلي لك، يخفف ألم البلاء عنك. فإن الذي واجهتك منه الأقدار؛ أي الأمور المقدرة عليك من مرض ونحوه، هو الذي عودك حسن الاختيار؛ أي اختيار الأمر الحسن الذي يلائمك. فاتهم نفسك إذا ظَنَّتْ[2] خلاف ذلك، وسلم الأمر تسلم، فإنَّ مولاك الحكيمَ بمصالحك منك أعلم. قال تعالى: ﴿وعسى أنْ تَكْرَهوا شيئاً وهو خَيْرٌ لكم وعسى أنْ تُحبِّوا شَيْئاً وهو شَرٌّ لَكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وأنتم لا تَعْلَمُون﴾[3].

(١٠٦) مَنْ ظَنَّ انْفِكاكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ، فذلكَ لقُصُورِ نَظَرِهِ.

أي من ظن انفكاك لطفه تعالى، وتخلُّفَه عن قدره الذي قدره عليه، وأنزله به من البلايا والمحن، فذلك الظن إنما حصل له لقصور نظره الناشىء عن ضعف اليقين. فإن العارفين يشهدون المِنَنَ في المحن، والعطايا في البلايا، بل كثيراً ما يتلذذون بها؛ لما يعقبها من المزايا، فإنها توجب شدة قرب العبد من مولاه؛ لأنه يُكْثِرُ التضرعَ عند نزولها به، والالتجاءَ إلى من يعلم سره ونجواه، ويستعمل حسن الصبر والرضا، والتوكل على من أراد له هذا القضا، إلى غير ذلك من طهارة القلوب. وفي هذا من أنواع اللطف ما لا ينكره إلّا كل محجوب. فإن ذرة من أعمال القلوب خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح. وفي

---

(١) التنوير في إسقاط التدبير: كتاب للشيخ تاج الدين صاحب الحكم ابن عطاء الله السكندري ألفه في مكة المكرمة ثم استدرك عليه بدمشق وزاد فيه فوائد. ولم يرتب وإنما هو كلمات من حيث الورود. ا هـ «كشف الظنون» (١/٥٠٢) بتصرف.

(٢) وفي نسخة: إذا ظننت ا هـ.

(٣) سورة البقرة: الآية (٢١٦) وأولها ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ. . . . ﴾

الحديث: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه وإن رضي اصطفاه»[1].

(١٠٧) لا يُخافُ عَلَيْكَ أنْ تَلْتَبِسَ الطرقُ عليكَ، وإنَّما يخافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ الهَوىٰ عَلَيْكَ.

أي لا يُخافُ عليكَ ـ أيها المريد ـ أن تلتبس؛ أي تشتبه الطرق الموصلة إلى الله تعالى عليك، لأنه سبحانه بينها بإنزال الكتب وإرسال الرسل، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك، حتى يعميك عن رؤيتها. كما قال البَلْخي[2]: الطريقُ واضح، والحق لائح، والداعي قد أسمع، فما التحير بعد هذا إلا من العمى. وما ألطف ما قيل:

وآفــةُ العقــلِ الهــوىٰ فمن عَــلا عَلَى هــواهُ عَـقْـلُهُ فَـقَـدْ نَـجـا

وقال آخر:

---

(١) الحديث: رواه الترمذي رقم (٢٣٩٨) وابن ماجه رقم (٤٠٣١) من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضىٰ ومن سخط فله السخط» وإسناده حسن، وله شاهد من حديث محمود بن لبيد ـ رضي الله عنه ـ بمعناه عند أحمد في «المسند» (٥/٤٢٧). والحديث يدل على أن البلاء إنما يكون خيراً، وأن صاحبه يكون عند الله محبوباً إذا صبر على البلاء ورضي بقضاء الله عزّ وجلّ. ويشهد له ما رواه مسلم في «صحيحه» رقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

(٢) هو: شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي البلخي، أبو علي: زاهد صوفي، من مشاهير المشايخ في خراسان. ولعله أول من تكلم في علوم الأحوال «الصوفية» بكور خراسان. وكان من كبار المجاهدين. استشهد في غزوة كولان (بما وراء النهر). (١٩٤ هـ، ٨١٠ م). ا هـ «الأعلام» للزركلي (٣/٢٤٩).

وقال عنه السلمي في طبقاته: من أهل بلخ، حسن الجري على سبيل المتوكل، وحسن الكلام فيه. وأظنه أول من تكلم في علوم الأحوال بكور خراسان. كان أستاذ حاتم الأصم. صحب إبراهيم بن أدهم، وأخذ عنه الطريقة. وأسند الحديث. ا هـ «طبقات الصوفية» ص (٦١) وانظر بعض أخباره في «الرسالة القشيرية» ص (١٣).

إذا أنتَ لم تَعْصِ الهوىٰ قادَكَ الهوىٰ   إلى كـلِّ ما فيـه عَلَيْـكَ مَقَـالُ

(١٠٨) سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الخُصُوصِيَّةِ بظُهورِ البَشَرِيَّةِ[١]، وظَهَرَ بعظَمَةِ الرُّبوبيَّةِ في إظهارِ العُبودةِّ.

أي تنزه عما لا يليق به مولانا الحكيمُ الذي ستر بحكمته سر الخصوصية؛ أي سراً هو الخصوصية التي خَصَّ بها أولياءه من المعارف والأسرار بظهور البشرية؛ أي الأحوال التي تعرض للبشر، فقد يكون بعض الأولياء خَوَّاصاً[٢] مثلاً؛ ليستر خصوصيته بهذه الصفة التي يتعاطاها، فلا يعرفه كثير من الناس، ولولا هذا الستر لكان سر الله مبتذلاً غير مصون. وقد قالوا لا بد للشمس من سحاب، وللحسناء من نقاب. وقوله: وظهر بعظمة الربوبية؛ أي بربوبيته العظيمة. في إظهار العبودية؛ أي في إظهار آثار العبودية على عباده. وهي الأحوال التي تطرأ عليهم، فتقتضي افتقارهم إلى ربهم. فبعجزك تتحقق قدرة مولاكَ، وبفقرك تتحقق غناه، وبذُلِّكَ تتحقق عزَّهُ. وهكذا فعظمة الربوبية إنما ظهرت للعباد من وراء حجاب العبودية.

(١٠٩) لا تُطالِبْ ربَّكَ بتأخرِ مَطْلَبِكَ، ولكنْ طالِبْ نَفْسَكَ بتأخُّرِ أَدبِكَ.

أي إذا دعوت ربك، وطلبت منه شيئاً من الأشياء، ولم تظهر لك الإجابة، فلا تطالبه؛ أي لا تعترضْ عليه، وتُسِءِ الظنَّ به؛ بسبب تأخر مطلبك؛ أي ما طلبْتَهُ منه، فإنه لا يُسْأَلُ عما يفعل[٣]. ولكنْ طالبْ نفسَك، واعترض عليها؛ بسبب تأخر أدبك، فلو تقدم الأدب لما تأخر المطلب. ومن أدبك في الطلب عدم طلب الإجابة، فإن الطالب إنما يقصد بدعائه إظهار العبودية فقط. ومنه[٤] عدم رؤية الاستحقاق لما تطلب، فإن رؤية الاستحقاق توجب إدْلالَكَ[٥] عليه،

---

(١) وفي نسخة: بظهور وصف البشرية.

(٢) الخُوص: ورق النخل، الواحدة خُوصَة. والخوّاص: بائعه. مختار القاموس المحيط.

(٣) فيه اقتباس من قوله تعالى ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ الأنبياء الآية (٢٣).

(٤) قوله (ومنه): أي ومن الأدب في الطلب.

(٥) الإدْلالُ: الاجْتِرَاء، وفلانٌ يُدِلُّ عليكَ بصُحْبَتِهِ إدْلالاً ودَلالاً ودالَّةً أيْ يجترىءُ عليكَ. انظر

والواجب إنما هو إذْلالُك بين يديه. ثم أشار المصنف إلى كمال الأدب الذي يكون به العبد في غاية الاستقامة بقوله:

(١١٠) مَتَى جَعَلَكَ في الظاهر مُمْتَثِلاً لأمرِهِ، ورزقكَ في الباطنِ الاسْتِسْلامَ لقَهْرِهِ، فَقَدْ أعْظَمَ المنَّةَ عليكَ.

أي متى زين الله ظاهرك بالتقوى؛ وهي امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وباطِنَك بالاستسلام؛ أي بالانقياد لقهره مع الرضا والصبر على المصيبات، فقد أعظم المنة؛ أي النعمة عليك، فإنه لا درجة أعلى من التَّقَلُّب في عبودية الظاهر والباطن.

(١١) ليس كُلُّ مَنْ ثبتَ تَخْصِيصُهُ كَمُلَ تَخْليصُهُ.

أي ليس كلُّ من ثبت تخصيصه بإظهار أمْرٍ خارق للعادة على يده؛ كطي الأرض والطيران في الهواء والمشي على الماء وغير ذلك من الكرامات، كَمُلَ تخليصه من رؤية الأغيار، وآفات النفس، وما تدعو إليه من الشهوات. فإنه كثيراً ما تظهر الكرامة على أيدي المبتدئين، ولا تظهر على أيدي الواصلين من أهل التمكيين. ولذا قيل لبعضهم: إنَّ فلاناً جاع في البادية فرأى البادية كلَّها طعاماً. فقال عبد رُفق به، ولو بلغ إلى محل التحقيق لكان كمن قال: أبيتُ عند ربي يطعمني ويسقيني[1]. وسيقول المصنف: ربما رُزِقَ الكرامةَ مَنْ لم تَكْمُلْ له الاستقامة[2]. فالاستقامة هي أعظم الكرامات التي أُكْرِمَ بها العبدُ من ربِّ البريات.

= «لسان العرب» مادة (دلل).

(١) عله يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم، فقال له رجل من المسلمين: إنك تواصل يا رسول الله قال: وأيكم مثلي إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني. فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوماً ثم يوماً، ثم رأوا الهلال. فقال: لو تأخر لزدتكم؛ كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا» صحيح البخاري باب الوصال.

(٢) هي الحكمة رقم (١٧٩).

(١١٢) لا يَسْتَحْقِرُ الوِرْدَ إلا جَهُولٌ. الواردُ يوجد في الدارِ الآخرةِ، والوِرْدُ ينطوي بانطواءِ هذه الدارِ، وأوْلَى ما يُعتنَى به ما لا يُخْلَفُ وُجُودُهُ. الوِرْدُ هو طالبُهُ منكَ، والواردُ أنت تَطْلُبُهُ منهُ، وأيْنَ ما هو طالبُهُ منكَ مما هو مَطْلَبُكَ منهُ؟.

يعني: لا يستحقر الورد الذي هو الأعمال الصالحة التي تقربه إلى العزيز الغفار، ويَتَشَوَّفُ[1] إلى الوارد وهو ما يرد على الباطن من المعارف والأسرار، إلا جهولٌ؛ أي كثير الجهل. فإن الوارد إنما ينشأ عن الوِرْد بعد تصفية الباطن بصالح الأعمال، التي تجلب الأنوار من حضرة الغني المفضال. فالوِرْدُ ما كان من الخَلْقِ للحقِّ، والوارِدُ ما كان من الحقِّ للخَلْقِ. ثم ذكر أن الورد له مزية على الوارد من وجهين: أشار إلى الأول بقوله: الوارد يوجد في الدار الآخرة؛ لأنه ما يرد على باطن العبد من المعارف الربانية، واللطائف الرحمانية. وأما الورد: فإنه ينطوي بانطواء هذه الدار؛ لأن الآخرة ليست دار تكليف. وأولى ما يعتنى به ما لا يُخْلَفُ وجوده بفواته. وأشار إلى الوجه الثاني بقوله: الورد هو تعالى طالبه منك، فهو حقه عليك، والوارد أنت تطلبه منه فهو حظك منه، وأين ما هو طالبه منك مما هو مطلبك منه؟ أي بعيد ما بينهما، فقيامك بحقوقه عليك أَلْيَقُ بالعبودية من طلبك لحظوظك المحبوبة لديك، ومتى تطهرت من العيب فَتَحَ لك بابَ الغيب. وأتى المصنف بذلك إرشاداً للمريدين الذين يتشوفون إلى الواردات، ويتركون الأوراد مع أنها لها من المقدمات. كما قال المصنف:

(١١٣) ورُودُ الإمْدادِ بحسَبِ الاسْتِعْدادِ، وشروقُ الأنْوارِ على حَسَبِ صَفَاءِ الأسْرارِ.

يعني: أن ورود الإمداد من حضرة الملك الجواد، إنما يكون للعبد بحسب استعداده لذلك؛ بتطهيرِ فؤاده وملازمتِهِ لأوراده. وشروقُ الأنوار في قلب

(١) تَشَوَّفَ إلى الشيء: تَطَلَّعَ. اهـ مختار الصِّحاح.

العارف؛ والمراد بها العلوم والمعارف، إنما يكون على حسب صفاء الأسرار من كدر التعلق بالأغيار والآثار. وهذه الحكمة إثبات للشريعة من حيث الأخذ بالأسباب. وأما قوله: قلما تكون الواردات الإلٓهية إلا بغتة[1]، فتحقيق للحقيقة، فلا تنافي بلا ارتياب.

(١١٤) الغَافِلُ إذا أَصْبَحَ يَنْظُرُ ماذا يَفْعَلُ، والعاقِلُ ينظرُ ماذا يَفْعَلُ اللهُ به.

يعني: أنَّ الغافل عن الله تعالى إذا أصبح فأول خاطر يرد عليه نسبةُ الفعل إلى نفسه فيقول: ماذا أفعل اليوم؟ فهو جدير بأنْ يَكِلَه اللهُ تعالى إلى نفسه. وأما العاقل فأول خاطر يرد عليه نسبةُ الفعل إلى الله تعالى فيقول: ماذا يفعل الله بي؟ وذلك لدوام يقظته، فهو جدير بأن يوفقه الله لأحسن الأعمال، ويرشده لأصلح الأحوال. فأول خاطر يرد على العبد هو ميزان توحيده، ولذا قال بعضهم؛ مَن اهتدىٰ إلى الحق لم يهتدِ إلى نفسه، ومن اهتدىٰ إلى نفسه لم يهتدِ إلى الله. فانظر إذا استقبلك شغلٌ، فإن عاد قلبك في أول وهلة إلى حولِك وقوتك، فأنت المنقطعُ عن الله، وإن عاد قلبك إلى الله سبحانه، فأنت الواصل إليه. وقد كان سيدي عمر بن[2] عبد العزيز يقول: أصبحتُ ومالي سرور إلا في مواقع القدر. وَلْيَكُنْ من دعاء صاحب هذا المقام: اللهم إني أصبحت لا أملك لنفسي ضراً

---

(١) وذلك في الحكمة (٦٩) وتمامها: قَلَّما تكونُ الوارداتُ الإلٓهيةُ إلا بغتةً، صيانةً لها أنْ يدعيَها العبادُ بوجودِ الاستعدادِ.

(٢) هو: عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص: الخليفة الصالح والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيهاً له بهم، هو من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام. ولد ونشأ بالمدينة، وولي إمارتها للوليد، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام. وولي الخلافة بعهد من سليمان (٩٩ هـ)، فبويع في مسجد دمشق. وسكن الناس في أيامه، ولم تطل مدته، قيل: دس لـه الـسم وهو بدير سمعان من أرض المعرة، فتوفي به. ومدة خلافته سنتان ونصف. وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة. وكان يدعىٰ «أشج بني أمية» رمحته دابة وهو غلام فشجته. وقيل في صفته: «كان نـحيف الجسم، غائر العينين، بجبهته أثر الشجة، وخطه الشيب، أبيض رقيق الوجه مليحاً» (٦١ ـ ١٠١ هـ) (٦٨١ ـ ٧٢٠ م) اهـ «الأعلام» للزركلي (٥/٢٠٩) بتصرف يسير. وانظر طائفة من أخباره في «صفة الصفوة» (٢/١١٣).

ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني، ولا أتقي إلا ما وَقَيْتني، اللهم وفقني لما تحبه وترضاه من القول والعمل في طاعتك، إنك ذو الفضل العظيم.

(١١٥) إنما يَسْتَوْحِشُ[١] العبَّادُ والزُّهَّادُ مِنْ كلِّ شيءٍ؛ لغَيْبَتِهم عنِ اللهِ في كلِّ شيءٍ، فَلَوْ شهدوهُ في كلِّ شيءٍ لم يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شيءٍ.

أي إنما يستوحش العباد ـ بضم العين جمع عابد ـ والزهاد ـ جمع زاهد ـ؛ أي ينْفِرُون من كل شيء يقطعهم عن الله؛ بغيبتهم عن الله في كل شيء؛ لكونهم محجوبين عنه تعالى برؤية أنفسهم، ومراعاة حظوظهم. فإن الزهد في المزهود شاهد له بالوجود، ولذا فروا من الأشياء، واستوحشوا منها مخافة أن تُفَوِّتَ عليهم مقاصدهم؛ لميلهم إليها وافتتانهم بها، فلو شهدوه في كل شيء كما شهده العارفون والمحبون، لم يستوحشوا من شيء؛ لرؤيتهم له حينئذ ظاهراً في الأشياء كلها، لأنهم يستدلون به عليها، فيكون في ذلك من قرة أعينهم ما يشغلهم عن رؤيتهم لنفوسهم، فلا يكون لهم من الأشياء وحشة، ولا يخشون منها فتنة؛ لأنها فانية متلاشية بهذا الاعتبار. جعلنا الله من أهل محبته، إنه كريم غفار.

(١١٦) أمَرَكَ في هذهِ الدَّارِ بالنَّظَرِ في مُكَوَّناتِهِ، وسَيَكْشِفُ لكَ في تِلْكَ الدَّارِ عَنْ كَمالِ ذَاتِهِ.

يعني: أمرك مولاك ـ أيها المريد ـ في هذه الدار الدنيا بالنظر في مكوّناته ـ بتشديد الواو المفتوحة ـ أي أكوانه، لتراه بنور بصيرتك ظاهراً فيها من وراء حجاب هو هي، وسيكشف لك مع عامة المؤمنين في تلك الدار الآخرة عن كمال ذاته، فتراه بعين البصر. فإن رؤيته تعالى من الأمر الجائز. كما قال اللقاني[٢]:

---

(١) وفس نسخة: استوحش.

(٢) هو: إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني، أبو الإمداد، برهان الدين: فاضل متصوف مصري =

ومنـه أنْ يُنْظَرَ بالأبصار[1] لكنْ بلا كيفٍ ولا انحصارِ
للمؤمنينَ إذْ بجائزْ عُلِّقَتْ هذا وللمختارِ دنيا ثَبَتَتْ[2]

(١١٧) عَلِمَ مِنْكَ أنَّكَ لا تَصْبِرُ عَنْهُ، فأشْهَدَكَ ما بَرَزَ مِنْهُ.

أي علم منك ـ أيها المحب ـ أنك لا تصبر عن مشاهدته كما هو شأن المحب مع محبوبه، فأشهدك ما برز منه من الأكوان رحمة بك؛ لتراه فيها بعين بصيرتك، لكون رؤيتك له في هذه الدار من غير حجاب لا تتصور.

(١١٨) لَمَّا عَلِمَ الحقُّ منكَ وجودَ الملَلِ لَوَّنَ لكَ الطاعاتِ، وعلم ما فيك مِنْ وُجودِ الشَّرَهِ فَحَجَرَها عليكَ في بعضِ الأوقاتِ؛ ليكونَ هَمُّكَ إقامةَ الصَّلاةِ لا وُجودَ الصَّلاةِ، فما كُلُّ مُصلٍّ مُقيمٌ.

أي لما علم الحقُّ سبحانه منك ـ أيها المريد ـ وجودَ الملل؛ أي السآمة المؤدية إلى ترك العمل، لون ـ بتشديد الواو ـ أي نوَّع لك الطاعات: من صلاة وصيام وتسبيح وتهليل ونحو ذلك، رحمةً بك وتسهيلاً عليك، فإنك إذا سئمت من نوع منها انتقلت إلى غيره. وعلم ما فيك من وجود الشره ـ بتشديد الشين المعجمة المفتوحة وفتح الراء ـ أي مجاوزة الحد في التسارع إلى العمل المؤدي ذلك إلى وقوع النقص والتقصير فيها. فحجرها بتخفيف الجيم؛ أي منعها عليك

= مالكي. نسبته إلى «لقانة» من البحيرة بمصر. توفي بقرب العقبة عائداً من الحج. (١٠٤١ هـ، ١٦٣١ م). ا هـ «الأعلام» للزركلي (٢١/١).

وقال عنه كحاله في معجمه: هو من علماء الحديث وأصوله، والكلام، والفقه. وهو صاحب جوهرة التوحيد. توفي وهو راجع من الحج، ودفن بالقرب من عقبة إيله. ا هـ «معجم المؤلفين» لكحاله (٢/١) بتصرف.

(١) قال الصاوي في شرح هذا الشطر: أي رؤيتُه سبحانه وتعالى في الآخرة جائزةٌ عقلاً، واجبةٌ شرعاً، لورود الآيات والأحاديث والإجماع على حصولها. ا هـ شرح الصاوي على جوهرة التوحيد.

(٢) وقال أيضاً في شرح هذا الشطر: أي لم تَثْبُتْ في الدنيا (يريد رؤية الله سبحانه وتعالى) إلا لنبينا ﷺ، كما رواه ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقد نفتها السيدة عائشة رضي الله عنها، ولكنَّ ابن عباس رضي الله عنهما مُقَدَّم عليها لأنه مُثْبِتٌ، وهو مقدَّم على النافي. على أنها لم تدرك زمنها. ا هـ شرح الصاوي على جوهرة التوحيد.

في بعض الأوقات، فإن الفرائض يمتنع فعلها في غير أوقـاتها، والنوافل لا ينبغي فعلها في وقت الكراهة. وإنما فعل ذلك ليكون همك إقامة الصلاة؛ أي تعديل أركانها، وتوفير شروطها، وتكميل آدابها ظاهرة وباطنة بقدر الطاقة، لا وجود صورة الصلاة فقط، فما كل مصل مقيم؛ لأنك قد علمت أن المقيم للشيء هو القائم به على وجه الكمال من غير نقص ولا إخلال. فتلوين العبادة وتحجيرها نعمتان على المريد، يزول بهما الملل والشره القاطعان عن حسن طاعة العزيز الحميد. وإنما مَثَّلَ المصنفُ بالصلاة دون سائر العبادات لكثرة وقوع ذلك فيها، أو لكونه أراد أن يذكر شيئاً من فوائدها بقوله:

(١١٩) الصَّلاةُ طُهْرَةٌ للقلوب مِنْ أدْنَاسِ الذنوبِ، واستِفْتَاحُ لبابِ الغُيوبِ.

يعني: أن الصـلاة التامـة المستوفيـة للشروط والآداب المشتملة على الخشوع والخضوع للعزيز الوهاب طُهْرَةٌ؛ أي مُطَهِّرَةٌ للقلوب من الذنوب الشبيهة بالأدناس. قال تعالى: ﴿إن الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عن الفحْشَاءِ والمُنْكَرِ﴾[1]. وفي الحديث: «إنَّما مَثَلُ الصلاةِ كَمَثَلِ نهرٍ عذبٍ يمرُّ بباب أحَدِكُم يقْتَحِمُ فيه كلَّ يومٍ خَمْسَ مرَّاتٍ أتَرَوْنَ ذلك يُبْقي مِنْ دَرَنِه شيئاً»[2]. وقوله: واستفتاح؛ أي طلب فَتْحٍ لبابِ الغيوب، عطفُ مسبَّبٍ على سَببٍ؛ لأن القلوب إذا طهرت وتزكت رفعت عنها الحجب والأستار، فترى ما كان غائباً عنها من المعارف والأسرار.

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٤٥) وتمامها ﴿ اتلُ ما أُوحيَ إليكَ من الكتاب وأقِمِ الصلاةَ إنَّ الصلاةَ تَنْهَىٰ عن الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أكبرُ واللهُ يَعْلَمُ ما تصنَعُونَ ﴾.

(٢) الحديث: رواه بهذا اللفظ مالك في «الموطأ» (١/١٧٤) بلاغاً، وإسناده منقطع، وقد رواه بنحوه البخاري في «صحيحه» (٢/٩)، ومسلم رقم (٦٦٧)، والترمذي رقم (٢٨٧٢)، والنسائي (١/٢٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا». ورواه مسلم رقم (٦٦٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(١٢٠) **الصلاةُ مَحَلُّ المناجاةِ، وَمَعْدِنُ المُصَافَاةِ، تَتَّسِعُ فيها ميادينُ الأسرارِ، وتُشْرِقُ فيها شوارِقُ الأنْوارِ. عَلِمَ وجودَ الضَّعْفِ منكَ فَقَلَّلَ أعْدادَها، وعلم احتياجَكَ إلى فَضْلِهِ فَكَثَّرَ أمْدادَها.**

يعني: أن الصلاة هي محل مناجاة العبد لربه بتلاوة كلامه والثناء عليه، ومعدن المصافاة معه بتوجهه بكليته إليه، وبقدر إقبال العبد يكون إقبال الرَّبِّ، وثمرتها إذا كانت على الوجه الأكمل أنها تتسع فيها ميادين الأسرار؛ أي تتسع فيها القلوب الشبيهة بالميادين للفرسان؛ بمعنى أنها تنشرح بتوارد الأسرار؛ أي العلوم والمعارف التي تتسابق إليها كتسابق الفرسان، وهذا يتسبب عن كونها تشرق؛ أي تطلع فيها شوارق الأنوار؛ أي الأنوار الشبيهة بالكواكب الشارقة. فإنَّ الأنوار إذا أشرقت في القلوب انشرحت لما يرد عليها من العلوم والمعارف. وهذه العبارات الست التي هي من فوائد الصلاة معانيها متقاربة، أتى بها لتكون كالدليل لما قاله: من أن المأمور به إنما هو إقامة الصلاة لا وجودها[١]. فإن الصلاة المعتبرة هي صلاة الخاشعين لا صلاة الغافلين. فإن الله تعالى يقول في كتابه المكنون: ﴿ فَوَيْلٌ للمصلِّين الذين هُمْ عَنْ صلاتِهم ساهُونَ ﴾[٢]. ثم قال: علم وجود الضعف منك ـ أيها العبد ـ فقلل أعدادها؛ بجعل الخمسين خمسة، وعَلِمَ احتياجك إلى فضله وكرمه فكثَّر أمدادها ـ بفتح الهمزة جمع مدد ـ أي ثوابها وأسرارها، فجعلها خمساً في الفعل وخمسين في الأجر. فاحمده على ما أنعم، واشكره على ما تفضل وتكرم.

(١٢١) **مَتَى طَلَبْتَ عِوَضاً على عملٍ طُولِبْتَ بُوجودِ الصِّدْقِ فيه، وَيَكْفي المُريبَ وِجْدانُ السَّلامَةِ.**

أي متى طلبت ـ أيها المريد ـ من مولاك عوضاً؛ أي ثواباً على عمل عملته كما هو شأن التجار، طولبت منه بوجود الصدق؛ أي الإخلاص فيه من شهود

(١) وذلك في الحكمة (١١٨).
(٢) سورة الماعون: الآية (٤ ـ ٥).

الأغيار، فإن الجزاء إنما يكون على كامل ولا كمال عندك إذ ذاك، فإنك إنما عملت لحظ نفسك لا لوجه مولاك، فصرت كأجير السوء إن لم يأخذ الأجرة لم يعمل. ويكفي المريبَ؛ أي المرتاب، في كون مولاه يعطيه الأجر وإن لم يقصده بعمله وِجْدَانُ السلامة من العقاب؛ أي يكفيه أن الله لم يعاقبه على هذا القصد القبيح. وقد كرر المصنف هذا المعنى اهتماماً بشأنه فقال:

(١٢٢) لا تَطْلُبْ عِوَضاً على عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فاعِلاً، يَكْفي مِنَ الجَزَاءِ لك على العملِ أنْ كانَ لهُ قابلاً.

أي لا تطلب ـ أيها المريد ـ جزاءً على عمل لست له فاعلاً في الحقيقة، فإن الله يقول في كتابه المكنون: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾[1]. وإذا كان مولاك هو الفاعل في الحقيقة، وجعلك محلاً لظهور فعله تفضلاً منه، فكيف تطلب جزاءً على غير فعلك. يكفي من الجزاء لك على العمل الذي هو لك بطريق المجاز أَنْ كان ـ بفتح الهمزة ـ؛ أي كَوْنُهُ له قابلاً، ولم يؤاخذْكَ بعدم الصِّدْقِ فيه مِنْ حيثُ إنه مِنْ كَسْبِكَ.

(١٢٣) إذا أرَادَ أنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عليكَ، خَلَقَ ونَسَبَ إليكَ.

أي إذا أراد الله سبحانه أنْ يظهر فضله وإحسانه عليك ـ أيها المريد ـ خلق العمل الصالح فيك ونسبه إليك على ألسنة العبيد؛ بأن يطلق ألسنتهم بأنك مطيع. فينبغي لك أنْ تشهد هذا الفضل العظيم، وتستحي[2] من مولاك الكريم، لتتأدب بقول سهل بن عبدالله[3] رضي الله عنه: إذا عمل العبد حسنة وقال: يا رب، أنت بفضلك استعملت، وأنت أعنت، وأنت سهلت. شكر اللهُ تعالى له ذلك، وقال له: يا عبدي، بل أنت أطعت، وأنت تقربت. وإذا نظر إلى نفسه

---

(١) سورة الصافات: الآية (٩٦). انظر ما كُتِبَ حول هذه الآية الكريمة في تعليق الحكمة (٥٨).
(٢) انظر التعليق في الحكمة (٢١).
(٣) انظر ترجمته في تعليق الحكمة رقم (٢٠).

وقال: أنا عملت، وأنا أطعت، وأنا تقربت. أعرض الله تعالى عنه، وقال: يا عبدي، أنا وفقت، وأنا أعنت، وأنا سهلت. وإذا عمل سيئة وقال: يا رب، أنت قدرت، وأنت قضيت، وأنت حكمت. غضب المولى عليه، وقال له: يا عبدي، بل أنت أسأت، وأنت جهلت، وأنت عصيت. وإذا قال: يا رب، أنا ظلمت، وأنا أسأت، وأنا جهلت. أقبل المولى عليه، وقال: يا عبدي، أنا قضيت، وأنا قدرت، وقد غفرت وحَلُمْتُ[1] وسترتُ.

(١٢٤) لا نِهَايَةَ لمذامِّكَ إنْ أرْجَعَكَ إلَيْكَ، ولا تَفْرُغُ مدائِحُكَ إنْ أظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ.

أي لا نهاية لما تُذَمُّ به ـ أيها المريد ـ من القبائح إن أرجعك مولاك إلى نفسك، وخَلَّى بينك وبينها ـ فإن النفس أمارة بالسوء ـ وذلك من علامات الطرد والإبعاد. ولا تفرغ؛ أي لا تنتهي مدائحك؛ أي محاسنك التي تُمدح بها، إن أظهر جوده عليك، ونصرك على نفسك، فتكون ممن رحمه واجتباه، ووفقه لما يحبه ويرضاه.

(١٢٥) كُنْ بأوْصَافِ ربُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقاً، وبأوْصافِ عُبودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقاً.

أي كن ـ أيها المريد ـ متعلقاً بأوصاف ربوبيته تعالى من غنى وعزٍ وقوةٍ وعلم ونحو ذلك؛ بأن تشاهد أنَّ هذه الأوصاف إنما هي لمولاك فقط، وإذا وجدت في غيره فهي عارية منه تعالى، ولا تَشْهَدُ هذا المشهد إلا إذا تحققتَ بأوصاف عبوديتك من الفقر والذل والعجز والجهل ونحو ذلك. فإذا تحققتَ بما هو لك، وتعلَّقَتْ آمالُكَ بما هو له، أمدك بأوصافه، فتكون غنياً بالله، عزيزاً بالله، قادراً بالله، عالماً بالله إلى غير ذلك. كما سيقول المصنف: تحقق بأوصافك يُمِدُّكَ بأوصافه[2]. ثم ذَكَرَ ما هو كالدليل لهذه الحكمة بقوله:

---

(١) حَلُم؛ بالضم، حِلْماً؛ بالكسر؛ صَفَح وسَتَر، فهو حليم... اهـ المصباح المنير.

(٢) وذلك في الحكمة رقم (١٧٨).

(١٢٦) مَنَعَك أنْ تَدَّعِيَ ما ليس لكَ مِمَّا للمَخْلُوقينَ، أفَيُبيحُ لكَ أنْ تدَّعيَ وَصْفَه وهو ربُّ العالمينَ؟

أي حَرَّمَ عليكَ مولاكَ أنْ تدعي شيئاً ليس لك مما هو للمخلوقين من الأموال، أفيبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين ذو العزة والجلال. فإذا ادعيت أنك غني أو عزيز أو قوي أو عظيم أو عالم كان ذلك من أكبر معاصي القلب؛ لما في ذلك من مشاركة المربوب للرب، ولا شيءَ عند العارفين أقبحُ من وجوب الشِّركَةِ في قلب العبد بادعاء شيء من أوصاف رب العالمين. وفي الحديث القدسي: «الكِبْرياءُ رِدَائي والعَظَمَةُ إزَاري فَمَنْ نازَعَني واحدةً منهما أَلْقَيْتُهُ في النارِ»[1]. وفي الحديث النبوي: «لا أحَدَ أغْيَرُ مِنَ اللهِ تعالىٰ»[2]. ومعنى الغَيْرَةِ في حقه سبحانه أنْ لا يرضى بمشاركة غيره له فيما اختص به من صفات الربوبية، وفيما هو حَقٌّ له من الأعمال الدينية. وهذا المعنى الذي ضمَّنه

---

(١) الحديث: رواه مسلم رقم (٢٦٢٠) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنهما ـ بلفظ: «العز إزاره والكبرياء رداءه، فمن ينازعني عذبته» والضمير يعود إلى الله تعالىٰ، والتقدير قال الله تعالى: «العـز ردائـي». ورواه أحمد في «المسند» (٢/٣٧٦)، وأبو داود رقم (٤٠٩٠)، وابن ماجه رقم (٤١٧٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»، ورواه ابن ماجه رقم (٤١٧٥)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٤٩)، و«موارد الظمآن» من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ورواه الحاكم (١/٦١) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وهو حديث صحيح.

(٢) الحديث: رواه البخاري (٨/٢٢٣)، ومسلم رقم (٢٧٦٠)، والترمذي رقم (٣٥٢٠)، وأحمد في «المسند» (١/٣٨١) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ورواه البخاري (٩/٢٨١)، ومسلم رقم (٢٧٦٢)، وأحمد في المسند (١/٣٨١، ٤٢٦، ٤٣٦) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله تعالىٰ، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى، ولذلك مدح نفسه» وزاد مسلم «وليس أحد أحب إليه العذر من الله تعالى، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل»، وأحمد في «المسند» (٦/٣٤٨) من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

المؤلف هذه الحكمة هو الغرض الأقصى للسادة الصوفية، فإنَّ كل ما صَنَّفُوه وسيلةٌ لهذا المقصد الشريف الذي هو موت النفس، وإسقاط حظوظها بالكلية، وحينئذ يتصف العبد بصدق العبدوية والإخلاص للربوبية.

(١٢٧) كَيْفَ تُخْرَقُ لكَ العَوائِدُ؟ وأنْتَ لَمْ تَخْرِقْ من نَفْسِكَ العَوائِدَ.

أي لا تطمع ـ أيها المريد ـ في خَرْقِ العوائد لك؛ بأنْ تظهر على يدك الكرامات، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد التي اعتدتها من سيء الأحوال، والاسترسالِ مع الشهوات. فإنه قد جرت عادة الله بأن لا تخرق العوائد إلا لمن فني عن حظوظه، ولم يكن لها بقاصد. فإن لم تصل إلى هذا المقام، لم تكن من أهلها والسلام. فإنْ ظهر على يدك صورة كرامة، فربما كان ذلك استدراجاً، فخف من ظهورها على يدك، واتخذ التباعد عن الركون إليها منهاجاً.

(١٢٨) ما الشَّأْنُ وُجودَ الطَّلَبِ، إنما الشَّأْنُ أنْ تُرْزَقَ حُسْنَ الأدَبِ.

أي ليس الشأنُ المعتبر عند المحققين وجودَ الطلب لحوائجك من مولاك، وإنما الشأن المعتبر أنْ تُرزق حسنَ الأدب مع مَنْ خلقك وسوَّاكَ؛ بتفويض الأمر إليه، والرضا بما قسم، والاشتغالِ بذكره، والاعتمادِ عليه. لما في الحديث: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[1].

---

(١) الحديث: رواه الترمذي رقم (٢٩٢٧)، والدارمي (٢/٤٤١) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «من شغله قراءة القرآن عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» وسنده ضعيف. ومع ذلك فقد قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. ولعله حسنه بشاهد من حديث عبدالله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ عند الطبراني. وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١/١١٤): أخرجه الطبراني بسند لين. وقال الحافظ العراقي في تخريجه من أحاديث «الإحياء»: أخرجه البخاري في «التاريخ»، والبزار في «المسند» والبيهقي في «شعب الإيمان» من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وفيه صفوان بن أبي الصهباء (في الإحياء: ابن أبي الصفا. وهو خطأ). فلعل من حسنه كالترمذي وغيره، إنما حسنه بمثل هذه الشواهد، والله أعلم.

(١٢٩) ما طَلَبَ لك شيءٌ مثلُ الاضْطِرارِ، ولا أَسْرَعَ بالمواهِبِ إليكَ مِثْلُ الذِّلَّةِ والافْتِقارِ.

أي ما طَلَبَ لك ـ أيها المريد ـ الحوائجَ من الله تعالى شيءٌ مثلُ الاضطرار إليه؛ إذ به تقع الإجابة لقوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ المضْطَرَّ إذا دَعَاهُ﴾[١]. فقوله طلب مبني للفاعل الذي هو شيء فيكون شَبَّهَ الاضطرار بشخصٍ طالبٍ. ويحتمل بناؤه للمفعول وشيء نائب فاعل على معنى أنَّ أحْسَنَ مطلوبٍ يطلبه العبد الاضطرارُ؛ وهو أنْ لا يتوهم مِنْ نَفْسِهِ حولاً ولا قوة، ولا يرى لنفسه سبباً من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه، بل يكون بمنزلة الغريق في البحر، أو التائه في التيه القفر، لا يرى لغياثه إلا مولاه، ولا يرجو لنجاته من هلكته أحداً سواه. والذِّلَّةُ والافتقار أمران موجبان لإسراع مواهب الحق تعالى إلى العبد المتصف بهما، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وأَنْتُمْ أذِلَّةٌ﴾[٢]. فذلتهم أوجبت عزتهم ونصرتهم، كما قيل في هذا المعنى:

وإذا تـذلَّلَتِ الـرِّقَـابُ تَـقَـرُّبـاً ... مِنْهـا إليـكَ فعـزُّهـا فـي ذُلِّهـا

وما ألطف قولَ بعضهم:

حَيْثُ أَسْلَمْتَني إلى الـذَّالِ والـلاّ ... مِ تَـلَقَّيْـتَـنـي بـعَـيْـن وزاي

وافهم ههنا قوله ﷺ: «لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة»[٣].

---

(١) سورة النمل: الآية (٦٢) وتمامها ﴿أَمَّن يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ ويَكْشِفُ السُّوءَ ويَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأرْضِ أَإِلَهٌ مع اللهِ قليلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾.

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٢٣) وتمامها ﴿ولقد نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وأَنْتُمْ أذِلَّةٌ فاتَّقوا اللهَ لعلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

(٣) الحديث: رواه البخاري في عدة مواطن، ومسلم رقم (٢٧٠٤)، وأبو داود رقم (١٥٢٦)، والترمذي رقم (٣٤٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ ورواه الترمذي رقم (٣٥٩٦) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وذكره الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٨/١٠) من رواية الطبراني عن معاوية بن حيدة ـ رضي الله عنه ـ.

(١٣٠) لو أَنَّكَ لا تَصِلُ إليهِ إلاَّ بعدَ فناءِ مَساويكَ، ومَحْوِ دَعاويكَ، لم تصلْ إليه أبَدَاً. ولكنْ إذا أرادَ أنْ يوصِلَكَ إلَيْهِ غَطَّى[1] وَصْفَكَ بوَصْفِهِ ونَعَتَكَ بنَعْتِهِ فَوَصَلَكَ إلَيْهِ بما مِنْه إليكَ لا بما مِنْكَ إليهِ.

أي لو أنك لا تصل إلى الله تعالى ـ أيها المريد ـ إلا بعد فناء مساويك؛ أي عيوبك، ومحو دعاويك التي تدعيها من نسبة الأعمال إلى نفسك، لم تصل إليه أبداً؛ لأن المساوي والدعاوي طبعك، ولو لم يكن إلا إرادتك تحصيلَ هذا الغرض بنفسك لكان كافياً، فلو تأملت وجدت محاسنَك كلَّها مساويَ، ولو كنت رأس المخلصين، وأحوالَكَ كلَّها دعاويَ، ولو كنت أصدق الصادقين. ﴿ولولا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُه ما زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أبَداً﴾[2]. ولذا قال أبو العباس المرسي[3]: لن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله تعالى؛ يعني انقطاع أدب لا انقطاع ملل. وقوله: غطى وصفك بوصفه؛ أي أظهر لك من صفاته السنية ما تغيب به عن صفاتك البشرية، فتكون في مقام الحب الذي قال في صاحبه: «فإذا أحببتُه كنتُ سمعَهَ الذي يَسْمَعُ به، وبصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويدَهُ التي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ التي يمشي بها»[4]. وصاحب هذا المقام لا تكون له إرادة مع مولاه؛ لأنه ما وصل إلى الله بما مِنَ الله. ﴿ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يشاءُ واللهُ ذو الفَضْلِ العَظِيم﴾[5].

---

(١) وفي نسخة: ستر وصفك بوصفه، وغطى نعتك بنعته، فوصلك إليه....

(٢) سورة النور: الآية (٢١) وتمامها ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تتَّبعوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فإنَّهُ يَأْمُرُ بالفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ ولولا فَضْلُ الله عليكُمْ ورَحْمُتُه ما زكَى مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ أبَدَاً ولكنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يشاءُ واللهُ سميعٌ عليمٌ﴾.

(٣) انظر ترجمته في تعليق الحكمة رقم (٩٦).

(٤) الحديث: تقدم تخريجه في تعليق الحكمة رقم (٤٧). وقد رواه البخاري في «صحيحه» (٢٩٣/١١) في الرقاق، باب التواضع من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وأوله: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب...» وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده.

(٥) سورة الجمعة: الآية (٤).

(١٣١) لَوْلا جَمِيلُ سِتْرِهِ لمْ يَكُنْ عَمَلٌ أَهْلاً للقَبولِ.

أي لولا ستره تعالى الجميل لم يكن عمل من الأعمال أهلاً للقبول؛ لفقد شرطه من الإخلاص. فإن العبد مبتلى بنظره إلى نفسه، وفرحه بعمله من حيث نسبته إليه، وشهود حوله وقوته عليه، وهذا من الشرك الخفي القادح في الإخلاص. فينبغي للمريد أن يعتمد على فضل الله وكرمه، لا على اجتهاده وعمله.

(١٣٢) أنْتَ إلى حِلْمِهِ إذا أطَعْتَهُ أَحْوَجُ مِنْكَ إلى حِلْمِهِ إذا عَصَيْتَهُ.

أي أنت - أيها العبد - إلى حلمه تعالى في حال عملك بطاعته، أحوج منك إلى حلمه في حال تلبسك بمعصيته؛ لأن طاعتك ربما تكون مصحوبة بنظرك إلى نفسك واستعظام عملك، وذلك يوجب الخِسَّةَ وسقوط المنزلة عند ربك. وأما معصيتك فقد تكون مصحوبةً باضطرار وافتقار، مقرونةً بذلة واحتقار، وذلك يوجب الشرف والرفعة عنده سبحانه. وفي هذا زيادة تحذير من رؤية استحقاق الوصول بالأعمال، فإنه جهل مركَّبٌ لا يسلم منه إلا كُمَّلُ الرجال.

(١٣٣) السِّتْرُ على قِسْمينِ: سِتْرٍ عن المعْصِيَةِ، وسِتْرٍ فيها. فالعامَّةُ يَطْلُبُونَ من اللهِ تعالى السِّتْرَ فيها خَشْيَةَ سُقُوطِ مَرْتَبَتِهِم عِنْدَ الخَلْقِ، والخاصَّةُ يَطْلُبُونَ مِنَ اللهِ السِّتْرَ عنها خَشْيَةَ سُقُوطِهِمْ منْ نَظَرِ المَلِكِ الحَقِّ.

يعني: أن العامة يطلبون الستر في المعصية خوف اطلاع الناس عليهم فهم ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ولا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وهُوَ مَعَهُمْ﴾[1]. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعْيُنِ وما تُخْفي الصُّدُورُ﴾[2]. هو الرجل يكون في القوم فتمر به المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها، فإذا رأى من القوم غفلة

(١) سورة النساء: الآية (١٠٨) وتمامها ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ولا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وهُوَ مَعَهُمْ إذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضَى من القولِ وكانَ اللهُ بما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾.

(٢) سورة غافر: الآية (١٩).

لحظ إليها. وهذا شأن المرائين الذين يَسْتَخِفُّونَ بنظر الجبَّارِ، ويهابون الناس أن يطلعوا عليهم فيما يرتكبونه من الأوزار. وأما الخاصة فهم يطلبون من الله الستر عنها؛ بأن يجعل بينهم وبينها حاجباً، حتى لا تخطر بقلوبهم خشية سقوطهم من نظر الملك الحق. وإلى هذا المعنى أشار أبو الحسن الشاذلي[1] في دعائه بقوله: اللهم إنا نسألك التوبة ودوامَها، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها، وذكِّرْنا بالخوف منك قبل هُجومِ خطراتِها، واحملنا على النجاة منها ومِنَ التَفَكُّر في طرائقها.

(١٣٤) مَنْ أكْرَمَكَ فإنَّما أكْرَمَ فيكَ جَمِيلَ سِتْرِهِ، فالحَمْدُ لمنْ سَتَرَكَ، ليس الحَمْدُ لمنْ أكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ.

أي مَنْ أكرمك من العباد بعطاء أو محبة، فإنما أكرم فيك جميل ستره تعالى؛ أي ستره الجميل عليك، فإنه لولا جميل ستره ما نظروا بعين الرضا إليك، بل لو نظروا إلى ما فيك من العيوب لاستقذروك ونفروا منك وطرحوك. فلا تبعَثْكَ رؤيةُ إكرام الخلق لك لجهلهم بعيبك على حمدهم على ذلك، دون حمد ربك، فتضع الحمد في غير موضعه، فإن الحمد لا ينبغي أن يكون إلا لمن سترك، ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك. وإنما تحمده من حيث إجراءُ الخير على يديه فقط، لا من حيث إنه المُكْرِمُ حقيقةً، إذ ليس ذلك إلا الله. قال تعالى: ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[2].

(١٣٥) ما صَحِبَكَ إلاَّ مَنْ صَحِبَكَ وهو بعيْبِكَ عَلِيمٌ، وليسَ ذٰلِكَ إلاَّ مَوْلاكَ الكَريم. خَيْرُ مَنْ تَصْحَبُ مَنْ يَطْلُبُكَ[3] لا لشَيْءٍ يَعُودُ مِنْكَ إلَيْهِ.

يعني: ليس الصاحب الحقيقي إلا مَنْ صَحِبَكَ وأقبلَ عليك بإحسانه

---

(١) انظر ترجمته في تعليق الحكمة رقم (١٥).

(٢) سورة النحل: الآية (٥٣) وتمامها ﴿ وما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ الله ثم إذا مَسَّكُمُ الضُّرُ فإليه تَجْأرُونَ ﴾.

(٣) وفي نسخة: (مَنْ يطلبك لكَ لا لشيء. . . .) وهو الأوجه.

العميم مع علمه بعيبك، وليس ذلك إلا مولاك الكريم. وخير صاحب لك مَنْ يطلبك، ويعتني بك، لا لشيء يعود منك إليه، وليس ذلك إلا مولاك الحليم، فاجعل توكلك عليه. ومقصودُه الحث على مجانبة الخلائق، والرضا بصحبة المحسن الخالق. كما قال بعضهم:

خُذْ عن النَّاسِ جانبا وارضَ بالله صاحبا
قلِّبِ النَّاسَ كيفَ شئْتَ تجدْهُمْ عَقاربا

نَعَمْ: صحبة من يدل على الله أمر محمود، من حيث كونُه يقرب العبد إلى مولاه.

(١٣٦) لو أشْرَقَ لَكَ نورُ اليَقِينِ لرأيتَ الآخرَة أقْرَبَ إليكَ مِنْ أنْ تَرْحَلَ إليهاَ، ولرأيتَ محاسِنَ الدنيا قَدْ ظَهَرَتْ كَسْفَةُ الفَناءِ علَيْهاَ.

أي لو أشرق لك ـ أيها المريد ـ نورُ اليقين الذي به تُحِقُّ الحقَّ وتبطل الباطل، لرأيت الآخرة حاضرة لديك؛ لأنها حق، فتكون أقرب إليك من أن ترحل إليها. ولرأيت؛ أي أبصرت، محاسن الدنيا الحاضرة لديك قد ظهرت كِسفة الفناء عليها؛ أي الفناء الشبيه بالكسفة ـ بكسر الكاف ـ وهي القطعة التي تغطي الشيء، أو بفتحها؛ أي الكسوف والتغير، لأنها باطلة، فيوجب لك هذا النظر اليقيني الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة.

(١٣٧) ما حَجَبَكَ عنِ اللهِ وجودُ مَوْجُودٍ مَعَهُ[١]، ولكنْ حَجَبَكَ عَنْهُ تَوَهُّمُ موْجُودٍ مَعَهُ.

أي ما حجبك ـ أيها المريد ـ المحجوب عن الله تعالى وجودُ موجودٍ من الأكوان الدنيوية أو الأخروية معه، إذ لا وجود في الحقيقة لما سواه. كما قال بعض العارفين:

---

(١) وفي نسخة: ما حجبك عن الله وجود موجود معه، إذ لا شيء معه، ولكن حجبك عنه توهم موجود معه.

اللهَ قُلْ وَذَرِ الوجودَ وما حوى | إنْ كنتَ مُرْتَاداً بلوغَ كمالِ
فالكلُّ دونَ اللهِ إنْ حققْتَهُ | عدمٌ على التفصيلِ والإجمالِ
واعلمْ بأنَّكَ والعوالِمَ كلَّها | لولاه في مَحْوٍ وفي اضمحلالِ
مَنْ لا وجودَ لذاتِهِ من ذاتِهِ | فوجودُهُ لولاه عينُ مُحَالِ
والعارفونَ بربِّهِمْ لم يشهدوا | شيئاً سوى المتكبِّرِ المتعالِ
وَرأوا سواهُ على الحقيقةِ هالكاً | في الحالِ والماضي والاستقبالِ

ولكنْ حجبك عنه تعالى توهم موجود معه؛ أي توهمك أنَّ ما سواه له وجود. والتوهمات باطلة لا حقيقة لها، فلا حاجب لك عن الله تعالى. فإن وجود الآثار كوجود الظلال، فمن شهد ظلية الآثار لم يحصل له عائق عن الله. فإن ظلال الأشجار في الأنهار لا تعوق السفن عن التسيار. ولو كان بينك وبين الله حجاب وجودي، للزم أن يكون أقربَ إليك منه، ولا شيء أقربُ من الله. فالحجاب حينئذ أمر توهمي بلا اشتباه.

(١٣٨) لولا ظُهُورُه في المكوَّناتِ ما وَقَعَ عليها وجودُ إبْصَارٍ. لو[1] ظَهَرَتْ صِفَاتُهُ، اضمحلَّتْ مكوَّنَاتُه.

أي لولا تجليه سبحانه وتعالى من وراء حجاب المكوَّنات؛ أي من وراء حجاب هو هي، ما وقع عليها وجود إبصار؛ أي لما وُجِدَتْ فلا يقع عليها إبصار. ولو تجلى التجلي الحقيقي الذي لا خفاء معه، لاضمحلت وتلاشت بدليل قوله تعالى: ﴿ فلما تجلَّىٰ ربُّهُ للجَبَلِ جَعَلَهُ دَكَّاً وخَرَّ موسىٰ صَعِقاً ﴾[2] كما وضَّحَ ذلك بقوله: لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوَّناتُه؛ لأنه لا ارتباط بين

(١) وفي نسخة: ولو ظهرت.

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٤٣) وتمامها ﴿ ولمَّا جاءَ موسىٰ لميقَاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قال ربِّ أرني أَنْظُرْ إليكَ قال لَنْ تراني ولكِنِ انظُرْ إلى الجَبَلِ فإنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فسوْفَ تَراني فلمَّا تجلَّىٰ ربُّهُ للجبَلِ جَعَلَهُ دَكَّاً وَخَرَّ موسىٰ صَعِقاً فلمَّا أفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إليكَ وأنا أوَّلُ المؤمِنينَ ﴾.

القديم والحادث. فظهوره سبحانه من وراء حجاب المكوَّنات هو الذي أوجب ظهورها.

(١٣٩) أظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ لأنَّه الباطِنُ، وطَوَىٰ وجودَ كُلِّ شيءٍ لأنَّهُ الظاهرُ.

يعني: أنَّ مقتضى اسمه تعالى الباطن أنْ لا يشاركه في البطون شيء، فلذا أظهر كل شيء؛ أي جعل الأشياء كلها ظاهرة، ولا باطن فيها غيرُه. ومقتضى اسمه تعالى الظاهر أنْ لا يشاركه في الظهور شيء، فلذا طوى وجود كل شيء؛ أي لم يجعل لغيره وجوداً من ذاته، بل المكوَّناتُ جميعُها في الحقيقة عدم محض؛ لأنه لا وجود لها إلا من وجوده. فالحق تعالى هو الموجود بكل اعتبار؛ لأنه الظاهر من جهة التعريف، الباطن من جهة التكييف.

(١٤٠) أبَاحَ لكَ أنْ تَنْظُرَ ما في المكوَّناتِ، وما أَذِنَ لكَ أَنْ تَقِفَ مع ذواتِ المكوَّناتِ ﴿ قُلْ انظُرُوا ماذا في السَّمٰواتِ ﴾[١]. فَتَحَ لكَ بابَ الأفْهامِ، ولم يَقُلْ انظروا السَّمٰواتِ؛ لِئَلَّا يدُلَّكَ على وُجودِ الأجْرامِ.

يعني: أمرك الله تعالى أن تنظر ما في المكوَّنات من آثار قدرته وبدائع صنعته؛ لتستدل بذلك على آثار الأسماء والصفات. وما أَذِنَ لك أن تقف مع ذوات المكوَّنات، فإنه سبحانه ما نصب لك الكائنات لتراها، بل لترى فيها مولاها. كما قيل في ذلك:

ما أُبينَتْ لكَ العوالمُ إلا لتراها بعينِ مَنْ لا يَراها
فارْقَ عنها رُقيَّ مَنْ ليس يرضىٰ حالةً دونَ أنْ يَرىٰ مَوْلاها

فقوله سبحانه: ﴿ انظروا ماذا في السموات ﴾[١] بفي الظرفية المُشْعِرَةِ بأنَّ الاعتبار بالمظروف دون الظرف فتح[٢] لك ـ أيها المريد ـ باب الأفهام، فتفهم

---

(١) سورة يونس: الآية (١٠١) وتمامها: ﴿ قُلِ انْظُرُوا ماذا في السَّمٰواتِ والأرْضِ وما تُغْني الآياتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾.

(٢) فاعل (فتح) ضمير مستتر يعود على (فقوله سبحانه...).

أنها موجودة لغيرها لا لذاتها، فتنظر في الأكوان لتصل إلى معرفة الرحمن.

(١٤١) الأَكْوَانُ ثابِتَةٌ بإِثْبَاتِهِ، وَمَمْحُوَّةٌ بأحَدِيَّةِ ذَاتِهِ.

يعني: أنَّ الأكوان من حيث ذاتُها عدم محض، ولم تكن ثابتة إلا بإثباته تعالى وإيجاده لها وظهوره فيها. فالثبوت لها أمر عرضي، وإلا فهي في الحقيقة ممحوة بأحدية ذاته. فمن نظر إلى أحدية ذاته لم يجد للأكوان ثبوتاً، وإنما لها ثبوت عند من نظر إلى الواحدية، لأن الأحدية عند العارفين هي الذات البحت؛ أي الخالصة عن الظهور في المظاهر وهي الأكوان، والواحدية هي الذات الظاهرة في الأكوان، فيكون للأكوان حينئذ ثبوت باعتبار ظهور الحق فيها. ولذا يقولون[١]: الأحديةُ بحر بلا موج، والواحدية بحر مع موج، فإن الحق سبحانه عندهم كالبحر، والأكوان كالأمواج التي يحركها ذلك البحر، فهي ليست عينه ولا غيره. هذا هو توحيد العارفين. وقد كرر المصنف الكلام عليه في هذا الكتاب، وأبرزه في عبارات مختلفة، محاولةً على أن يحق عندك الحق ويبطل الباطل. وقد أفرده بعضهم بالتأليف، وتكلم على وحدة الوجود[٢] بما لا مزيد عليه اهـ شرقاوي.

(١٤٢) الناسُ يَمْدَحُونَكَ لما يظنُّونَه فيكَ، فكنْ أنتَ ذاماً لنفسِكَ لما تَعْلَمُهُ منها.

يعني أن الناس إنما يمدحونك ـ أيها المريد ـ لما يظنونه فيك من الأوصاف

---

(١) وتمام عبارة الشرقاوي في شرح هذه الحكمة هي: ولذا يقولون بلسان الإشارة: الأحديةُ بحرٌ بلا موج والواحدية. . . .

(٢) المراد بوحدة الوجود: أنه لا شيء غير الله سبحانه وجوده ذاتي بل تَفَرَّدَ ربنا جلّ وعلا بذلك. وما شاع على الألسنة من أن الله موجود في كل الوجود تأويله أن نقول: إنه سبحانه مع كل موجود؛ أي لا يغيب عنه موجود، ومعيته معه معناها: تصرفه فيه وتدبيره له، معية معنوية لا معية ظرفية، لا يعلمها إلا هو، كما أن ذاته لا يعلمها إلا هو، وذلك مصداق قوله سبحانه: ﴿وما تكونُ في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذْ تُفيضُونَ فيه وما يَعْزُبُ عن ربك من مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء ولا أصْغَرَ من ذلك ولا أكبَرَ إلا في كتاب مُبين﴾ الآية (٦١) من سورة يونس.

الحميدة، فكن أنت ذاماً لنفسك لما تعلمه منها من العيوب والقبائح العديدة، ولا تغتر على كل حال من الأحوال بمدح المادح، فإنه السم القتال؛ لأن من فرح بمدح نفسه أوقعها في الغرور، وساق إليها ما لا يطاق من أنواع الشرور. بل قل إذا مدحك المادحون: اللهم اجعلنا خيراً مما يظنون، ولا تؤاخذنا بما يقولون واغفر لنا ما لا يعلمون[1].

(١٤٣) المؤمنُ إذا مُدِحَ استحيا من الله أن يُثنى عليه بوصفٍ لا يشهدُهُ من نفسِهِ.

أي: المؤمن الحقيقي إذا مدحه الناس بوصف ليس فيه، عَدَّ ذلك من إحسان الله عليه، واستحيا منه تعالى أنْ يُثنيَ الناسُ عليه بوصف محمود لا يشهده من نفسه، فيرجع على نفسه بالمقت والاستحقار، ويكثر الشكر لربه الذي أظهر له محاسن عند الناس لم يكن له عليها اشتهار، فينال بذلك الشكر المزيد مع سلامته من السكون إلى ثناء العبيد.

(١٤٤) أجهلُ النَّاسِ مَنْ تركَ يقينَ ما عنده لظَنِّ ما عند النَّاسِ.

يعني: أن من ترك يقين ما عنده من عيوب نفسه لظن ما عند الناس؛ أي للظن الذي عند الناس من صلاح حاله، فهو أكثر الناس جهلاً؛ لأنه قدَّمَ الظن على اليقين، وقدَّمَ ما عند غيره على ما يعلمه من نفسه، وهذا من الضلال المبين. وقد حُكي أن بعض الحكماء مدحه بعض العوام فبكى فقال تلميذه: أتبكي وقد مدحك فقال له: إنه لم يمدحني حتى وافق بعضُ خلقي خُلُقَه، فلذلك بكيت. فانظر بعين بصيرتك، فقد نبهك الحكيم العليم.

(١٤٥) إذا أَطْلَقَ الثناءَ عليكَ ولست بأهلٍ، فأثْنِ عليه بما هو أهْلُهُ.

أي إذا أطلق مولاك ألسنة الناس بالثناء عليك، ولست بأهل للثناء؛ لعلمك

---

(١) كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مدح يقول: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون. انظر كتاب «أبو بكر الصديق» لمحمد رضا ص (١٥).

بعيوب نفسك وتقصيرها كما هو شأن المؤمن، فأثن عليه سبحانه بما هو أهله شكراً لنعمة إطلاق الألسن بالثناء عليك، حيث ستر القبيح وأظهر المليح. ولا تغتر بمدح المادحين فتهلك مع الهالكين.

(١٤٦) الزُّهادُ إذا مُدِحوا انقبضوا لشهودِهم الثَّناءَ من الخَلْقِ، والعارفُونَ إذا مُدِحوا انبسطوا لشهودِهم ذلك من المَلِكِ الحقِّ.

يعني: أن الزهاد الذين هم في غيبة عنه تعالى إذا مدحهم المادح انقبضوا خوفاً من الاغترار القاطع لهم عن الله؛ لشهودهم الثناء صادراً من الخلق. والعارفون الحاضرون مع ربهم إذا مدحوا انبسطوا؛ لشهودهم ذلك من الملك الحق؛ لأنهم لا يشاهدون معه غيره، بل يقولون ألسنة الخلق أقلام الحق وهذا محمل قوله ﷺ: «إذا مُدِحَ المؤمنُ في وَجْهِهِ رَبَا الإيمانُ في قَلْبِهِ»[1]. ولذا كان المصنف يمدح شيخه المرسي، فيقع عنده المدح موقعاً عظيماً. وصاحب هذا المقام إذا ذمه أحد لا يجد في نفسه عليه ولا يؤذيه؛ لعدم شهوده الذم صادراً منه.

(١٤٧) متى كنت إذا أُعطِيتَ بسَطَكَ العطاءُ، وإذا مُنِعْتَ قَبَضَكَ المَنْعُ، فاستدِلَّ بذلك على ثبوتِ طُفوليَّتِكَ، وعدمِ صدقِكَ في عبوديَّتِكَ.

أي: متى كنت ـ أيها المريد ـ تجد من نفسك أنك إذا أُعطيت شيئاً مُرَاداً لك بسطك العطاء، وإذا مُنعت منه قبضك المنع، فاستدل بذلك على تطفلك على أهل الله وادعاء ما لهم من المقامات، ولست منهم، فتكون كالطفيلي الذي يدخل مع الأضياف في ضيافتهم ولا يستحق الدخول معهم، واستدل بذلك أيضاً على عدم صدقك في عبوديتك. فإن البسط عند العطاء والقبض عند المنع من

---

(١) الحديث: رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٩٧/٣) من حديث أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ وإسناده ضعيف، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٩/٨) من رواية الطبراني عن أسامة بن زيد، وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: أخرجه الطبراني من حديث أسامة بن زيد بسند ضعيف.

علامات بقاء الحظ للنفس والعمل على نيله، وهو مناقض للعبودية عند العارفين. فإن العارف يستوي عنده كل ما فعله سيده ساءه أم سره.

(١٤٨) إذا وقَعَ منكَ ذنبٌ فلا يكُنْ سبباً ليأْسِكَ مِنْ حُصُولِ الاستقامةِ معَ ربِّكَ، فقد يكون ذلك آخرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عليكَ.

أي إذا وقع منك ـ أيها المريد ـ ذنب على حسب مقامك فلا يكن سبباً مقتضياً ليأسك من حصول الاستقامة؛ أي اعتدال الأحوال في العبودية مع ربك؛ لأن الاستقامة لا يناقضها فعل الذنب فلتةً إذا جرى القدر بذلك، وإنما يناقضها الإصرار عليه والعزم على فعله ثاناً. فالواجب عليك حينئذٍ أن تبادر بالتوبة منه، فإنه قد يكون آخر ذنب قُدِّرَ عليك فتستديم بعده الاستقامة.

(١٤٩) إذا أَرَدْتَ أن يَفْتح لكَ بابَ الرجاءِ فاشهدْ ما منه إليكَ. وإذا أَرَدْتَ أن يفتَح لك بابَ الخوفِ فاشهدْ ما مِنْكَ إليه.

أي إذا أردت ـ أيها المريد ـ أن يفتح الله لك باب الرجاء حتى ترجوه، فاستحضر بقلبك ما هو واصل منه تعالى إليك من الفضل والكرم ومزيد الإحسان الذي لا يحصيه القلم. وإذا أردت أن يفتح لك باب الخوف فاشهد؛ أي استحضر ما هو واصل منك إليه من عظيم المخالفات وارتكاب السيئات. فإذا غلب عليك هذا الحال. اشتد بك الحزن، وبادرت بصالح الأعمال. فالرجاء والخوف حالان ناشئان عن هاتين المشاهدتين، فاعمل بهما ـ أيها المريد ـ لتشرب بالكأسين.

(١٥٠) رُبَّما أفادَكَ في ليلِ القَبْضِ ما لم تَسْتَفِدْهُ في إشراقِ نَهارِ البَسْطِ ﴿لا تَدْرُونَ أيُّهم أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعَاً﴾[1].

أي ربما أفادك مولاك ـ أيها العارف ـ من المعارف والأسرار في حال

---

(١) سورة النساء: من الآية (١١) ﴿. . . آباؤكم وأبناؤكم لا تَدْرُونَ أيُّهم أقربُ لكم نفعاً فريضةً من الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾.

القبض الشبيه بالليل بجامع السكون في كل ما لم تستفده في إشراق البسط الشبيه بالنهار بجامع الانتشار. فإن صاحب البسط يحب نشر ما عنده من الأسرار والمعارف، وربما حصل له الحجب بذلك، بخلاف صاحب القبض. ولذا آثره العارف. ولكن الأولى له أن يكل الأمر إلى مولاه، ويختار ما يختاره له سيده ويرضاه. فإنه لا يدري أيهما أقرب إليه نفعاً، كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة التي وردت في الآباء والأبناء جمعاً.

(١٥١) مطالِعُ الأنوارِ القُلُوبُ والأسرارُ.

يعني: أن مواضع طلوع الأنوار المعنوية وهي نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد إنما هي قلوب العارفين وأسرارهم، فهي كالسماء التي تشرق فيها الكواكب، بل تلك الأنوار المعنوية أشد إشراقاً في الحقيقة من الكواكب الحسية. وقد قال بعض العارفين: إذا كان الله تعالى قد حرس السماء بالكواكب والشهب كي لا يُسترق السمعُ منها، فقلب المؤمن أولى بذلك؛ أي لأنه عرش تجلي الحق كما يشير إليه قوله سبحانه في الحديث القدسي: «ما وسعني أرضي ولا سمائي وإنما وسعني قلب عبدي المؤمن»[١] فتأمل هذا الأمر الأعلى الذي أُعطيه هذا القلب حتى صار لهذه الرتبة أهلاً ومن هنا قال أبو الحسن الشاذلي[٢]: لو كُشِفَ عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض، فما ظنك بنور المؤمن المطيع؟.

(١) الحديث: قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: لم أر له أصلاً. وكذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هو مذكور في الإسرائيليات، وليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ أقول: وكأنه أشار بما في الإسرائيليات إلى ما أخرجه أحمد في الزهد صفحة (٨١) عن وهب بن منبه قال: قال الله تعالى: ﴿ إن السموات والأرض لم تطق أن تحملني، وضقن من أن تسعني ووسعني قلب المؤمن الوادع اللين ﴾ قال السخاوي في «المقاصد الحسنة»: ورأيت بخط الزركشي: سمعت بعض أهل العلم يقول: هذا حديث باطل، وهو من وضع الملاحدة. وانظر الزهد لأحمد بن حنبل ص (١٥٣) فقد جاء فيه أحاديث بهذا المعنى، وهي غير صحيحة.

(٢) انظر ترجمته في تعليق الحكمة رقم (١٥).

(١٥٢) نُورٌ مُسْتَوْدَعٌ فِي الْقُلُوْبِ، مَدَدُهُ مِنَ النُّورِ الْوَارِدِ مِنْ خَزَائِنِ الْغُيُوْبِ.

يَعنيْ أنَّ النورَ على قسمين: نور يكشفُ اللهُ بهِ عنْ آثارهِ كنور الشمس - وَسيأتي في الحكمةِ بعدَ هذهِ - وَنور مسْتودَعٌ في القلوب وَهوَ نورُ اليقينِ الذي أودعَهُ اللهُ في قلوبِ عبادهِ العارفينَ، وَمددُهُ الذي يَسْتَمِدُّ ويتزايدُ منهُ ضياءً إنّما هوَ منَ النورِ الواردِ منْ خزائنِ الغيوبِ، وهوَ نورُ الأوصافِ الأزليةِ. كقولهِ فيما تقدّمَ: أنارَ الظواهرَ بأنوارِ آثارهِ، وأنارَ السرائرَ بأنوارِ أوصافهِ[١]. وكقولهِ هنا:

(١٥٣) نُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ آثَارِهِ. وَنُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ أوْصَافِهِ.

فَالنُّورُ المدرَكُ بالحواسِّ كنورِ الشمسِ والقمرِ يَكْشِفُ لكَ بهِ عنْ آثارهِ وهيَ الأكوانُ، فتستدلُّ بالأثرِ على المؤثِّرِ.

وَأما النورُ الذيْ يكشفُ لكَ بهِ عنْ أوصافهِ، فهوَ المستودَعُ في الْقلوبِ مِنْ نورِ اليقينِ الذيْ يَكْشفُ لكَ بهِ عنْ أوصافهِ الأزليةِ الجماليةِ والجلاليةِ، حتى تراها عَياناً وَلا تحتاجَ معه إلى دليلٍ، فإنّكَ تَشْهدُ بهِ المؤثِّرَ. وَشتَّانَ بينَ النورينِ.

أسألُ الله تعالى أنْ يرزقَنا نورَ اليقينِ بجاهِ سيدِ الكونينِ. وَما ألطفَ قولَ بعضِ العارفينَ:

هذهِ الشَّمسُ قابَلَتْنَا بِنُورٍ ... وَلِشَمْسُ اليقينِ أبْهَرُ نُورا
فَرأيْنَا بِهَذِهِ النُّورَ لَكِنْ ... بِهَاتِيكَ قَدْ رَأَيْنَا الْمُنِيرا

(١٥٤) رُبَّما وَقَفَتِ الْقُلُوبُ مَعَ الأنْوَارِ، كَمَا حُجِبَتِ النُّفُوسُ بِكَثَائِفِ الأغْيَارِ.

أي ربّما وقفتْ عنْ سيرها القلوبُ وهي نورانيةٌ معَ الأنوارِ التي هي لطائفُ الأغيارِ منَ العلومِ وَالأسرارِ الربانيةِ، فتُحْجَبُ بها كما حُجِبَتِ النفوسُ وَهيَ ظلمانيةٌ بكثائفِ الأغْيارِ؛ أي بالأغيارِ الكثيفةِ، كالشَّهْواتِ والعاداتِ الإنسانيةِ. فالأنوارُ حجابٌ نورانيٌ، وَالعاداتُ والشهواتُ حجابٌ ظلمانيٌ، والحقّ وراءَ ذلكَ كلِّهِ. كما قالَ بعضُ العارفينَ:

---

(١) وذلك في الحكمة رقم (١٠٤).

تَقَيَّدْتَ بالأوهام لمَّا تداخلت عَلَيْكَ وَنُورُ الْعَقْلِ أوْرَثَكَ السِّجْنَا
وَهِمْتَ بأنْوَارٍ فَهِمْنَا أُصُولَهَا وَمَنْبَعَهَا مِنْ أيْنَ كَانَ فَمَا هِمْنَا
وَقَدْ تُحْجَبُ الأنْوارُ للعبدِ مِثْلَ مَا يُبْعَدُ مِنْ إظْلَامِ نَفْسٍ حَوَتْ ضِغْنَا

(١٥٥) سَتَرَ أَنْوَارَ السَّرَائِرِ بِكَثَائِفِ الظَّوَاهِرِ؛ إجْلالاً لَهَا أَنْ تُبْتَذَلَ بِوُجُودِ الإظْهَارِ، وَأَنْ يُنَادَى عَلَيْهَا بِلِسَانِ الاشْتِهَارِ.

يعني: أنَّ الله سبحانهُ سترَ أنوارَ قلوبِ أوليائهِ وَهي ما تحققوا بهِ مَن العلوم والمعارفِ بالظواهرِ الكثيفةِ؛ أي الأحوالِ التي يتعاطونَها كالصَّنَائعِ، كما تقدَّمَ في قولهِ: سُبحانَ مَنْ سترَ سرَّ الخُصوصيةِ بظهورِ البشريةِ[١]. وَإنّما سترَ هذهِ الأنوارَ معَ أنَّ من حقِّها الظهورَ التامَّ لأجلِ صونِها عنْ أنْ تُبْتَذَلَ بسببِ وجودِ الإظهارِ لها، أوْ يُنادى عليها بلسانِ الاشتهارِ، فإنَّ في ذلكَ نوعاً مِنَ الاستخفافِ بها. وَلذلكَ ترى أهلَها يَبْخلونَ بها إلّا بالرَّمْزِ وَالإشارةِ؛ أدباً معَ مولاهُمْ، وَصوناً لنفيسِ مَا خَوَّلَهمْ وَأعطاهُمْ.

(١٥٦) سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الَّدليلَ عَلَى أوْلِيَائِهِ إلَّا مِنْ حَيْثُ الَّدليلُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُوْصِلْ إلَيْهِمْ إلَّا مَنْ أرَادَ أنْ يُوصِلَهُ إلَيْهِ.

يعني: أنهُ سبحانهُ كما احتجبَ بالأكوانِ عنِ العقولِ والأبصارِ، سَتَر أولياءَهُ بكثائِفِ الظواهرِ مِنَ الصنائعِ الخسيسَةِ صيانةً لهمْ عنِ الأغيارِ.

وَلا دليلَ على معرفتهِمْ إلَّا العنايةُ الإلـهيةُ التي بها عُرفَتِ الربوبيةُ. كما قالَ بعضُ الأكابرِ[٢]: عَرفْتُ ربِّي بربِّي وَلَوْلَا ربِّي مَا عَرَفْتُ رَبِّي.

فإذا أحبَّكَ اللهُ وَأرادَ أنْ يُعرِّفَكَ بوليٍّ مِنْ أوليائِهِ، طَوَىٰ عنكَ وُجودَ بشريتِهِ،

(١) وذلك في الحكمة رقم (١٠٨).
(٢) القائل هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، قال ذلك عندما سُئِلَ بِمَ عرفتَ ربكَ؟ قال: عرفتُ ربي بربي، ولولا ربي ما عرفتُ ربي، فقيل له: هل يتأتّى لبشر أن يدركه. فقال: العجز عن الإدراك إدراك. اهـ انظر الصاوي شرح الجوهرة في تفسير قول صاحب الجوهرة:
واجزم بأن أولاً مما يجب معرفة وفيه خلف منتصب

وأشهدَكَ وُجودَ خصوصيتِهِ. فإنهُ لم يُوْصِلْ إليهِمْ إلاَّ مَنْ أرادَ أنْ يوصلَهُ إليهِ؛ لأنهمْ أحبَابُهُ، فلا يحبُّ أنْ يجمعَ عليهم إلاّ مَنْ جمَعَ قَلْبَهُ عَلَيْهِ.

(١٥٧) رُبَّمَا أَطْلَعَكَ عَلىٰ غَيْبِ مَلَكُوتِهِ، وَحَجَبَ عَنْكَ الاسْتِشْرَافَ عَلىٰ أَسْرَارِ الْعِبَادِ.

أيْ ربما أطلعكَ مولاكَ ـ أيُّها المريدُ ـ على ملكوتهِ الغائبِ عنكَ كالجنَّةِ وَالنارِ والعرْشِ والكرسيِّ وَغيرِ ذَلِكَ، وَحجبَ عنكَ الاستشرافَ؛ أي الاطلاعَ على أسرارِ العبادِ وما في قلوبهِمْ مِنْ خيرٍ أوْ شَرٍ لُطْفَاً منهُ تعالى بكَ، فإنَّكَ رُبَّما اطَّلعْتَ عَلى مَعْصِيَةٍ فبادَرْتَ بِمُعَاقَبةِ صاحبِهَا وعدَمِ رَحْمتِهِ، فتقع في الفتنةِ؛ أي العُجْبِ على النَّاسِ بعملِكَ، فيكونُ ذلكَ سبباً لجرِّ الوَبَالِ؛ أي الهلاكِ إليكَ. كما قالَ المصنفُ:

(١٥٨) مَن اطَّلَعَ عَلَىٰ أَسْرَارِ العِبَادِ، وَلَمْ يَتَخَلَّقْ بِالَّرحْمَةِ الإِلَٰهِيَّةِ، كَانَ اطِّلاَعُهُ فِتْنَةً عَلَيْهِ، وَسَبَباً لِجَرِّ الْوَبَالِ إِلَيْهِ.

وَفي الحديثِ المسلسلِ[1] بالأوليةِ: «الّراحِمُوْنَ يَرْحَمْهُمُ الَّرحْمَنُ تَباركَ وَتَعالى. ارْحَمُوا مَنْ في الأرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاْءِ»[2].

(١٥٩) حَظُّ النَّفْسِ فِي الْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ، وَحَظُّهَا فِي الطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِيٌّ، وَمُدَاْوَاْةُ مَا يَخْفَىٰ صَعْبٌ عِلاَجُهُ.

يعني: أنَّ النفسَ مِنْ شأنِها أنْ تَطلُبَ مَا فيهِ حظٌّ لَها، غيرَ أنَّ حظَّها في

(١) التسلسل من نعوت الأسانيد، وهو عبارة عن تتابع رجال الإسناد وتواردهم فيه واحداً بعد واحد على صفة أو حالة واحدة ا هـ «مقدمة ابن الصلاح» (١٣٨).

(٢) الحديث: رواه أحمد في «المسند» (٢/١٦٠)، وأبو داود رقم (٤٩٤١)، والترمذي رقم (١٩٢٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/١٥٩) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. ورواه الحاكم مختصراً في «المستدرك» (٤/٢٤٨) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال المناوي في «فيض القدير»: قيل: وذا أول حديث روي مسلسلاً.

المعصيةِ كالزِّنَا وشُرْبِ الخمرِ ظاهرٌ جَليٌّ، وَحظها في الطَّاعةِ باطنٌ خَفِيٌّ؛ لأنَّ ظاهرَها في الطاعةِ التقربُ إلى اللهِ، وفي الباطن ليسَ لها حَظٌ إلّا إقبالُ الناسِ والاشتهارُ بالصَّلاحِ بينهمْ، ولا يظهرُ ذلكَ إلّا بعدَ التفتيشِ على دسَائِسِهَا، وَهَذا هوَ الداءُ العُضَالُ الخفيُّ. وَمُدَاواةُ ما يَخْفى صَعْبٌ علاجُهُ؛ لأنهُ يحتاجُ إلى دقةِ إدراكٍ. وَلذا كانتْ أهلُ البَصَائرِ يتَّهِمُونَ نفوسَهمْ إذا مالتْ إلى عبادةٍ منَ العباداتِ، فإذا رَأوْا فيها حَظاً لها تركوهَا. كما وقعَ لبعضهم: أنّهُ حدَّثَتْهُ نفْسُهُ بالخروجِ إلى الغزوِ، وأظهرتْ لهُ أنَّ ذلكَ للهِ تعالى. فقالَ: يا ربِّ نَبهِّنْي لمقصدها فإني مُتَّهِمٌ لها. وفتَّشَ فإذا هُوَ لأجلِ أنْ تَسْتَريحَ من تعب مجاهدتِهِ لها، فإنَّهُ كلَّ يومٍ يقتُلها مرات عديدةً بمنعِهَا منْ شهواتِها، فأرادتْ أن تُقْتَلَ مرةً واحدةً فتستريحَ، فتركَ الخروجَ إلى الغزوِ واشْتَغَلَ بما هُوَ فيْهِ.

(١٦٠) رُبَّمَا دَخَلَ الرِّيَاءُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لَا يَنْظُرُ الخَلْقُ إلَيْكَ.

يعني: أن الرياءَ كما يَدْخُلُ في عملكَ ـ أيها المريدُ ـ إذا عملتَهُ بحضرةِ الناسِ وَهوَ الرياءُ الجليُّ، يدخلُ عليكَ إذا عملتَهُ وحدَكَ. وعلامتُهُ أنْ تقصدَ بعملكَ توقيرَ الناسِ لكَ، والمسارَعَةَ إلى قضاءِ حوائِجكَ، وأنْ تَغْضَبَ على منْ قصَّرَ في حقِّكَ الذي تستحقُّهُ عندَ نفسكَ، وربَّما تتوعَدُهُ بمعاجَلةِ العقوبةِ لَهُ مِنَ اللهِ تعالى. فمَنْ شاهدَ منْ نفسِهِ شيئاً منْ هذهِ العلاماتِ، فلْيَعْلَمْ أنهُ مُراءٍ بعملهِ وإنْ أخفاهُ على سائرِ المخلوقاتِ. وَهذا هوَ الرياءُ الخفيُّ الذيْ هوَ أخفى مِنْ دبيبِ النملِ ، وَلا يسلَمُ منهُ إلّا العارفونَ الذينَ غيَّبَ اللهُ نظرَهُمْ عنْ رؤيةِ الخلقِ بما أودَعَهُ في قلوبهمْ منْ نورِ اليقينِ، فلا يَرْجُونَ مِن الْخَلْقِ منفعةً، وَلا يَخْشَوْنَ منهمْ مضرَّةْ. فأعمالُ هؤلاءِ خالصةٌ، وإنْ كانتْ بينَ أظهرِ الناسِ.

قالَ بعضُ العارفينَ: أعزُّ شيءٍ في الدنيا الإخلاصُ، وَكم أجتهدُ في إسقاطِ الرياءِ عنْ قلبي فكأنَّهُ ينبتُ فيهِ على لونٍ آخرَ. فتنبَّهْ لذلكَ، واللهُ يتولّى هُداكَ.

(١٦١) اسْتِشْرَافُكَ أنْ يَعْلَمُ الْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ دَلِيْلٌ عَلَى عَدَمِ صِدْقِكَ فِيْ عُبُوْدِيَّتِكَ.

أيْ تطلُّعُكَ ـ أيُّها المريدُ ـ ومَيلُكَ إلى أنْ يعلَم الخلقُ بخصوصيتكَ التي خصَّكَ اللهُ بها منَ الأعمالِ الصالحةِ ونحوهَا دليلٌ على عدم صِدقِكَ في عبودِيَّتِكَ؛ لأنَّ صِدْقَ العبوديةِ طرحُ الأغيارِ اكتفاءً بعلمِ العزيزِ الغفارِ.

قالَ بعضُ العارفينَ: منْ أحبَّ أنْ يطَّلِعَ الناسُ على عملهِ فهوَ مراءٍ، ومنْ أحبَّ أنْ يطلعَ الناسُ على حالِهِ فهوَ كذَّابٌ. فعلى العبدِ إخفاءُ حالِهِ جهدَهُ، وأنْ يَبلُغَ في كتمانهِ أقصى ما عندَهُ. وهذا بالنسبةِ للمريدينَ، فإنَّ مبنى أمرهم في بدايتهم على الفرارِ منَ الخلقِ، والانفرادِ بشهودِ الملكِ الحقِّ، وإخفاءِ الأعمالِ وكتمانِ الأحوالِ؛ تحقيقاً لسلامةِ قلوبهم، وحُبّاً في إخلاصهم لمعبودِهم. وأمّا إذا تمكَّنَ اليقينُ، وأُيِّدوا بالرسوخِ والتمكينِ، وتحققوا بحقيقةِ الفناءِ، ورُدُّوا إلى وجودِ البقاءِ، فلا بأسَ بإظهارِ الأعمالِ ومحاسنِ الأحوالِ، للاهتداءِ بهديهم والاقتداءِ بفعلهمْ.

ثُمَّ بَيَّنَ الصدْقَ معَ اللهِ في العبوديةِ بقولِهِ:

(١٦٢) غيِّبْ نظَرَ الخَلْقِ إلَيْكَ بنَظَرِ الحَقِّ إلَيْكَ، وَغِبْ عَنْ إقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إقْبَالِهِ عَلَيْكَ.

يعني: إذا أردتَ أنْ تكونَ ـ أيُّها المريدُ ـ صادقاً في العبوديةِ، فغيِّبْ نظرَ الخلقِ إليكَ؛ بأنْ لا يكون لكَ شعورٌ بنظرهم إليكَ، اكتفاءً منكَ بنظرِ اللهِ إليكَ وإقبالِهِ عليكَ، فتغيب أدنى الحالين بأعلاهُما. فإنَّ نظرَ الخلقِ أمرٌ وهميٌّ باطلٌ، ونظر اللهِ وإقباله بُغْيَةُ كلِّ عاقلٍ؛ حيثُ إنَّهم لا يملكونَ ضَراً ولا نَفْعاً ولا خَفْضاً ولا رَفْعاً.

وأمَّا إذا اغترَرْتَ بإقبالهمْ عليكَ قبلَ كمالِكَ، فإنَّهُ يوجِبُ لكَ التصنُّعَ لهمْ ومداهَنَتَهم وَمعاشَرتَهمْ بالنِّفاقِ وَنحوِ ذلكَ.

(١٦٣) مَنْ عَرفَ الحقَّ شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ فَنِيَ بِهِ غَـابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَمَنْ أحبَّهُ لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شَيْئاً.

أيْ مَنْ تحقَّقَ في مَقامِ المعرفةِ باللهِ تعالى شَهِدَهُ في كلِّ شيءٍ؛ لأنَّ العارفَ إذا كانَ في مَقامِ البقاءِ يرى الْخَلقَ والحقَّ، وَيرى الحقَّ ظاهِراً في كلِّ الأشياءِ وقائماً بها، معَ عدمِ غَيْبَتِهِ عنْ نفسِهِ وَحسِّهِ. بخلافِ مَنْ فنِيَ به؛ أيْ مَنْ تحققَ في مَقامِ الفناءِ، فإنَّهُ لا يرى في الوجودِ ظاهِراً إلاّ اللهَ تعالى، وَيغيبُ عنْ كلِّ شيءٍ سواهُ حتَّى عنْ نفسِهِ وحسِّهِ، فلا يكونُ منْهُ على الأشياءِ اعتمادٌ، وَلا لَهُ إليها استِنَادٌ.

وَمَنْ أحبَّهُ تعالى لم يُؤْثِرْ؛ أيْ لم يُقَدِّمْ عليهِ سبحانَهُ في المحبَّةِ شيئاً مِنْ مُراداتِهِ وَشهواتِهِ، فَضْلاً عَنْ غيرِهما من الخَلْقِ؛ لأنَّ حَقيقةَ المحبةِ أخذُ جمالِ المحبوبِ بحبةِ القلبِ، حتى لا يدعَهُ لغيرِهِ في حالٍ مِنَ الأحوالِ. فهذِهِ الأمورُ علاماتُ هذهِ المقاماتِ. فلا تُقْبَلُ ممنْ يدَّعِيْها إلاّ بهذِهِ الشهاداتِ.

(١٦٤) إينمَا حَجَبَ الحَقَّ عَنْكَ شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنْكَ.

يَعْني: أنَّهُ لمّا كانَ الحقُّ أقربَ إلى العبدِ منْ حبلِ الوريدِ، كانتْ شِدَّةُ القربِ حجاباً؛ لأنَّ الحجابَ كما يكونُ بشدةِ البعدِ، يكونُ بشدَّةِ القُرْبِ. فإنَّ اليدَ إذا قَرُبَتْ مِنَ البصرِ والتصَقَتْ بهِ لم يرها.

وَكذلكَ الربُّ لَمْ نرَهُ لإحاطتِهِ بنا إحاطةً تامّةً، وَقُرْبِهِ مِنْا قُرْباً معنوِيّاً.

ثُمَّ أكَّدَ ذَلكَ بقولِهِ:

(١٦٥) إنَّمَا احْتجَبَ لِشِدَّةِ ظُهُوْرِهِ، وَخَفِيَ عَنِ الأبْصَارِ لِعِظَمِ نُورِهِ.

يعني: أنَّ شدةَ ظهورهِ بآياتهِ عينُ خفائِهِ عنِ الأنامِ بذاتِهِ. كالشّمسِ حُجبَتْ بالأنوارِ عنْ أنْ تُدْرِكَها الأبصارُ. فهوَ الباطِنُ الظاهِرُ، كما أنهُ الأولُ الآخِرُ.

والحجابُ في الحقيقةِ إنما هوَ منَ الخلقِ، كضعفِ البصرِ عن مقاومةِ

فَيضَانِ النُّورِ. فإنَّ الظاهرَ لذاتِهِ لا يُحْجَبُ مِنْ ذاتِهِ.

وَأنْشَدوا في هَذا المعنىٰ:

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَلا تَخْفىٰ على أحَدٍ إلّا عَلى أكْمَهٍ لا يُدْرِكُ القَمَرا
لَكنْ بَطَنْتَ بما أظهَرتَ مُحْتَجِباً وَكَيْفَ يُعْرَفُ مَنْ بالعِزَّةِ اشْتُهِرا

(١٦٦) لَا يَكُنْ طَلَبُكَ تَسَبُّباً إلىٰ الْعَطَاْءِ مِنْهُ، فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ. وَلْيَكُنْ طَلَبُكَ لِإظْهَاْرِ الْعُبُوْدِيَّةِ، وَقِيَاْماً بِحُقُوْقِ الرُّبُوْبِيَّةِ.

أي لا تقصدْ بطلبِكَ منَ اللهِ أنْ يكونَ تسبباً؛ أي سبباً موصلاً إلى العطاءِ منهُ تعالى، فيقِلَّ فهمُكَ عنْهُ سبحانَهُ. فإنَّهُ ما جعلَ الحكمةَ في الطلبِ ذلكَ، وإنَّما الحكمةُ إظهارُ العبوديةِ؛ أيْ إظهارُ كونِكَ عبداً فقيراً لا غنى لكَ عنْ سيِّدِكَ وَإنْ أعطاكَ كلَّ مَطْلبٍ. والقيامُ بحقوقِ الرُّبوبيةِ مِنَ التَّذلُّلِ والخُضوعِ. وَلِذا قالَ الشَّاذِليُّ[1]: لا يكنْ هَمُّكَ في دعائِكَ الظَّفَرَ بقضاءِ حَاجتِكَ فتكونَ محجوباً، ولْيَكُنْ همُّكَ مناجاةَ مولاكَ.

ثم علَّلَ كونَ الطلبِ لا يكونُ سبباً للعطاءِ بثلاثِ عللٍ، ينبغي عدُّ كلِّ واحدَةٍ حكمةً في نفسِها. فقالَ:

(١٦٧) كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ اللَّاحِقُ سَبَباً فِي عَطَائِهِ السَّابِقِ؟

أيْ كيفَ يكونُ طلبُكَ فيما لا يَزالُ سبباً في عطائِهِ في الأزلِ؟ فإنَّ تعلُّقَ الإرادةِ في الأزلِ تعلُّقاً تنجيزيّاً قديماً لا يكونُ الطَّلبُ سبباً فيهِ لتأخرِهِ عنهُ، والسَّبَبُ لا بُدَّ من تقدُّمِهِ على المسبَّبِ.

(١٦٨) جَلَّ حُكْمُ الأَزَلِ أَنْ يَنْضَافَ إلىٰ العِلَلِ.

أيْ جلَّ حكمُ اللهِ بحصولِ ما طلبَهُ الداعي في الأزلِ[2] أنْ يَنْضافَ؛ أي يُنْسبَ إلى العِلَلِ كالطَّلبِ. لأنهُ لهُ الإرادةُ المطلقةُ والمشيئَةُ النافذةُ.

---

(١) انظر ترجمته في تعليق الحكمة رقم (١٥).

(٢) قوله (في الأزل) جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من حكم الله.

وَأَمَّا العطاءُ المعلَّقُ على الطلبِ، فالسببُ في الحقيقةِ هُوَ تعلُّقُ الإرادةِ في الأزلِ بأنَّكَ تدعوهُ فيما لا يـزالُ، لا نفسُ الطلبِ المتأخرِ.

(١٦٩) عِنَايَتُهُ فِيْكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ، وَأَيْنَ كُنْتَ حِيْنَ وَاجَهَتْكَ عِنَايَتُهُ، وَقَابَلَتْكَ رِعَايَتُهُ؟ لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ إخْلَاصُ أعْمَالٍ، وَلَا وُجُودُ أحْوَالٍ. بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إلّا مَحْضُ الإِفْضَالِ، وَعَظِيْمُ النَّوالِ.

يعني: أنَّ عنايتَهُ سبحانُهُ بكَ في الأزلِ ـ بمعنى تعلّقِ إرادتِهِ في الأزلِ بإعطائِكَ ما تَطْلُبُهُ ـ كانتْ لا لشيءٍ حصلَ منكَ يقتضي حصولَ تلكَ العنايةِ كالدُّعاءِ؛ لأنكَ لم تكنْ حينَ واجهتكَ عنايتُهُ، وقابلتْكَ رعايتُهُ. وَلَمْ يكنْ في أزلِهِ إخلاصُ أعمالٍ بدنيةٍ، وَلا وجودُ أحوالٍ قلبيةٍ. بلْ لم يكنْ هناكَ إلا مَحْضُ؛ أي خالصُ الإفضالَ، وعظيمُ النَّوالِ؛ أي العطاءُ العظيمُ مِنَ المحسنِ المفضالِ. فليس الدعاءُ سبباً مُؤَثِّراً في المطلوبِ، وإنَّما العبرةُ بما سَبَقَتْ بِهِ إرادةُ علَّامِ الغيوبِ.

وَلِذا قالَ الواسطيُّ[١]: أقسامٌ قُسِمَتْ، وَأحكامٌ أجْرِيَتْ، كيفَ تُسْتَجْلَبُ بحركاتٍ أو تُنالُ بسعاياتٍ؟.

(١٧٠) عَلِمَ أنَّ الْعِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إلى ظُهُورِ سرِّ الْعِنَايَةِ فَقَالَ ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾[٢]، وَعَلِمَ أنَّهُ لَوْ خَلَّاهُمْ وَذَلِكَ لَتَركُوا الْعَمَلَ اعْتِمَاداً عَلَى الأَزَلِ فَقَالَ ﴿ إنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِن الْمُحْسِنِين ﴾[٣].

---

(١) هو: علي بن الحسن بن أحمد الشافعي، أبو الحسن الواسطي: زاهد مات محرماً ببدر. له «خلاصة الإكسير» في نسب الرفاعي. (٦٥٤ ـ ٧٣٣ هـ) (١٢٥٦ ـ ١٣٣٣ م). ا هـ «الأعلام» للزركلي (٥/٨٣).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٠٥) وتمامها ﴿ ما يَوَدُّ الذين كفروا مِنْ أهل الكتاب ولا المشركين أنْ يُنَزَّلَ عليكم مِنْ خيرٍ من ربكم واللهُ يختصُّ برحمتِهِ مَنْ يشاءُ والله ذو الفضْلِ العظيمِ ﴾.

(٣) سورة الأعراف، الآية (٥٦) وتمامها ﴿ ولا تُفْسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعُوهُ خَوْفاً وطَمَعاً إنَّ رحمةَ اللهِ قريبٌ من المحسنين ﴾.

أي علمَ سبحانَهُ أنَّ العبادَ يتشوفونَ ـ بالفاءِ ـ؛ أي يتطلعونَ إلى ظهورِ سرِّ العنايةِ التي مُقْتَضَاها الرحمةُ والولايةُ، فيطلبونَ ذلكَ بالدعاءِ والأعمالِ الصالحةِ، ويعتقدونَ تأثيرَ ذلكَ فيهِ. فقالَ: ﴿ يَختصُّ برحمتهِ من يشاءُ ﴾[1] زجراً لهمْ وقطعاً لطماعيَّتِهم، على حدِّ قولِهِ تعالى: ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[2]، فلا علَّةَ لذلكَ مِنَ العبادِ. وَعلِمَ سبحانَهُ أنَّهُ لو خلاَّهُم؛ أي لو تركهمْ وذلِكَ؛ أيْ وملاحظَتَهُم أنَّها خاصةٌ ببعضِ الناسِ وليستْ عامةً، لتركوا العملَ الذيْ هو مقتضى العبوديةِ اعتماداً منهم على السابقِ في الأزلِ، فقالَ: ﴿ إنَّ رحْمةَ اللهِ قريْبٌ مِنَ الْمحسنين ﴾[3]. فجعلَ الإحسانَ بالأعمالِ الصالحةِ علامةً على العنايةِ الأزليةِ، وإنْ لم يكنْ علَّةً موجبةً لها عند تحقيقِ القضيةِ. فقُمْ بما أدَّبكَ اللهُ بهِ، وإنْ كنْتَ في رَقدَةٍ فانتَبِهْ.

(١٧١) إِلَى الْمَشِيْئَةِ يَسْتَنِدُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلاَ تَسْتَنِدُ هِيَ إِلىٰ شَيْءٍ.

يعنيْ: أنَّ أدبَ التوحيدِ أنْ يعتقدَ الإنسانُ أنَّ كلَّ شيءٍ يستندُ إلى المشيئةِ، فَلا يكونُ شيءٌ إلاّ بمشيئةِ اللهِ تعالى وإرادتِهِ أزلاً. وَليستْ تستندُ هيَ إلى شيءٍ مِن الموجوداتِ لاستحالةِ وجودِ النَّقصِ فيما يَجبُ لهُ الكمالُ.

فإذا تحقَّقَ المريدُ بذلكَ تعلَّقَ بأحكامِ الأزلِ، وطرَحَ الأسبابَ والعِللَ، ولَزِمَ العبوديَّةَ والافتقارَ، وتركَ التدبيرَ والاختيارَ.

---

(١) انظر الحاشية رقم (٢) في الصفحة السابقة.

(٢) سورة الأنعام: الآية (١٢٤) وتمامها مع ما بعدها ﴿ وإذا جاءتْهُم آيةٌ قالوا لن نؤمنَ حتى نُؤْتَى مثل ما أُوتيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أعلمُ حيثُ يجعل رسالتَه سيُصيبُ الذين أجرموا صغارٌ عند الله وعذابٌ شديدٌ بما كانوا يَمْكُرُون * فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يهديَهُ يَشْرَحْ صدرَهُ للإسلام ومَنْ يُرد أن يضلَّهُ يجعلْ صدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كأنما يَصَّعَّدُ في السماء كذلك يجعلُ اللهُ الرِّجْسَ على الذين لا يؤمنونَ ﴾.

(٣) انظر الحاشية رقم (٣) في الصفحة السابقة.

(١٧٢) رُبَّمَا دَلَّهُمُ الأدَبُ عَلىٰ تَرْكِ الطَّلَبِ؛ اعْتِمَاداً عَلىٰ قِسْمَتِهِ؛ وَاشْتَغالاً بِذِكْرِهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ.

أيْ قدْ يكونُ مِنَ الأدبِ تركُ السؤالِ والطلبِ، لمنْ هوَ مستغرقٌ في الأذكارِ، راضٍ بما يجري عليهِ من تصاريفِ الأقدارِ؛ لِمَا في االحديثِ القدسيْ: «مَنْ شَغَلَهُ ذكري عن مسألَتي أعطَيْتُهُ أفضَلَ ما أُعْطي السَّائِلينَ»[١].

كما أنَّهُ قدْ يكونُ مِنَ الأدبِ السؤالُ والطلبُ؛ لِمَا في الحديثِ النَّبويِّ: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادةِ»[٢] فالتحقيقُ أنَّ ذلكَ يختلفُ باختلافِ الأشخاصِ وَالأحوالِ.

ثُمَّ علَّلَ ما ذكرَهُ مِنْ كونِ الأدبِ قدْ يكونُ في تَرْكِ الطلبِ، فقالَ:

(١٧٣) إنَّمَا يُذَكَّرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الإغْفَالُ، وَإنَّمَا يُنَبَّهُ مَنْ يُمْكِنُ مِنْهُ الإهْمَالُ.

أيْ إنما يحْصُلُ التذكيرُ بالطلبِ لمنْ يجوزُ عليهِ الإغفالُ؛ أي السهوُ، وَإنما ينبَّهُ على المرادِ منهُ من يمكنُ منهُ الإهمالُ. وكلٌّ منَ الإغفالِ والإهمالِ مستحيلٌ على ذِي العزَّةِ والجلالِ، فلذا كانَ تركُ الطلبِ عندَ بعضِ العارفينَ أدباً.

وقَدْ سُئِلَ الواسطيُّ[٣] رضيَ اللهُ عنهُ أنْ يدعوَ فقال: أخشىٰ إنْ دعوتُ أنْ

---

(١) انظر تخريجه في تعليق الحكمة رقم (١٢٨).

(٢) الحديث: رواه بهذا اللفظ الترمذي رقم (٣٣٦٨) من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ وإسناده ضعيف بهذا اللفظ. ويغني عن هذا الحديث، حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ بلفظ: «الدعاء هو العبادة» وقد رواه الترمذي رقم (٢٩٧٣) و (٣٢٤٤) و (٣٣٦٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وهو كما قال.

ورواه أيضاً ابن ماجه رقم (٣٨٢٩)، وأحمد في «المسند» (٤/٢٦٧)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٢٣٩٦) موارد الظمآن، والحاكم في «المستدرك» (١/٤٩١) من حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. فالأولىٰ أن يروى الحديث بلفظ: «الدعاء هو العبادة».

(٣) انظر ترجمته في تعليق الحكمة رقم (١٦٩).

يُقالَ لي: إن سَألْتَنا مالَكَ عندَنا فقدِ اتهمْتَنَا، وإنْ سألتَنا ـ ما ليسَ لكَ عندَنا فقدْ أسأتَ الثَّناءَ علينا، وَإنْ رضيتَ أجرَيْنا لكَ من الأمورِ ما قَضينا لكَ في الدهورِ.

(١٧٤) وُرُوْدُ الْفَاْقَاْتِ أعْيَاْدُ الْمُرِيْدِيْنَ.

يعني: أنَّ أيامَ مَواردِ الفاقاتِ؛ أي البلايا والمحنِ، هيَ أعيادُ المريدينَ؛ أي الأيامُ العائدةُ عليهم بالمسرَّاتِ والأفراحِ. فإنَّهم يفرحونَ بالفاقاتِ لِمَا فيها مِنْ ذُلِّ النفسِ المُوْصِلِ إلى ربِّ البَريَّاتِ، كما تَفْرَحُ العوامُّ بأيامِ الأعيادِ لما فيها مِنَ الشَّهواتِ التي تُوْصِلُ نفوسَهُمْ إلى بلوغِ المُرادِ. وَما ألطَفَ قولَ بعضِ العارفينَ:

قالوا غدا العيدُ مَاذا أنْتَ لابِسُهُ ... فقلتُ خِلْعَةَ ساقٍ حُبَّهُ جَرَعا
فَقْرٌ وصبْرٌ هما ثوباي تحتَهُمَا ... قَلبٌ يَرَىٰ إلْفَهُ الأعيادَ والجُمَعَا
أحرىٰ الملابسِ أنْ تَلقىٰ الحبيبَ بِهِ ... يومَ التَّزاورِ في الثوبِ الذي خَلَعا
الَّدهرُ لي مأتَمٌ إنْ غِبْتَ يَا أَمَلِيْ ... والعِيْدُ ما كُنْتَ لي مَرأىً ومُسْتَمَعا

(١٧٥) رُبَّمَاْ وَجَدْتَ مِنَ الْمَزِيْدِ فِي اْلفَاْقَاْتِ مَاْ لَاْ تَجِدُهُ فِي الصَّوْمِ وَالَّصَلاْةِ.

أي ربَّما وجدتَ ـ أيها المريدُ ـ في الفاقاتِ مِنْ مزيدِ صفاءِ القلبِ وطهارةِ السريرةِ ما لا تجدهُ في الصومِ والصلاةِ. فإنَّ الفاقاتِ مباينةٌ للهوى والشهوةِ على كلِّ حالٍ، بخلافِ الصومِ والصلاةِ، فإنَّ حظَّ النفسِ قدْ يعتريهما فيحصلُ فيهما إخلالٌ.

(١٧٦) اَلْفَاْقَاْتُ بُسُطُ الْمَوَاْهِبِ.

يعني أنَّ الفاقاتِ تُدْخِلُ المريدَ حَظِيرَةَ القدسِ، وتُجْلِسُهُ على بساطِ الأنْسِ، فتحصل لهُ المواهبُ الربانيةُ، والنفحاتُ الرحمانيةُ. كما وضَّحَ ذلكَ بقولِه:

(١٧٧) **إنْ[١] أَرَدْتَ وُرُودَ الْمَوَاْهِبِ عَلَيْكَ، صَحِّح[٢] الْفقرَ وَالْفَاْقَةَ لَدَيْكَ ﴿إنَّمَا الصَّدَقَاْتُ لِلْفُقَرَاْءِ﴾[٣].**

أيْ إنْ أردتَ ورودَ المواهبِ الربانيةِ مِنَ اللهِ تعالى عليكَ، صَحِّحِ الفقرَ والفاقَةَ لديكَ؛ بأنْ تتحقَّقَ بهما تحقُّقاً تامّاً فلا يكونُ عندَكَ استغناءٌ بغيرِهِ بوجْهٍ من الوجوهِ، لقولِهِ تعالى: ﴿إنَّما الصَّدَقاتُ للفقراءِ﴾[٣]. وتقولُ في تضرُّعِكَ:

إنِّي إلَيْـكَ مَـدىٰ الأنْفَـاسِ مُحْتَـاجُ ... لَوْ كانَ في مَفْـرِقي الإِكْلِيْلُ وَالتَّـاجُ

وَمنْ صدقِ الفقيرِ أخْذُهُ الصدقَةَ مِمَّنْ يُعطيهِ على الحقيقةِ وَهوَ اللهُ تعالى؛ لأنهُ جعلَها لَهُ، فإنْ قبلَها منهُ فهوَ الصَّادِقُ في فقرِهِ لعلوِّ همَّتهِ، وإنْ قبلَها من الوسائطِ فهوَ المتوسِّمُ بالفقْرِ مَعَ دناءَةِ همَّتهِ. ثُمَّ زادَ ذلكَ وُضوحاً بقولِهِ:

(١٧٨) **تَحَقَّقْ بِأَوْصَاْفِكَ يُمِدُّكَ بِأَوْصَاْفِهِ. تَحَقَّقْ بِذُلِّكَ يُمِدُّكَ بِعِزِّهِ[٤]. تَحَقَّقْ بِعَجْزِكَ يُمِدُّكَ بِقُدْرَتِهِ. تَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ يُمِدُّكَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ.**

أيْ تحقَّقْ ـ أيُّها المريدُ ـ بأوصافِ عبوديتِكَ يُمِدُّكَ بأوصافِ ربوبيتِهِ. ثمَّ فصَّلَ هذا المُجملَ بما بعْدَهُ: فإذا جلسْتَ على بساطِ الذُّلِ وقُلتَ: يا عزيزُ مَنْ للذَّليلِ سواكَ، وعلى بساطِ العْجزِ وقلتَ: يا قادِرُ مَنْ للعاجزِ سواكَ، وَعلى بساطِ الضَّعْفِ وَقُلتَ: يا قَويُّ مَنْ للضَّعيفِ سواكَ، وعلى بساطِ الفقْرِ والفَاقةِ وقُلتَ: يا غنيُّ منْ للفقيرِ سواكَ، وجدتَ الإجابةَ كأنَّها طَوْعُ يدِكَ، فتصيرُ عزيزاً باللهِ، قادراً باللهِ، قوياً باللهِ، غنياً باللهِ، إلى غيرِ ذلكَ.

فيمدُّكَ بأوصافِ الربوبيةِ حيثُ تحققْتَ بأوصافِ العبوديةِ.

---

(١) وفي نسخة: إذا أردت.

(٢) ينبغي أن يقترن جواب الشرط بالفاء لأن الفعل طلبي، إلا أن جميع النسخ التي اعتمدتها أثبتت الحكمة وشرحها بهذا الشكل.

(٣) سورة التوبة: الآية (٦٠) وتمامها ﴿إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ والعاملينَ عليهـا والمؤلَّفَةِ قلوبُهُمْ وفي الرِّقابِ والغارمينَ وفي سبيلِ الله وابنِ السَّبيلِ فريضةً من الله واللهُ عليمٌ حَكيمٌ﴾.

(٤) وفي نسخة: بعزته.

(١٧٩) رُبَّمَاْ رُزِقَ الْكَرَاْمَةَ مَنْ لَمْ تَكْمُلُ لَهُ الاسْتِقَاْمَةُ.

يعنيْ: أنَّ الكرامةَ التي هيَ الأمرُ الخارقُ للعادةِ لا عبرةَ بها عندَ المحققينَ، وإنَّما الكرامةُ الحقيقيةُ هي الاستقامةُ. ومرجعُها إلى أمرين: صحَّةِ الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ، واتِّباع ما جاءَ بهِ رسولُهُ ﷺ ظاهراً وباطناً. وَلِذا قالَ أبو يَزِيْد[1]: لَوْ أنَّ رجلاً بسَطَ مُصَلَّاهُ على الماءِ وتربَّعَ في الهواءِ فلا تغْتَرُّوا بهِ حتى تنظروا كيفَ تجدونَهُ في الأمرِ والنهي.

وقيلَ لهُ: إنَّ فلاناً يمرُّ في ليلةٍ إلى مكةَ، فقالَ: إنَّ الشيطانَ يمرُّ في لحظةٍ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ.

وَقيلَ لهُ: إنَّ فلاناً يمشي على الماءِ، فقالَ: الحيتانُ في الماءِ والطيرُ في الهواءِ أعجبُ منْ ذلكَ.

(١٨٠) مِنْ عَلاَمَةِ[2] إقَاْمَةِ الحَقِّ لَكَ في الشَّيْءِ إقَاْمَتُهُ[3] إيَّاكَ فِيْهِ مَعَ حُصُوْلِ النَّتَاْئِجِ.

يعنيْ: أنَّ مِنْ علامةِ إقامةِ اللهِ تعالى لكَ في الشيءِ كالاكتسابِ أو التجريدِ إقامتَهُ؛ أي إدامتَهُ إياكَ فيهِ معَ حصولِ النتائجِ؛ أي الثمراتِ، كسلامةِ الدِّينِ ووجودُ الربح مِنَ الكسبِ.

---

(١) هو: طيفور بن عيسى البسطامي، أبو يزيد، ويقال بايزيد: زاهد مشهور، له أخبار كثيرة. كان ابن عربي يسميه أبا يزيد الأكبر. نسبته إلى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) أصله منها، ووفاته فيها. قال المناوي: وقد أُفردتْ ترجمتُه بتصانيف حافلة. (١٨٨ - ٢٦١ هـ) (٨٠٤ - ٨٧٥ م). اهـ «الأعلام» للزركلي (٣/٣٣٩) باختصار.

وقال عنه صاحب الرسالة القشيرية: وكان جده مجوسياً أسلم. وكانوا ثلاثة أخوة؛ آدم، وطيفور، وعلي. وكلهم كانوا زهاداً عباداً، وأبو يزيد كان أجلّهم حالاً. اهـ «الرسالة القشيرية» ص (١٣). وانظر طرفاً من أقواله في «الطبقات الكبرى» للشعراني ص (٦١).

(٢) وفي نسخة: من علامات.

(٣) وفي نسخة: إدامته.

(١٨١) مَنْ عَبَّر مِنْ بِسَاْطِ إحْسَاْنِه أصْمَتَتْهُ الإسَاْءَةُ، وَمَنْ عَبَّرَ مِنْ بِسَاْطِ إحْسَاْنِ اللهِ إلَيْهِ لَمْ يَصْمُتْ إذَاْ أَسَاْءَ.

يعني: أنَّ من انبسطَ لسانُهُ بالنصيحةِ والموعظةِ والتكلمِ في علومِ القومِ وعَبَّرَ من بساطِ إحسانِه؛ أي من إحسانِه للطاعةِ الشبيهِ بالبساطِ أصمتتْهُ؛ أي أسكتتْهُ الإساءةُ، فينقبضُ عنْ ذلكَ التعبيرِ عندَ صدورِ المعصيةِ منهُ لما يعتريهِ منَ الخجلِ والحياءِ من ربهِ، وهذهِ طريقةُ أهلِ التكليفِ الذينَ ينظرونُ إلى ما منهم إلى اللهِ. وأمَّا منْ عَبَّر من بساطِ إحسانِ اللهِ إليهِ فإنه لم يصمتْ إذا أساءَ؛ أيْ لم يسكتْ عنِ التعبيرِ إذا صدَرتْ منهُ معصيةٌ؛ لأنَّ غَيْبَتَهُ عنْ نفسهِ ومشاهدَتَهُ لوحدانيةِ ربِّهِ أوجبَتْ جراءَتَهُ على ذلكَ، وهذهِ طريقةُ أهلِ التعريفِ الذينَ ينظرونَ إلى ما مِنَ اللهِ تعالى إليهم.

(١٨٢) تَسْبِقُ أنْوَاْرُ الْحُكَمَاْءِ أقْوَاْلَهُمْ، فَحَيْثُ صَاْرَ التَّنْوِيْرُ وَصَلَ التَّعْبِيْرُ.

يعنيْ: أنَّ العارفينَ باللهِ تعالى المعبَّرَ عنهمْ بالحكماءِ، إذا أرادوا إرشادَ عبادِ اللهِ توجَّهوا إلى اللهِ بقلوبهمْ في هدايَتِهم واستعدادِهِمْ لقَبولِ ما يَرِدُ عليهمْ من أقوالهم، فيُجِيْبهمْ لذلكَ، فيخرجُ حينَئِذٍ من قلوبهم أنوارٌ ناشئةٌ من نورِ سرائِرِهمْ تسبقُ أقوالَهمْ.

فحيْثُ صارَ؛ أيْ حصلَ التنويرُ في قلوبِ السامعينَ، وصلَ التعبيـرُ، فينتَفِعُونَ بأقوالهمْ أتَمَّ انتفاعٍ.

ثُمَّ علَّلَ ذلكَ بقولِهِ:

(١٨٣) كُلُّ كَلاْمٍ يَبْرُزُ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ الْقَلْبِ الَّذِيْ مِنْهُ بَرزَ.

يعني: أنَّ اللسانَ تَرْجُمانُ القلبِ. فإذا تطهَّر القلبُ من الأغيارِ وأشرقتْ عليهِ الأنوارُ اكتسى الكلامُ نوراً، وانتفعتْ به السامعونَ وازدادوا سروراً. وَأمَّا إذا تدنَّسَ القلبُ بالذنوبِ فإنَّ كلامَ صاحبِهِ يوجبُ قسوةَ القلوبِ.

(١٨٤) مَنْ أُذِنَ لَهُ فِي التَّعْبِيرِ فُهِمَتْ فِي مَسَامِعِ الْخَلْقِ عِبَارَتُهُ[١]، وَجُلِّيَتْ إِلَيْهِمْ إِشَارَتُهُ[٢].

أي مَنْ أَذِنَ اللهُ تعالى لهُ مِنَ العارفينَ في التعبيرِ عن الحقائقِ؛ وهيَ العلومُ الوهبيةُ، فُهِمَتْ في مسامعِ الخلقِ عبارَتُهُ فلم يفتقِرُوا إلى معاوَدَةٍ ولا تكرارٍ. وجُلِّيتْ - بضمِّ الجيمِ وشدِّ اللاَّمِ - أيْ ظهرتْ إشـارتُهُ إليهم فلمْ يحتاجُوا إلى إطنابٍ وَلا إكثارٍ. بخلافِ غيرِ المأذونِ لهُ في ذلكَ كما قالَ:

(١٨٥) رُبَّمَا بَرَزَتِ الْحَقَائِقُ مَكْسُوفَةَ الأَنْوَارِ، إِذَا لَمْ يُؤْذَنْ لَكَ فِيهَا بِالإِظْهَارِ.

أي ربّما برزتِ الحقائقُ؛ التيْ هيَ العلومُ الوهبيةُ، مكسوفةَ الأنوارِ إذا لَمْ يؤذنْ لكَ في إظهارِها، فتمجُها الأسماعُ ولا يحصُلُ بها للسامعينَ استبصارٌ.

وقدْ كانَ أبو العباسِ المرسيِّ[٣] يقولُ: كلامُ المأذونِ لهُ يخرجُ وعليهِ كِسوةٌ وطلاوَةٌ، وكلامُ الذي لم يُؤذَنْ لهُ يخرجُ مكسوفَ الأنوارِ. حتّى إنَّ الرجلينِ ليتكلمانِ بالحقيقةِ الواحدةِ فتُقْبَلُ مِنْ أحدِهما وتُردُّ على الآخَرِ.

وكانَ يقولُ: الوليُّ يكونُ مشحوناً بالعلومِ والمعارفِ، والحقائِقُ لديهِ مشهودَةٌ، حتى إذا أُعْطِي العبارةَ كانَ كالإذنِ من اللهِ لهُ في الكلامِ.

(١٨٦) عِبَارَاتُهُمْ إِمَّا لِفَيَضَانِ وُجْدٍ، أَوْ لِقَصْدِ هِدَايَةِ مُرِيدٍ. فَالأَوَّلُ حَالُ السَّالِكِينَ، وَالثَّانِي حَالُ أَرْبَابِ الْمِكْنَةِ وَالْمُحَقِّقِينَ[٤].

أي عباراتُهم التي يُعَبِّرُونَ بها عن العلومِ والمعارفِ التي يجدونَها في باطنهم لا تكونُ إلا لأحدِ أمرينِ: إمّا لفيضانِ وُجْدٍ[٥]، بضم الواو؛ أي لفيضانِ

---

(١) وفي نسخة: عباراته.

(٢) وفي نسخة: إشاراته.

(٣) انظر ترجمته في تعليق الحكمة رقم (٩٦).

(٤) وفي نسخة: المتحققين.

(٥) وجد المطلوب... وَجْداً وجِدَة ووُجْداً ووُجُوداً ووِجْداناً وإجْدانا: أدركه. اهـ القاموس المحيط.

ما يجدونهَ في قلوبهم مِنْ ذلكَ فيخرجُ قهراً عنهمْ، وَهـذا حالُ السالكينَ المَهْديِّينَ. وَإمّا لـقصدِ هدايةِ مُريدِ، وهمْ أربابُ المَكنَةِ؛ أي التمكينِ، فيلْزَمُهم ذلكَ لِمَا فيهِ من الإرشَادِ إلى سلوكِ سبيلِ الرشادِ.

فإنْ عبَّر السالِكُ لا عَنْ غَلَبةِ وُجْدٍ كَان في ذلكَ نوعٌ من الَّدعوىٰ. وإنْ عبَّر المتمكنُ لغيرِ قصدِ هدايةِ مريدِ كانَ مِنْ إفشاءِ السرِّ الذي لم يُؤْذَن لهُ فيهِ.

(١٨٧) اَلْعِبَارَاْتُ قُوتٌ لِعَاْئِلَةِ اْلْمُسْتَمِعِينَ، وَلَيْسَ لَكَ إلاَّ مَاْ أَنْتَ لَهُ آكِلٌ.

يعني: أنَّ العباراتِ التي يُعبِّر بها أهلُ هذهِ الطائفةِ عن العلومِ والمعارفِ هي مِنْ حيثُ معناها قُوْتٌ لأرواحِ جماعةِ المستمعينَ؛ كما أَنَّ الأطعمةَ الحسِّيةَ قوتٌ لأبدانِ المحتاجينَ لها، وهذهِ الأقواتُ المعنويةُ كالأقواتِ الحسيةِ؛ منْ حيثُ إنّها تختلفُ باختلافِ الطبائعِ، فكما أنَّ بعضَ الأطعمةِ قدْ يـصلحُ لشخصٍ دَونَ آخرٍ، للاختلافِ في الطبيعةِ والمزاجِ، فكذلكَ الأقواتُ المعنويةُ، منها ما يَصْلحُ لواحدٍ دونَ آخرٍ. وليسَ لكَ إلاّ ما أنتَ لهُ آكلٌ؛ أي إلاّ ما فهمتَهُ عنهم؛ لاختلافِ المذاهبِ وتباينِ المطالبِ. فقد تُلقى العبارةُ على جماعةٍ فيَفْهم كلُ واحدٍ منها ما لا يفهَمُهُ الآخرُ، وقدْ يفهمُ بعضُهم مِنَ الكلامِ معنى لم يقصدْهُ المتكلمُ، ويتأثرُ باطنُهُ بذلكَ تأثراً عجيباً، وربّما فَهِمَ منهُ ضدَّ ما قصدَهُ المتكلمُ، كما اتَّفقَ أنَّ بعضَهم سمعَ قائلاً يقولُ:

إذَا اْلـعِشْـرُونَ مِـنْ شَعْـبـانَ وَلَّتْ ... فَـوَاصِـلْ شُـرْبَ لَيْلِكَ بـالنَّهَـارِ
وَلاَ تَـشْـرَبْ بـأقْـداحٍ صِـغَـارٍ ... فـإنَّ الـوقْتَ ضَـاقَ عن الصِّغَـارِ

فخرجَ هائماً على وجههِ حتى أتى مكةَ وَلم يزلْ مجاوراً بها حتّى ماتَ.

وإلى ذلكَ الإشارةُ بقولِهِ تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٦٠) وتمامها ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضربْ بعصاكَ الحجرَ فانفجرت منه اثنتا عشْرة عيناً قد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مَشْرَبَهم كلوا واشربوا من رِزْقِ الله ولا تَعْثَوْا في الأرض مُفْسِدين ﴾ مما قاله المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ أنه كان لكل سبطٍ من بني إسرائيل عَيْنٌ قد عَرَفها لا يشرب من غيرها، وقد كان =

(١٨٨) رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ المَقَامِ مَنِ اسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إلَيْهِ. وَذَلكَ مُلْتَبِسٌ إلاّ عَلىٰ صَاحِبِ بَصِيْرَةٍ.

يعني: أنَّهُ كما يُعَبِّرُ عنْ أيِّ مقامٍ منْ مقاماتِ اليقينِ كمقامِ الزهدِ ومقامِ الورعِ ومقامِ التوكّلِ مَنْ وصَلَ إليهِ وتحقَّقَ فيه، يُعبِّرُ عنهُ منِ استشرفَ؛ أي اطَّلعَ، عليهِ وقاربَ الوصولَ إليهِ ولم يتحققْ فيهِ. وذلكَ التعبيرُ ملتَبسٌ على منْ يسمعُهُ منهما إلاّ على صاحِبِ بصيرةٍ، فإنَّهُ يرى في الكلامِ صورةَ المتكلِّمِ الباطنةِ من كمالٍ أوْ نقصٍ. ولذا قيلَ: تكلَّموا تُعْرَفوا.

(١٨٩) لاَ يَنْبَغِي للسَّالِكِ أنْ يُعبِّرَ عَنْ وَارِدَاتِهِ، فَإنَّ ذَلِكَ يُقِلُّ[١] عَمَلَها فِي قَلْبِهِ، وَيَمْنَعُهُ وُجُودَ الصِّدْقِ مَعَ رَبِّهِ.

يعنيْ: أنَّهُ لا يَنْبغي للسَّالكِ أنْ يَعبِّرَ عن الوارداتِ التي تَرِدُ عليهِ منَ العلومِ الوهبيةِ، والأسرارِ التوحيديَّةِ اختياراً منهُ. بلْ يصُونُها عنْ كلِّ أحَدٍ إلاّ عنْ شيخِهِ. فإنَّ إفشاءَها للغيرِ يُقِلُّ عملَها في قلبهِ منَ التأثيرِ المحمودِ، فلا يَحصُلُ لهُ كمالُ الانتفاعِ بها، ويمنعُهُ وجودَ الصدقِ معَ ربهِ؛ لأنَّ النفسَ تجدُ عندَ التعبيرِ بها لذةً وانشراحاً فيغلبُ عليهِ حظُّ نفسهِ.

(١٩٠) لا تَمُدَنَّ يَدَكَ إلَى الأخْذِ مِنَ الْخَلاَئِقِ إلاّ أنْ تَرىٰ أنَّ المُعْطِيَ فِيْهِمْ مَوْلاَكَ، فَإذَا كُنْتَ كَذلِكَ فَخُذْ مَا وَافَقَكَ العِلْمُ[٢].

أي لا تمدنَّ يدكَ ـ أيها المريدُ ـ المتجردُ إلى الأخذِ منَ الخلائقِ إلاّ بشَرْطَيْنِ: أشارَ إلى الأوّلِ بقولهِ: إلاّ أنْ ترى أنَّ المُعْطي فيهمْ مولاكَ، فلا ترى العطاءَ الذي يصلُ إليكَ إلاّ منْهُ، وأنَّ الخلقَ أسبابٌ ووسائطُ فلا تُعلِّقْ قلبَكَ بهم، وإلاّ كُنْتَ عبداً لهم. وأشارَ إلى الثاني بقولِهِ: فخُذْ ما وافقكَ العلمُ؛ أي

= للحجر أربعةُ أوجه يخرج من كل وجه ثلاثُ أعينٍ لكل سبط عينٌ لا يخالطهم سواهم. انظر تفسير القرطبي.

(١)وفي نسخة: (يُقَلِّلُ).

(٢) وفي نسخة: (ما وافقَ العِلْمَ).

على أخذهِ. والمرادُ: علمُ الظاهرِ بأنْ لا تَأْخُذَ إلّا مِنْ يَدِ مكلَّفٍ رَشيدٍ تقيٍّ، وعلمُ الباطنِ بأنْ لا تأخذَ إلّا ما كانَ على قدرِ حاجتِكَ بغيرِ استشرافِ نفسٍ.

(١٩١) رُبَّمَا اسْتَحْيَا العَارِفُ أنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إلىٰ مَوْلاَهُ لاكْتِفَائِهِ بِمَشِيْئَتِهِ، فَكَيْفَ لاْ يَسْتَحْيِي أنْ يَرْفَعَهَاْ إلىٰ خَلِيْقَتِهِ؟.

يعنيْ: أنَّ رفعَ الهمّةِ لسالكي طريقِ الآخرةِ عنِ المخلوقينَ ممّا يُوجبُ قربَهم منْ ربِّ العالمينَ. فإنَّ العارفَ ربَّما استحيا منْ سُؤالِ المولى عزَّ وجلَّ اكتفاءً بما قضاهُ لهُ في الأزلِ، فكيفَ لا يَسْتَحْيِي من رفعِ حاجَتِهِ إلى بعضِ العبيدِ وهُم الفقراءُ إلى اللهِ، واللهُ هو الغنيُّ الحميدُ. ولذا قالَ أبو عليٍّ الدقاقُ[١]: مِنْ علامةِ المعرفةِ أنْ لا تسألَ حوائِجَكَ قَلَّتْ أو كَثُرَتْ إلّا مِنَ اللهِ تعالى، مثل موسى عليهِ السلامُ فإنهُ اشتاقَ إلى الرؤيةِ فقالَ: ﴿ربِّ أرني أنظرْ إليكَ﴾[٢]، واحتاجَ مرةً إلى رغيفٍ فقالَ: ﴿رَبِّ إنِّي لِمَا أنْزَلتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فقيرٌ﴾[٣]. وسُئِلَ الشاذليُّ[٤] عن الكيمياء[٥] فقالَ: أخْرِجِ الخَلْقَ من قلبكَ،

---

(١) هو الحسن بن علي بن محمد الدقاق، النيسابوري الشافعي (أبو علي) صوفي، فقيه، أصولي. توفي في ذي الحجة سنة (٤٠٥ هـ) من آثاره: كتاب الضحايا. ا هـ معجم المؤلفين (٣/٢٦١).

وترجم له ابن العماد في شذرات الذهب في وفيات سنة ست وأربعمائة ومما قال فيه: لسان وقته وإمام عصره، كان فارهاً في العلم متوسطاً في الحلم محمود السيرة مجهود السريرة جنيدي الطريقة سري الحقيقة برع في الأصول وفي الفقه وفي العربية حتى شدت إليه الرحال في ذلك. له كرامات ظاهرة ومكاشفات باهرة ونقل عن الغزالي قوله فيه: كان زاهد زمانه وعالم أوانه. «الشذرات» (٣/١٨٠) بتصرف.

(٢) سورة الأعراف: من الآية (١٤٣).

(٣) سورة القصص: الآية (٢٤) وتمامها مع ما بعدها: ﴿فسقى لهما ثم تولَّى إلى الظل فقال ربِّ إني لما أنزلتَ إليّ من خيرٍ فقيرٌ * فجاءَتْه إحداهما تمشي على استحياءٍ قالتْ إنَّ أبي يدعوك ليجزيَك أجْرَ ما سقيتَ لنا فلما جاءَهُ وقصَّ عليه القصصَ قال لا تَخَفْ نجوْتَ من القومِ الظالمين﴾.

(٤) انظر ترجمته في تعليق الحكمة رقم (١٥).

(٥) الكيمياء: الإكسير انظر مختار القاموس. وقد عرف الجرجاني في كتابه «التعريفات»

واقطعْ يأسَكَ من ربكَ أنْ يعطِيكَ غيْرَ ما قسم لك.

وَقالَ: ليسَ يَدُلُّكَ على فهم العبدِ كثرةُ عملِهِ، ولا مداومةُ وِرْدِهِ. وإنَّما يدُلُّ على نورِهِ وفهمِهِ غناهُ بربِهِ، وتحررهُ من رِقِّ الطمعِ، وتحليهِ بحليةِ الورعِ. وبذلكَ تحسُنُ الأعمالُ، وتصلُحُ الأحوالُ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿إنّا جَعَلْنَا ما على الأرضِ زينةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أيُّهمْ أحْسَنُ عَملاً﴾[1].

فَحُسْنُ الأعمالِ إنما هوَ بالفهمِ عنِ اللهِ. والفهمُ هوَ ما ذكرناهُ من الغنى باللهِ والاعتمادِ عليهِ، والاكتفاءِ بهِ، ورفعِ الحوائجِ إليهِ.

(١٩٢) إذَا الْتَبَسَ عَلَيْكَ أمْرَانِ فَانْظُرْ أثْقَلَهُما على النَّفْسِ فَاتَّبِعْهُ، فَإنَّهُ لاْ يَثْقُلُ عَلَيْهَا إلاّ مَاْ كَانَ حَقّاً.

يعني: إذا التبسَ عليكَ ـ أيُّها المريدُ ـ أمرانِ واجبانِ كَطلبِ ما لا بُدَّ منهُ منَ العلمِ والسعيِ على العيالِ، أو مندوبانِ كطلب علمٍ زائدٍ على ما لا بُدَّ منهُ والاشتغالِ بالنوافِلِ، فانظرْ أثقلَهُما على النَّفسِ فاتَّبعهُ، فإنهُ لا يثقُلُ عليها إلاّ ما كانَ حقاً؛ أي أولى. فإنَّ شأنَها أنْ تميلَ إلى الحظوظِ وتفرَّ منَ الحقوقِ. وهذا بالنسبةِ لغيرِ النفسِ المطمئنةِ، وأمّا هيَ فقدْ يَخِفُّ عليها عملُ ما هوَ أولى، فليكنْ نظرُ صاحبِها حينئذٍ إلى ما هوَ أكثرُ فائدةً وأعظمُ مزيةً. وَقدْ ذكَر بعضُهم ميزاناً آخرَ تَعْرِفُ بِهِ ما هوَ أولى بالتقديمِ منْ غيرهِ عندَ الالتباسِ عليكَ، وهوَ: أنْ تُقَدِّرَ نزولَ الموتِ بكَ في الوقتِ، فأيُّ عملٍ سرَّكَ أنْ تكونَ مشغولاً بهِ إذْ ذاكَ فهوَ حقٌّ وما سواهُ باطلٌ؛ لأنَّ العبدَ لا يصدرُ منهُ في هذهِ الحالةِ إلاّ العملُ

= الكيمياء؛ فميز بين كيمياء السعادة التي هي تهذيب النفس باجتناب الرذائل وتزكيتها عنها، واكتساب الفضائل وتحليتها بها. وبين كيمياء العوام التي هي استبدال المتاع الأخروي الباقي بالحطام الدنيوي الفاني. وبين كيمياء الخواص التي هي تخليص القلب عن الكَوْن باستئثار المكوِّن اهـ والمعنى الذي قاله الشاذلي رحمه الله تعالى قريب من الأخيرة.

(١) سورة الكهف: الآية (٧).

الصالحُ الخالصُ من شوائبِ الرياءِ، كما هوَ مقتضى قِصَرِ الأملِ الذيْ هوَ أصلُ حسنِ العملِ.

إذا علمتَ ذلكَ، علمتَ أنَّ منْ يأخذُ في علمٍ غَيْرِ متعينٍ عليهِ ولا يجنيْ ثمرتَهُ إلّا في ثاني حالٍ معَ تمكُّنِهِ في الحالةِ الراهنةِ من إيقاعِ طاعةٍ تزيدُ مصلحتُها عليهِ بعيدٌ[1] عنْ درجاتِ الكمالِ.

نسألُ اللهَ السلامةَ منَ الغفلةِ في زمانِ المهلةِ فإنها مبدأُ كلِّ عملٍ فاسدٍ، ومنشأُ وجودِ الغِرَّةِ[2] والجهالةِ لكلِّ عالمٍ وعابدٍ.

(١٩٣) من علامَةِ[3] اتِّباعِ الهوىٰ المسارَعَةُ إلى نوافِلِ الخيراتِ، والتكاسلُ عن القيامِ بالواجباتِ.

يَعني: أنَّ مِنْ عَلامَةِ اتِّباعِ هوىٰ نَفْسِكَ ـ أيها المريدْ ـ المسارعةَ عندَ عَقْدِ التّوبَةِ إلى نوافِلِ الخَيراتِ مِنْ صِيامٍ وَقيامٍ ونَحوِ ذلكَ، والتّكاسلَ عن القيامِ بحقوقِ الواجباتِ التي عليكَ؛ كقَضاءِ فائتةٍ واستِحْلالٍ مِنْ ظُلامةٍ؛ اتّباعاً لِما خَفَّ على النَّفْسِ وتركاً لِما ثَقُلَ علَيْها، فإنَّ حَظَّها في النَّوافلِ أن تُذكَرَ بها عندَ النَّاسِ بخلافِ الفرائضِ، فَتُحرمَ الوصولَ بتضيعِ الأُصولِ. وَقَدْ قَالُوا: مَنْ كَانَتِ الفَضائِلُ أهمَّ إليهِ مِنْ أداءِ الفَرائضِ فهوَ مَخدوعٌ.

فٱحذَرْ يا أخـي أنْ تَكُونَ مِمَّنْ لَمْ يَشْتَغِلُوا برياضَةِ نُفوسِهِمُ التي خَدَعَتْهُمْ، وَلَمْ يعتَنُوا بِمجاهَدةِ أهوائِهِمُ التي أَسَرَتْهُمْ، واللهُ يتولَّىٰ هُداكَ.

(١٩٤) قَيِّدَ الطاعاتِ بأعْيَانِ الأوقاتِ كي لا يمْنَعَكَ عنها وجودُ التَّسْويفِ، ووَسَّعَ عليك الوقتَ كي تبقى لك حِصَّةُ الاختيارِ.

يعني: أنه سبحانه أنعم عليك بنعمتين عظيمتين، الأولى: أنه قيد لك

(١) قوله (بعيد): خبر أنَّ في قوله (علمت أن من يأخذ في علم...).

(٢) الغِر: هو الشاب الذي لا تجربة له، والغارُّ: الغافل، والاسم الغِرَّة. ا هـ مختار القاموس.

(٣) وفي نسخة: من علامات.

الطاعات الواجبة عليك بأعيان الأوقات المعينة لوقوعها فيها، ولم يطلق وقتها كي لا يمنعك عنها وجود التسويف منك فيفوتك ثوابها. والثانية: أنه وسع عليك الوقت رأفة بك، ولم يضيقه عليك كي تبقى حصة الاختيار، فتأتي بالطاعة في حال سكون وتمهل في أول الوقت أو في وسطه أو في آخره.

فقم بشكر مولاك على ما أولاك.

(١٩٥) عَلِمَ قلَّةَ نهوضِ العباد إلى معاملتِهِ، فأوْجَبَ عليهم وُجُودَ طاعتِهِ، فسَاقَهُمْ إليه بسلاسلِ الإيجابِ «عَجبَ رَبُّكَ من قومٍ يُساقُونَ إلى الجنَّةِ بالسَّلاسِلِ».

أي علم الله سبحانه قلة نهوض عامة عباده إلى معاملته من إقامة العبودية طوعاً منهم، فأوجب عليهم وجود طاعته كرهاً لأجل ما خوفهم به إن لم يفعلوا، فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب والتخويف، واستدرجهم بذلك إلى ما فيه نعيمُهم ورَفْعُهم إلى المقام المنيف، كما يفعل ولي الصبي عند إرادة تأديبه، فإنه لا يتركه إلى طبيعته وأهوائه تجري به، بل يُلزمه أموراً يشق عليه فعلها، فإذا بلغ مبلغ الرجال تبين له نَفْعُها. فيكونون كأسارى الكفار الذين يراد بهم الدخول في الإسلام وهم يكرهون ذلك مع أنه موصل إلى الجنة دار السلام، كما أشار إلى ذلك بالحديث الشريف الذي رواه بالمعنى ولفظه: «عَجِبَ اللهُ من أقوامٍ يُقَادونَ إلى الجنَّةِ بالسلاسِلِ»[١]. وهذا الحديث في أسارى بدر الذين أسروا ثم أسلموا.

والمراد من قوله: (عجب ربك.. إلخ) إظهار غرابة ذلك الأمر لخلقه

---

(١) الحديث: رواه البخاري في «صحيحه» (٦/١٠١)، وأبو داود رقم (٢٦٧٧)، وأحمد في «المسند» (٢/٣٠٢) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ورواه البخاري (٨/١٦٩) بلفظ آخر.

ورواه أحمد في «المسند» (٥/٢٤٩) من حديث أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ ومعناه؛ أنهم أسروا وقيدوا، فلما عرفوا صحة الإسلام دخلوا طوعاً، فدخلوا الجنة.

فيتعجبون منه، لأن العجب الذي هو استعظام أمر خفي سَبَبُه مستحيلٌ على الله تعالى.

واعلم أن الخاصة لا يحتاجون إلى الإيجاب والتخويف والتحذير؛ لتنوير بصائرهم وحبهم لطاعة اللطيف الخبير، فلم يقتصروا على ما اقتصر عليه العامة من الواجبات، بل أضافوا إليها نوافل الخيرات، وصارت أعمالهم كلها قربات. وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «نعم العبدُ صهيبٌ لو لم يخفِ اللهَ لم يعْصِهِ»[1].

(١٩٦) أوْجَبَ عليكَ وُجُودَ خِدْمَتِهِ، وما أوْجَبَ عليكَ إلا دُخُولَ جَنَّتِهِ.

أي أوجب الحقُّ تعالى عليك في الظاهر وجود خدمته، وفي الحقيقة ونفس الأمر ما أوجب عليك إلا دخول جنته، فإنه سبحانه جعل الأعمال سبباً لدخول الجنة.

والمقصود بهذه الحكمة وما قبلها الإعلام بأن الله تعالى غني عن خلقه لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم، بل التكاليف كلها ترجع إلى ما فيه منفعتهم، والله هو الغني الحميد.

(١٩٧) منِ اسْتَغْرَبَ أنْ يُنقذَه اللهُ مِنْ شهوتِهِ وأنْ يُخرجَهُ من وُجود غَفْلَتِهِ، فَقَدِ استعْجَزَ القدرةَ الإلَهيَّةَ ﴿ وكانَ اللهُ على كلِ شيءٍ مُقْتَدِراً ﴾[2].

أي من استغرب أن يخلصه الله من شهوته التي أسرته، وأن يخرجه من

---

(١) الحديث: قال الشيخ ملا علي القاري في «الموضوعات الصغرى» ص (١٦٥): لا أصل له كما صرح به الحفاظ. وقال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» نقلاً عن شيخه الحافظ ابن حجر العسقلاني: إنه ظفر به في «مشكل الحديث» لابن قتيبة، من غير إسناد. وقال الشيخ ملا علي القاري في «الموضوعات الكبرى»: قال الحافظ السيوطي: كثر سؤال الناس عن حديث: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه» ونسبه بعضهم إلى النبي ﷺ ونسبه ابن مالك إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ قال بهاء الدين السبكي: لم أر هذا الكلام في شيء من كتب الحديث لا مرفوعاً ولا موقوفاً، لا عن عمر ولا عن غيره مع شدة التفحص.

(٢) سورة الكهف: الآية (٤٥) وتمامها ﴿ واضربْ لهم مَثَلَ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماءِ فاختَلَطَ به نباتُ الأرضِ فأصبح هشيماً تَذْرُوه الرياحُ وكان اللهُ على كلِ شيءٍ مُقْتَدِراً ﴾.

وجود غفلته التي استهوته، فقد استعجز: أي نسب القدرة الإلّهية إلى العجز. والله تعالى متصف بالاقتدار على كل شيء ممكن، ومنه الإنقاذ من الشهوات، والإخراج من الغفلات؛ كما قال سبحانه: ﴿ وكان اللهُ على كل شَيءٍ مُقْتَدِراً ﴾[1]. فعلى العبد المسيء أن يلزم باب مولاه بالذلة والافتقار، فإنه يُسَهِّلُ عليه ما استصعبه ويرفعه إلى منازل الأبرار، فإن الله تعالى إذا أقبل على أهل الخطيئات بدل سيآتهم حسنات.

(١٩٨) رُبَّما وردَتِ الظُّلَمُ عليكَ، ليُعَرِّفَكَ[2] قَدْرَ ما مَنَّ بهِ عَلَيْكَ.

أي وربما وردت عليك الشهوات والغفلات الشبيهة بالظُّلَم ـ بفتح اللام جمع ظُلْمَةَ ـ ليعرفك سبحانه قَدْرَ ما مَنَّ به عليك من أنوار التجلي في حضرة القرب، فيزدادَ شكرك عند الرجوع لتلك الحالة التي أبعدتها الشهوات، وتحرصَ على القيام بحق النعمة في جميع الأوقات.

فما منهما إلا لَهُ فيه نعمةٌ عليكَ لهُ في مثلِها يجبُ الشكرُ

وقد علل ذلك بقوله:

(١٩٩) مَنْ لم يَعْرِفْ قَدْرَ النِّعَمِ بِوِجْدانِها، عَرَفَها بوُجُودِ فِقْدانها.

يعني: أن مَنْ لم يعرف قدر النعم التي أنعم الله بها عليه بوجدانها عنده لغلبة الغفلة عليه، **عرفها** بوجود فقدانها، فإنه لا يعرف قدر نعمة البصر إلا من وصل العمى إليه، وبضدها تتبين الأشياء.

ولذا كان بعض الصالحين يقول في دعائه: اللهم عرِّفنا نعمك بدوامها، ولا تُعَرِّفْها لنا بزوالها.

(٢٠٠) لا تُدْهِشْكَ وارداتُ النِّعَمِ عن القيامِ بحقوقِ شُكْرِكَ، فإنَّ ذلكَ مما يَحُطُّ من وجودِ قَدْرِكَ.

أي لا تدهشك النعم المترادفة عليك عن القيام بحقوق شكرك لمولاك؛

---

(١) انظر الحاشية رقم (٢) في الصفحة السابقة.

(٢) وفي نسخة: لِتُعَرِّفَكَ.

بأن ترى عجز نفسك عن توفية ذلك فتترك الشكر، فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك، وقد رفع الله قدرك حيث جعل القليل منك كثيراً، وادخر لك عليه جزاءً كبيراً. قال تعالى: ﴿ مَنْ جاءَ بالحسَنَةِ فلهُ عَشْر أمْثَالِها ﴾[1] فلا تبخس نفسك حقها ولا تحُطَّها عن قدرها، فإن ترك الشكر بسبب كثرة النعم جهل بحقِّ المُنْعِم المفضال، كما أن ترك الشكر على النعمة لاستقلالها موجب لغضب الكبير المتعال.

(٢٠١) تَمَكُّنُ حَلاوةِ الهوى من القَلْبِ هو الداءُ العُضَالُ.

يعني: أن تمكن حلاوة ما تهواه النفس من الشهوات الدنيوية من القلب هو الداء العضال الذي يتعذر برؤه، فإن القلب محل الإيمانِ والمعرفةِ واليقينِ، وهذه هي الأدوية لأمراضه، ما لم يكن الداء معضلاً كتمكن الهوى فلا يفيد فيه إلا وارد إلّهي، كما أشار إلى ذلك بقوله:

(٢٠٢) لا يُخْرِجُ الشهوةَ من القلبِ إلا خوفٌ مزعجٌ أو شوقٌ مُقْلِقٌ.

أي لا يكون سبباً في إخراج الشهوة المتمكنة من القلب إلا خوفٌ من الله مزعجٌ يرد على القلب من شهود صفات الجلال، ومنشؤه النظر في الآيات المحتوية على ما أعد للعصاة من العذاب الأليم. أو شوق إلى الله مقلِقٌ يرد على القلب من شهود صفات الجمال، ومنشؤه النظر في الآيات المحتوية على ما أعد للطائعين من النعيم المقيم.

(٢٠٣) كما لا يُحِبُّ العملَ المُشْتَرَكَ، كذلك لا يُحِبُّ القلْبَ المُشْتَرَكَ. العَمَلُ المُشْتَرَكُ لا يَقْبَلُهُ، والقَلْبُ المُشْتَرَكُ لا يُقْبِلُ عَلَيْهِ.

يعني: أنه سبحانه كما لا يحب العمل المشوب بالرياء وملاحظةِ الخلق، كذلك لا يحب القلب الذي فيه محبة غيره. ولما كانت المحبة بمعنى ميل

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٦٠) وتمامها ﴿مَنْ جَاء بالحسنةِ فله عَشْرُ أمثالِها ومَنْ جاءَ بالسيئةِ فلا يُجْزَىٰ إلا مِثْلَها وهم لا يُظْلَمُونَ﴾.

القلب مستحيلةً على الله تعالى بيَّنَ المراد منها بقوله: العمل المشترك لا يقبله؛ أي لا يثيب عليه لفقد الإخلاص منه، والقلب المشترك لا يُقْبِلُ عليه؛ أي لا يرضى عن صاحبه لعدم صدقه في محبته.

(٢٠٤) أنْوارٌ أُذِنَ لها في الوُصولِ، وأنْوارٌ أُذِنَ لها في الدُّخُولِ.

يعني: أن الأنوار الواردة على القلوب من خزائن الغيوب؛ وهي الأسرار الإلٓهية والمعارف الربانية تنقسم إلى قسمين: أنوار أُذن لها في الوصول إلى ظاهر القلب فقط، فيشاهد معها نفسه وربه ودنياه وآخرته. وأنوارٍ أُذن لها في الدخول إلى صميم القلب وسويدائه، فلا يحبُّ العبدُ عند ذلك سوى مولاه، ولا يفعل إلا ما يحبه سيده ويرضاه.

(٢٠٥) رُبَّما وردتْ عليكَ الأنـوارُ فوجـدتِ القَلْبَ مَحْشُوّاً بصـورِ الآثارِ، فارْتَحَلَتْ مِنْ حيثُ نَزَلَتْ.

أي ربما وردت عليك ـ أيها المريد ـ الأنوارُ الإلٓهية فوجدتْ قلبكَ محشواً بصور الآثار الكونية: من أموال وأولاد وغيرهما، فارتحلت من حيث نزلت؛ لأنها مقدسة عن حلولها في القلب المدنس بالأغيار. وقد ذكر المصنف ما هو في معنى التفريغ فقال:

(٢٠٦) فَرِّغْ قلبَكَ من الأغْيَارِ، يَمْلأْهُ بالمعارفِ والأسْرارِ.

أي إذا أردت ـ أيها المريد ـ حلول الأنوار في قلبك، وتجلِّيَ الأسرار والمعارف عليه من ربك، ففرغه من صور الأغيار يملأه بالمعارف والأسرار.

(٢٠٧) لا تَسْتَبْطِىءْ مِنْهُ النَّوالَ، ولكنِ اسْتَبْطِىءْ مِنْ نَفْسِكَ وُجُودَ الإقْبالِ.

أي لا تستبطىء ـ أيها المريد ـ من ربك العطاء فتقول: أردتُ الفتح فلم يفتح لي، ولكن استبطىء من نفسك وجود الإقبال عليه بترك ما عداه وتسليم الأمر إليه، فإن من تعلق بالأغيار لا يصلح أن يكون من الأخيار. فاصدق في الإرادة تنل منه الحسنى وزيادة.

(٢٠٨) حقوقٌ في الأوقاتِ يُمْكِنُ قضاؤُها؛ وحقوقَ الأوقاتِ لا يُمْكِنُ قضاؤُها، إذْ ما مِنْ وقتٍ يَرِدُ إلا وللهِ عليكَ فيه حقٌ جديدٌ وأمْرٌ أكِيدٌ، فكيف تقضي فيه حَقَّ غيرِهِ؟ وأنتَ لم تَقْضِ حقَّ اللهِ فيهِ.

يعني: أن الله تعالى جعل عليك ـ أيها المريد ـ حقوقاً في الأوقات، وحقوقاً للأوقات، فالحقوق التي في الأوقات المعينة لها كالصلاة والصوم يمكن قضاؤها في وقت آخر لمن فاتته. وأما حقوق الأوقات؛ وهي المعاملات الباطنية التي تقتضيها أحوال العبد التي يكون عليها من نعمة وبلية وطاعة ومعصية فلا يمكن قضاؤها، لكون الوقت لا يخلو من حال منها، فوقت كل عبد ما هو عليه من تلك الأحوال.

قال سيدي أبو العباس المرسي[1]: أوقات العبد أربعة لا خامس لها، النعمة والبلية والطاعة والمعصية، وَلِلَّهِ عليك في كل وقت منها سهمٌ من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية. فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه أنْ هداه لها ووفقه للقيام بها، ومن كان وقته المعصية فمقتضى الحق منه وجود الاستغفار والندم، ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله، ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر. وفي الحديث: «من أُعطي فشكر، وابتُلي فصبر، وظُلِمَ فغفر، وظَلَمَ فاستغفر، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»[2]. أي لهم الأمن في الآخرة، وهم المهتدون في الدنيا.

ومن كلامهم: الفقير ابن وقته؛ أي يتأدب معه ويعطيه حقه كما يتأدب الولد مع أبيه.

---

(١) انظر ترجمته في تعليق الحكمة رقم (٩٦).

(٢) الحديث: رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» رقم (١٦٤). وأخرجه أيضاً الخرائطي في «فضيلة الشكر» رقم (٣٦) وفي سنده أبو داود الأعمى؛ واسمه نفيع بن الحارث، وهو متروك، وقد كذبه ابن معين، وقد ذكر الحديث السيوطي في «الجامع الصغير» ونسبه للطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «شعب الإيمان» وفي سنده أيضاً (أبو داود الأعمى) وفيه أيضاً عبدالله بن سخبرة وهو مجهول. فالحديث ضعيف.

فيجب عليك ـ أيها المريد ـ مراقبة الأوقات، وإعطاء كل ذي حق حقه، فإنه لا يقضى متى فات.

(٢٠٩) ما فاتَ مِنْ عُمُرِكَ لا عِوَضَ لَهُ، وما حَصَلَ لكَ منه لا قِيمةَ لَهُ.

أي ما فات من عمرك ـ أيها المريد ـ لا عودة له، فإذا أخْلَيْتَهُ من العمل الصالح فاتك خير كثير، وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سَعَىٰ﴾[١] شَمَّرْتَ عن ساعد الجد كل التشمير. وما حصل لك منه لا قيمة له؛ أي لا يقاوم[٢] بشيء لنفاسته، كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: بقية عمر المرء مالها ثمن[٣]، يُدرِك فيها ما فات، ويحيي ما أمات. وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال:

بقيةُ العمرِ عندي ما لها ثَمَنٌ وإنْ غدا غيرَ مَحْسُوبٍ من الزَّمَنِ
يَستدرِكُ المرءُ فيها كلَّ فائتةٍ من الزمانِ ويمحو السوءَ بالحسنِ

(٢١٠) ما أحْبَبْتَ شَيْئاً إلا كنْتَ لَهُ عَبْداً، وهو لا يُحبُّ أنْ تكونَ لغيرِهِ عَبْداً.

أي ما أحببت ـ أيها المريد ـ شيئاً من الأشياء إلا كنت له عبداً، أي منقاداً. كما قال بعضهم:

إذا لعبَ الرجالُ بكلِّ شيءٍ رأيتُ الحبَّ يلعبُ بالرِّجَالِ

وهو تعالى لا يحب أن تكون لغيره عبداً؛ أي لا يرضى بذلك. وفي الحديث: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم والخميصة والقطيفة والزوجة»[٤].

---

(١) سورة النجم: الآية (٣٩) وهي مع ما بعدها: ﴿وأنْ لَيْسَ للإنْسانِ إلا ما سعىٰ * وأنَّ سَعْيَه سوفَ يُرىٰ * ثم يُجزاهُ الجزاءَ الأوْفىٰ * وأنَّ إلى ربِّكَ المُنْتَهىٰ﴾.

(٢) قوله: ﴿لا يقاوم بشيء﴾ أي: لا يقوم مقامه شيء. اهـ. انظر المصباح المنير.

(٣) قوله: ﴿مالها ثمن﴾ أي: لا يعادلها ثمن لنفاستها اهـ.

(٤) الحديث: رواه البخاري مطولاً (٦١/٦) بلفظ: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة. إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة =

وقال الجنيد[1]: إنك لن تكون على الحقيقة له عبدا وشيء مما دونه لك مُسْتَرِق، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديتك بقية، فإن المكاتب عبد ما بقي عليه درهم.

والحاصل: أن محبة الشيء ملزمة للعبودية له، فاجعل محبتك لمن تلزمك عبوديته، وتعود عليك بغاية النفع عنايته، وليس ذلك إلا مولاك. فإن أحببت غيره لا من حيث النسبة له أغضبته؛ لأنه لا يرضى الشَّرِكَةَ. وأما إذا أحببت غيره من حيث النسبة له كالأنبياء والمرسلين والعلماء والصالحين فهو من باب الحب في الله، وهو محمود بلا اشتباه.

(٢١١) لا تَنْفَعهُ طاعتُكَ، ولا تَضُرُّهُ معصيتُكَ، وإنما أمَرَكَ بهذه، ونَهَاكَ عن هذهِ، لما يَعُودُ عَلَيْكَ.

يعني: أن الحق سبحانه لا تنفعه طاعتك ـ أيها المريد ـ فإنه هو الغني الحميد، ولا تضره معصيتك ولا معصية جميع الأنام، فإنه منزه عن أن يصل إليه مكروه من خلقه؛ لعزته التي لا ترام. وإنما أمرك بالطاعة ونهاك عن المعصية لحكمة يرجع نفعها عليك، فاشكر هذه النعمة واستحضرها على الدوام بين عينيك. ثم علل ذلك بقوله:

(٢١٢) لا يَزيدُ في عِزِّهِ إقبالُ مَنْ أقْبَلَ عليهِ، ولا يَنْقُصُ مِنْ عِزِّه إدبارُ مَنْ أدْبَرَ عَنْهُ.

يعني: أنه سبحانه لا يعود عليه نفع من عبيده، ولا يلحقه ضرر منهم؛ لِكَوْنِ عزه الذي هو صفة من صفاته الجامعة كالكبرياء والعظمة في غاية الكمال. لا يعتريه نقص من المعصية، ولا زيادة من الطاعة والإقبال.

= كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع له» ومختصراً (١١/٢٢٦)، ورواه ابن ماجه رقم (٤١٣٥، ٤١٣٦). وليس عندهم لفظة «والزوجة».

(١) انظر ترجمته في تعليق الحكمة رقم (٦٤).

(٢١٣) **وصُولُكَ إلى الله وصولُك إلى العِلْم بهِ، وإلا فَجَلَّ ربُّنا أن يتَّصِلَ به شيءٌ أو يتصل هو بشيءٍ.**

يعني: أن الوصول إلى الله تعالى الذي يشير إليه أهل هذه الطريق فيقولون: فلان واصل، أو من أهل الوصول. إنما هو الوصول إلى العلم الحقيقي بالله تعالى، وهذا هو غاية السالكين ومنتهى سير السائرين. وإلا نُرد ذلك[1] بل أردنا الوصول المفهوم بين الذوات فلا يصح؛ لأنه تعالى منزه عنه إذ لا يتصل من لا شبيه له بمن له شبيه ونظير.

(٢١٤) **قُرْبُكَ منه أنْ تكون مُشاهداً لقُرْبه، وإلا فَمنْ أيْنَ أنْتَ ووجُودُ قُرْبهِ.**

يعني: أن مقام القرب الذي يشير إليه أهل هذه الطريق إنما هو مشاهدتك لقربه تعالى منك قرباً معنوياً لقوله سبحانه: ﴿ونحنُ أقْرَبُ إليهِ مِنْ حَبْلِ الورِيدِ﴾[2] فتستفيد بهذه المشاهدة شدة المراقبة وغلبة الهيبة والتأدب بآداب الحضرة؛ بحيث لا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك. وإلا نرد القرب المعنوي بل أردنا القرب الحسي فلا يصح؛ لأنه لا مناسبة بين القديم والحادث، فلا يليق بك إلا وصف البعد وشهوده من نفسك. كما سيقول المؤلف: إلٓهي ما أقربَك مني وما أبعدني عَنْكَ[3].

(٢١٥) **الحقائِقُ تَرِدُ في حال التَّجلي مُجْملةَ، وبعد الوعْي يكونُ البَيانُ ﴿فإذا قَرأناهُ فاتَّبعْ قُرآنَهُ * ثم إنَّ علينا بيانهُ﴾[4]**

يعني: أن العلوم اللدنية التي يقذفها الحق تعالى في أسرار الأبرار عند

(١) قوله: ﴿وإلا نرد ذلك﴾: أي وإن لم نرد ذلك المعنى المتقدم، بل أردنا الوصول....

(٢) سورة ق: الآية (١٦) وتمامها ﴿ولقد خلقْنا الإنسان ونعْلمْ ما تُوسْوسُ به نفْسُه ونحنُ أقْرَبُ إليه منْ حَبْل الوريد﴾.

(٣) وذلك في المناجاة رقم (٩).

(٤) سورة القيامة: الآية (١٩) وتمامها مع ما قبلها ﴿لا تُحرِّكْ به لسانك لتعْجَل بِهِ * إنّ علينا جمْعهُ وقُرآنهُ * فإذا قرأناهُ فاتَّبعْ قُرآنَهُ * ثُمَّ إنَّ علينا بيانهُ﴾.

براءتهم من الدعوى وتحررهم من رق الأغيار، لا تتوقف على تعلم ولا دراسة، بل هي منح إلّهية في غاية النفاسة، ترد في حال التجلي من الله على قلوبهم مجملة لا تتبين لهم معانيها لعظم تجلي الرحمن. وبعد الوعي بزوال ذلك التجلي يكون البيان، فيتبين لهم معناها وموافقتها لما في أيديهم من العلوم النقلية والعقلية.

فإن الحقيقة موافقة للشريعة لقولهم: حقيقة بلا شريعة باطلة، وشريعة بلا حقيقة عاطلة.

فالحقائق الواردة على قلوب العارفين فيها نوع شبه بالوحي المنزل على سيد العالمين، ولذلك استدل بقوله تعالى: ﴿ فإذا قرأناه ﴾ أي: أقرأناه لك على لسان جبريل: ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ أي: فاستمع لقراءته ثم اقرأه بعد ذلك. ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ أي: بيان معانيه لك.

والمراد هنا: فإذا ألقينا عليك ـ أيها العارف ـ شيئاً من الحقائق اللدنية والعلوم الإلهامية فلا تُعْمِلْ فكرك، وارجع إلينا في تبيين المبهم وتفصيل المجمل، فإن ذلك علينا. وصدْقُ الالتجاء منك أجمل.

(٢١٦) متى وَرَدَتِ الوارداتُ الإلَهيةُ إليكَ[١]، هدَمت العوائدَ عَلَيْكَ ﴿ إنَّ الملوكَ إذا دخلُوا قريةً أفسدُوها ﴾[٢].

أي متى وصلت التجليات الإلّهية إلى قلبك ـ أيها المريد ـ وحصل لك من المعارف والأحوال ما تميز به بين ما للشقي والسعيد، هدمت العوائد التي اعتادتها نفسُك الخبيثة عليك، وقرّبت الأحوال السنية التي يحسن التخلق بها إليك. فإن الواردات الإلّهية لها سلطنة عظيمة كالملوك.

فإذا وردت على قلب مشحون بالخبائث أزالتها عنه حتى يصلح للسلوك.

(١) وفي نسخة: عليك.

(٢) سورة النمل: الآية (٣٤) وتمامها ﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ﴾.

ولذا استدل بقوله تعالى: ﴿إن الملوك﴾ أي: جنودهم. ﴿إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾ أي: أزالو ما تلبس به أهلها من النعيم. وكذلك الواردات الإلّهية شبيهة بجنود الملك، فتقهر القلب على ترك تعلقه بالشهوات، ولا تتركه حتى يستقيم. ثم وضح ذلك بقوله:

(٢١٧) الواردُ يأتي مِنْ حَضْرَةِ قَهَّارٍ؛ لأجْلِ ذلكَ لا يُصادِمُهُ شيءٌ إلا دمَغَهُ ﴿بل نَقْذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فَيَدْمَغُهُ فإذا هو زاهِقٌ﴾[١].

يعني: أن الوارد الإلّهي الذي يرد على قلب العبد الذي أراد الله تخليصه من رق الأغيار يأتي من حضرة اسمه تعالى قهار ـ ومعناه الغالب ـ؛ لأجل ذلك لا يصادمه شيء من رعونات البشرية إلا دمغه؛ أي أصاب دماغه، وفي ذلك إتلافه. وهو أيضاً حق ورد على باطل، وقد قال تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾[١]؛ أي ذاهب. فإذا وردت الواردات الربانية ذهبت بالطبائع العادية، فيصير البخيل كريماً، والجبان شجاعاً، والحريص زاهداً، والكسلان مجتهداً، والغافل متيقظاً، والمتسخط راضياً، والمعتمد على الأسباب متوكلاً، والمصر على المعاصي مستغفراً، إلى غير ذلك من تبديل الخصلة السيئة بالحسنة، حتى لا تصدر من المريد إلا الأمور المستحسنة.

وقد علمت أن هذا إنما يكون لمن أراد الله استخلاصه من الأغيار، فلا ينافي قوله فيما تقدم: (ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشواً بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت)[٢].

أسأل الله تعالى أن يَمُنَّ علينا بجميل الهبات، ويصلح فساد قلوبنا بجنود الواردات.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (١٨)، وتمامها مع ما قبلها ﴿وما خلقْنا السماءَ والأرضَ وما بينهما لاعبين * لو أردْنا أن نتخذ لَهْواً لاتخذناهُ من لدنَّا إنْ كنا فاعلين * بل نَقْذِفُ بالحقِّ على الباطل فَيَدْمَغُهُ فإذا هو زاهقٌ ولكم الويلُ مما تَصِفُونَ﴾.

(٢) انظر الحكمة رقم (٢٠٥).

(٢١٨) كيفَ يَحْتَجِبُ الحقُّ بشيءٍ؟ والذي يحتَجِبُ بهِ هُوَ فيه ظاهرٌ، وموجودٌ حاضرٌ.

هذا كقوله فيما تقدم (كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر في كل شيء)[1] يعني: أنه سبحانه في كل شيء ظاهر؛ لأن به تعالى قام كل شيء، فأهل البصائر يشاهدون أنه في كل موجود حاضر، فكيف يكون ما هو ظاهر فيه حجاباً له حتى يستدل به عليه؟ ما ذاك إلا من عمى البصيرة، وعدم الوصول بأنوار معرفته إليه.

(٢١٩) لا تَيْأسْ مِنْ قَبول عملٍ لم تجدْ فيه وجودَ الحضورِ فربما قُبِلَ من العملِ ما لم تُدْرِكْ ثمرتَه عاجلاً.

أي: إذا لم تجد العلامة على قبول العمل ـ التي هي حضور قلبك فيه مع الله تعالى بأن تلاحظ أنك حاضر بين يديه ـ فلا تيأس من قبوله، فإنها علامة غير مطَّرِدة؛ لأنه ربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته، أي علامة قبوله عاجلاً. وإنما الشرط في القبول الإخلاص، أي: قصد وجه الله بالعمل.

وأما الحضور بالقلب، واستلذاذه بالطاعة، ووجدان حلاوتها، فهي علامات لا شروط.

(٢٢٠) لا تُزَكِّيَنَّ وارداً لا تعلم ثمرتَهُ، فليس المرادُ من السحابة الأمطار، وإنما المراد منها وجود الأثمار.

هذا رجوع منه للكلام على الوارد، يعني: إذا ورد عليك ـ أيها المريد ـ وارد فلا تزكِّيَنَّه؛ أي: لا تمدحنّه، ولا تفرح به حتى تعرف ثمرته وتتحقق بها، وهي تأثر القلب به وتبدل صفاته المذمومة بصفات محمودة، فتنشط الجوارح للأعمال وتقوم بخدمة ذي العزة والجلال. فليس المراد من السحابة الأمطار بل ما ينشأ عن المطر من وجود الأثمار. فكذلك الوارد إذا لم تحصل ثمرته تكون

---

(١) انظر الحكمة رقم (١٦).

تزكيته نوعاً من الاغترار؛ لأنه حينئذ يكون مدحه لحظ النفس فيه من العلم[١] الذي لم يحصل به للقلب استبصار.

(٢٢١) لا تَطْلُبَنَّ بقاءَ الوارداتِ بعد أنْ بَسَطَتْ أنوارَها، وأودعتْ أسرارَها، فَلَكَ في الله غنىً عن كل شيءٍ، وليس يُغنيكَ عنْهُ شيءٌ.

أي لا تطلبن بقاء التجليات والأحوال التي وردت على قلبك بعد أن بسطت عليه أنوارها، فتكَيَّف ظاهرُك وباطنك بكيفيات العبودية، وأودعتْهُ أسرارها، استغناء عنها بالملك المعبود.

كما قال بعض أهل الشهود:

لكـل شيء إذا فـارقْتَـهُ عِـوَضٌ　　وليس لله إنْ فـارقْتَ مِنْ عِـوَضِ

فإن الركون إلى الوارد قادح في إخلاص التوحيد؛ لأنه من الأغيار الشاملة للأنوار والمقامات والأحوال[٢]. فكن عبداً للعزيز الحميد، فإنه إنما أدخلك في

---

(١) الجار والمجرور متعلقان بخبر يكون المحذوف.

(٢) هذه الألفاظ التي ذكرها الشارح هنا هي من ألفاظ السادة الصوفية التي تدور على ألسنتهم، وكلٌ منها له معناه الاصطلاحي عندهم:

فالوارد: ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة والمعارف الربانية، وهو هاتف الحق الذي لا يمكن الجري على خلاف حكمه.

والأغيار: كل ما يشغل عن الله تعالى، أو كل شيء سواه.

والأنوار: الواردات الإلٓهية التي تسمى بالإلهام.

والمقام: ما يتحقق (أي يتصف) به العبد بمنازلته (أي بنزوله) من الآداب، مما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاسات تكلف. فمقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك، وما هو مشتغل بالرياضية له.

والحال: معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو احتياج.

والفرق بين الأخيرين: أن الأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من عين الوجود (أي الفضل والكرم)، والمقامات تحصل ببذل المجهود. وصاحب المقام متمكن في مقامه، وصاحب الحال مترق عن حاله. اهـ الرسالة القشيرية وغيرها بتصرف.

الحال لتأخذ منها لا لتأخذ منك؛ لأنه وجهها إليك باسمه المبدىء، فأبداها حتى إذا أدت ما كان لك فيها أعادها باسمه المعيد وتوفاها. ثم علل ذلك بقوله:

(٢٢٢) تَطَلُّعُكَ إلى بقاءِ غيرِه دليلٌ على عدم وِجْدَانِك لهُ، واستيحاشُكِ لفقدانِ ما سِواهُ دليلٌل على عَدَمِ وُصْلَتِكَ بهِ.

يعني: أن تطلعك وتشوفك إلى بقاء غيره تعالى من الواردات المذكورة وغيرها من المقامات والأحوال والنعم الظاهرية والباطنية دليل على عدم وجدانك له تعالى؛ إذ لو وجدته في قلبك لم تطلب بقاء غيره، ولو وصلت إليه لم تستوحش عند فَقْدِ شيء سواه فإنه غاية المطالب ومنتهى الآمال والمآرب. كما قال بعض العارفين:

كانتْ لقلبيَ أهواءٌ مفرَّقَةٌ ... فاستجمعتْ إذ رأتْكَ العينُ أهوائي
فصارَ يحسدني من كنتُ أحسُدُهُ ... وصِرْتُ مولى الورى مُذْ صرْتَ مَوْلائي
تركتُ للناسِ دنياهم ودينهمو ... شُغْلاً بذكرِكَ يا ديني ودنيائي

(٢٢٣) النَّعيمُ وإن تنوَّعَتْ مظاهرُهُ إنما هو بشهودِهِ واقترابِهِ، والعذابُ وإن تنوَّعَتْ مظاهرُه إنما هو بوجودِ حِجابِهِ، فَسَبَبُ العذابِ وجودُ الحجابِ، وإتمامُ النَّعيمِ بالنظر إلى وَجْهِهِ الكَريمِ.

يعني أن النعيم وإن تنوعت مظاهره التي يظهر فيها من المطاعم والملابس ونحوها في هذه الدار وفي تلك الدار إنما هو بشهوده تعالى بالبصيرة في الدنيا والبصر في الآخرة، واقترابه سبحانه من العبد قرباً معنوياً. وأما إذا لم يكن شهود واقتراب كان ذلك النعيم في الحقيقة عين العذاب؛ فإن العذاب وإن تنوعت مظاهره التي يظهر فيها من أنواع العقوبات: كحميم وزقوم وسلاسل وأغلال إنما هو بسبب احتجاب العبد عن ذي العزة والجلال، وأما عند مشاهدته فليس ذلك بعذاب. وقد وضَّحَ ذلك بقوله: فسبب العذاب وجود الحجاب؛ أي لا تلك المظاهر لذاتها، ولذلك لم تكن النار عذاباً على الملائكة الموكلين بها. ويلوح لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا

الجحيم﴾[١]. ثم قال: وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم أي لا بتلك المظاهر لذاتها.

فـهـجـرهُ أعـظمُ مـن نـارهِ ووصـلُهُ أطـيـبُ مِـنْ جَـنَّـتِـه

أسأل الله جميل الوصال.

(٢٢٤) ما تَجِدُهُ القلوبُ من الهموم والأحزانِ، فلأَجْلِ ما مُنِعَتْ مِنْ وُجودِ العِيانِ.

يعني أن الذي تجده القلوب من الهموم المتعلقة بالمستقبل، والأحزان المتعلقة بالماضي، إنما يكون لأجل ما مُنِعَتْهُ من وجود العِيان ـ بكسر العين المهملة ـ أي معاينة الحق جل شأنه بعين البصيرة، وذلك من نتائج رؤية النفس وبقاء حظها. فلو غاب شخص عن رؤية نفسه بمعاينة سيده كان دائم الفرح، كما أخبر الله عن سيد الأبرار حين قال لصاحبه في الغار: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾[٢]. فمن استنار قلبه بنور المعرفة زال همه، وتباعد عنه غمه. لكنْ مَنْ لم يصل إلى هذا المقام يكون همه مصفياً لقلبه، وموجباً لتطهيره من الذنوب والآثام. فإن الهموم في الأمور الدنيوية ـ كطلب المعيشة ـ كفارات، وفي الأمور الأخروية رفع درجات.

(٢٢٥) مِنْ تمامِ النِّعمةِ عليكَ، أنْ يرزقكَ ما يكفيكَ، ويمْنَعَكَ ما يُطغيكَ.

يعني أن من تمام نعمة الله عليك ـ أيها المريد ـ أن يرزقك ما يكفيك، من غير زيادة ولا نقصان، فإن في الزيادة عن الكفاية الطغيان. قال تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾[٣]. وفي النقصان عن الكفاية الاشتغال عن

---

(١) سورة المطففين: الآية (١٥) و(١٦).

(٢) سورة التوبة: الآية (٤٠) وتمامها ﴿إلا تَنْصُروهُ فقد نصره اللهُ إذْ أخرجه الذين كفروا ثانيَ اثنين إذْ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزَنْ إنَّ الله معنا فأنزلَ اللهُ سكينتَهُ عليه وأيده بجنودٍ لم ترَوْها وجعل كلمةَ الذين كفروا السُّفْلى وكلمةُ الله هي العليا واللهُ عزيزٌ حكيم﴾.

(٣) سورة العلق: الآية (٦) و(٧) وتمام الآيتين ﴿كلا إنَّ الإنسانَ ليطغى * أنْ رآهُ استغنى﴾.

طاعة الله تعالى، والتعرض للسؤال. وقد قالوا: إذا كان العبد في كفاية ثم مال إلى الدنيا سلبه الله حلاوة الزهد. ثم ذكر فائدة تترتب على الرضا بالكفاف فقال:

(٢٢٦) لِيَقِلَّ ما تفرحُ بِهِ، يَقِلَّ ما تحزنُ عليهِ.

أي ليقل الشيء الذي تفرح به من المال والجاه؛ ليقل حزنك عليه عند فقده. فإن المفروح به هو المحزون عليه، إنْ قليلاً فقليل، وإنْ كثيراً فكثير. كما قيل في ذلك:

على قدر ما أولعْتَ بالشيء حُزْنُهُ ... ويصعبُ نَزْعُ السَّهمِ مهما تمكَّنَا

ودرءُ مفسدةِ وجودِ الحزْنِ مقدمٌ على جَلْبِ مصلحة الفرح الذي لا يدوم. كما قيل:

ومَنْ سَرَّهُ أنْ لا يرىٰ ما يسوؤهُ ... فلا يتخذْ شيئاً يَخافُ له فقْدا

فإنَّ صلاحَ المرءِ يَرْجِعُ كلُّهُ ... فساداً إذا الإنسانُ جازَ به الحَدَّا

ثم ذكر ما هو من أفراد ذلك بقوله:

(٢٢٧) إنْ أرَدْتَ أنْ لا تُعْزَلَ فلا تَتَولَّ ولايةً لا تدومُ لكَ.

يعني إن أردت أن لا تعزل فتحزن بسبب العزل عن الولاية فلا تتول ولاية لا تدوم لك. فإنها نعمتِ المرضعةُ وبئستِ الفاطمةُ.

مبتدأً حُلْوٌ لمنْ ذاقَهُ ... ولكنِ انظر خَبَرَ المُبْتَدَأ

كما أشار إلى ذلك بقوله:

(٢٢٨) إنْ رغَّبَتْكَ البداياتُ زَهَّدتْكَ النهاياتُ. إنْ دعاكَ إليها ظاهرٌ نهاك عنها باطنٌ.

يعني إذا رغبتك ـ أيها المغتر ـ بدايات الأمور الدنيوية، كالولاية لرونقها الظاهر، زهدتك نهايتها من العزل عنها ولو بالموت، ونهاك عنها باطنها من كونها شاغلة عن طاعة عالم السرائر. فالأمور الدنيوية في الظاهر تسر، وفي الباطن

تضر. فمتى رغبتك البدايات بتسهيل ما تريد زهدتك النهايات بالوقوع فيما لا تريد. فالعاقل من زهد في الدنيا. وتأملْ قول العزيز القهار: ﴿ إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار ﴾[1].

(٢٢٩) إنَّما جَعَلَها محلاً للأغيارِ، ومَعْدِناً للأكْدارِ، تزهيداً لكَ فيها.

يعني أنه سبحانه إنما جعل الدنيا محلاً للأغيار كالأمراض والمحن، ومعدناً للأكدار التي تكدر الإنسان ـ فهو بمعنى ما قبله ـ ليزهدك فيها، فورود الأكدار من جملة النعم عليك؛ لكونها تزهدك في الدنيا قبل أن يصل ضررها إليك.

(٢٣٠) عَلِمَ أنَّكَ لا تقبلُ النُّصْحَ المجرَّدَ فذوَّقَكَ من ذواقِها ما يُسهِّلُ عليكَ وجودَ فِراقِها.

يعني أن الله سبحانه علم منك ـ يا من استحكم فيك حب الدنيا الفانية ـ أنك لا تقبل نصح الناصحين لك المجرد عن البلايا والأمراض فذوقك من ذواقها؛ أي مما شأنه أن يذاق فيها من تلك المحن ما يسهل عليك فراقها، فإن العبد إذا نزل به شيء من ذلك يتمنى الموت ومفارقة الدنيا. فَعُدَّ ذلك عليك من أعظم المنن، وإن ظهر لك في صورة البلايا والمحن. وأما من لم يستحكم في قلبه حب الدنيا فإن مجرد النصح يكفيه. كما قال بعضهم:

العبدُ يُقْرَعُ بالعصا ... والحرُّ تكفيه الملامَهْ

ولله در القائل:

إنَّ لِلَّهِ عباداً فُطُنَا ... طَلَّقُوا الدنيا وخافُوا الفِتَنا

نظروا فيها فلمَّا عَلِموا ... أنها ليستْ لحيٍ وَطَنَا

جَعَلُوها لجةً واتخذوا ... صالحَ الأعمالِ فيها سُفُنا

---

(١) سورة غافر: الآية (٣٩) وتمامها مع ما قبلها ﴿ وقال الذي آمن يا قوم اتَّبعونِ أهدِكُمْ سبيلَ الرشادِ * يا قومِ إنما هذه الحياةُ الدنيا متاعٌ وإن الآخرة هي دارُ القرارِ ﴾.

(٢٣١) العِلْمُ النَّافعُ هو الـذي يَنْبَسِطُ في الصدر شُعَاعهُ، ويُكْشَفُ به عن القلب قِناعُه.

يعني أن العلم النافع هو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه، والعلم بكيفية التعبد له والتأدب بين يديه؛ لأنه العلم الذي ينبسط في الصدر شعاعه ـ أي نوره ـ فيتسع وينشرح للإسلام، ويكشف به عن القلب قناعه ـ أي غطاؤه ـ فتزول عنه الشكوك والأوهام. قال الجنيد[١]: العلم أن تعرف ربك ولا تعدو قدرك. أي هو معرفة الله وحسن الآداب فلا تغتر بعلم اللسان، وعليك بالعلم الذي يوصلك إلى الكريم الوهاب. كما قال المصنف:

(٢٣٢) خَيْرُ العلمِ ما كانتِ الخَشْيَةُ مَعَه.

يعني أن العلم النافع هو ما كان صاحبه ملازماً للخشية، وهي خوف مع إجلال ينشأ عنه العمل.

وقد أثنى الله تعالى على العلماء بذلك فقال: ﴿ إنما يخشى اللهَ من عبادِهِ العلماءُ ﴾[٢] وأما العالم الذي لا خشية معه فليس عالماً على الحقيقة خصوصاً إذا كان همه الجمع والادخار والمباهاة والاستكبار.

فإن علم هذا حجة عليه، وسبب في جر وبال العقوبة إليه؛ لأنه لا يكون من ورثة الأنبياء إلا إذا كان بصفة الموروث عنه من الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، وتمكن التقوى منه. وما ألطف قول بعضهم:

لو كانَ للعلمِ مِنْ دونِ التُقَىٰ شَرَفٌ ... لكـانَ أفضـلَ خـلقِ اللهِ إبـليسُ

ولقد أحسن من قال:

قـالـوا فـلانٌ عـالـمٌ فـاضـلٌ ... فـأكـرمـوه مـثـلَ مـا يُـرْتَضَـى

فـقـلتُ لـمـا لـم يـكـنْ ذا تُـقَـىٰ ... تَعـارَضَ المـانـعُ والـمقْـتَضَـىٰ[٣]

---

(١) تقدمت ترجمته في التعليق على الحكمة (٦٤).

(٢) سورة فاطر: من الآية (٢٨).

(٣) المراد بالمانع هنا عدم التقى، والمراد بالمقتضى الإكرام، ولما تعارضا امتنع الإكرام.

وناهيك قوله سبحانه في كتابه المكنون: ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾[1]. فالزم الطاعة إن أردت أن تكون من العلماء العاملين، واستعذ بالله من علم لا ينفع كما استعاذ منه سيد الأولين والآخرين.

ثم أكد المصنف ذلك بقوله:

(٢٣٣) العلمُ إنْ قارنَتْهُ الخشيةُ فلَكَ، وإلا فعَلَيْكَ.

يعني أن العلم النافع الذي يكون لك ثوابه، هو ما قارنته الخشية من الله تعالى، فتداوم العمل. وإلا بأن قصدت به المباهاة والتعاظم فعليك وزره، وخاب منك الأمل. فإنه لا يكون العلم نافعاً إلا إذا كانت نية صاحبه طلب مرضاة مولاه، واستعماله فيما يحبه ويرضاه؛ لأن التقرب إلى الله تعالى بالعلم هو مقصود الأكابر من القوم. وناهيك قوله ﷺ: «كلُّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى ربي فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم»[2] وقد قالوا: مَثَلُ مَنْ قطع الأوقات في طلب العلم فمكث أربعين أو خمسين سنة يتعلم ولا يعمل، كمثل من قعد هذه المدة يتطهر ويجدد الطهارة ولم يصل ركعة واحدة. إذ المقصود من العلم العمل، كما أن المقصود بالطهارة وجود الصلاة.

وقد سُمِعُ أبو داود الطيالسي[3] يحدث عن شعبة أنه كان يقول: الإكثار من

---

(١) سورة الروم: الآية (٧).

(٢) الحديث: رواه ابن عدي في «الكامل» وأبو نعيم في «الحلية» (١٨٨/٨) والخطيب البغدادي في «تاريخه» (٦/ ١٠٠) والطبراني في «الأوسط» من طرق عن الحكم بن عبدالله عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عائشة مرفوعاً، والحكم بن عبدالله بن خطاف أبو سلمة، قال الذهبي عنه في «الميزان»: قال أبو حاتم: كذاب. وقال الدارقطني: كان يضع الحديث، روى عن الزهري عن ابن المسيب خمسين حديثاً لا أصل لها. وذكره الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» وقال: سنده ضعيف. فالحديث ضعيف جداً بل موضوع، لأن مداره على كذابين.

(٣) هو: سليمان بن داود بن الجارود، مولى قريش: من كبار حفاظ الحديث. فارسي الأصل. سكن البصرة وتوفي بها. كان يحدث من حفظه. سُمِع يقول: أسرد ثلاثين ألف حديث، ولا فخر. له مسند مطبوع جمعه بعض الحفاظ الخراسانيين. (١٣٣ - ٢٠٤ هـ) (٧٥٠ - ٨١٩ م)=

هذا الحديث يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون. فإذا كان الإكثار من طلب الحديث بهذه المثابة عند هذين الإمامين مع ما فيه من الفوائد الأخروية، فما ظنك بغيره من محدثات العلوم ومبتدعاتها، وقد ذُكر طلب العلم عند الإمام مالك(1) فقال: إنَّ طلبه لحسنٌ إذا صحت فيه النية، ولكن انظر ماذا

= اهـ «الأعلام» للزركلي (٣/١٨٧).

وقال عنه السلمي في «طبقاته»: مولى آل الزبير. أبو داود الطيالسي البصري. أحد الأعلام الحفاظ. روى عن هشام بن أبي عبد الله، وخلق. قالوا: أبو داود أصدق الناس. وقال أحمد: ثقة، يحتمل خطؤه. وقال وكيع: جبل العلم. مات سنة أربع ومائتين عن إحدى وسبعين سنة. اهـ «طبقات الصوفية» (ص ٢٩٢، حاشية أ).

(١) هو: مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبدالله: إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية. مولده ووفاته بالمدينة. كان صلباً في دينه. وجه إليه الرشيد العباسي ليأتيه فيحدثه، فقال: العلم يؤتى، فقصد الرشيد منزله واستند إلى الجدار، فقال مالك: يا أمير المؤمنين من إجلال رسول الله ﷺ إجلال العلم، فجلس بين يديه، فحدثه. (٩٣ - ١٧٩ هـ) (٧١٢ - ٧٩٥ م). اهـ «الأعلام» للزركلي (٦/١٢٨) باختصار.

ترجمه ابن الجوزي في «صفة الصفوة» قال: وعن مطرف بن عبد الله قال: كان مالك بن أنس طويلاً عظيم الهامة أصلع أبيض الرأس واللحية، شديد البياض إلى الشقرة. ولباسه الثياب العدنية الجياد، ويكره حلق الشارب ويعيبه ويراه من المُثَل. وعن أبي مصعب قال: سمعت مالك بن أنس يقول: ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك. وعنه قال: ما أجبت في الفتيا حتى سألت من هو أعلم مني: هل يراني موضعاً لذلك. وعنه قال: ما أجبت في الفتيا حتى سألت من هو أعلم مني: هل يراني موضعاً لذلك؟ سألت ربيعة، وسألت يحيى بن سعيد، فأمراني بذلك. فقلت: يا أبا عبد الله! فلو نَهَوْك؟ قال: كنت أنتهي، لا ينبغي للرجل أن يرى نفسه أهلاً لشيء حتى يسأل من هو أعلم منه. وعن ابن أبي أويس قال: كان مالك إذا أراد أن يُحَدِّثَ توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في الجلوس بوقار وهيبة ثم حدّث. فقيل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظِّم حديث النبي ﷺ ولا أحدث به إلا على طهارة متمكناً. وعن عبد الله بن وهب قال: سمعت مالك بن أنس يقول: ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يضعه الله في القلب. وعن ابن مهدي قال: سأل رجل مالكاً عن مسألة فقال: لا أُحسِنها. فقال الرجل: إني ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عنها. فقال له مالك: فإذا رجعت إلى مكانك وموضعك فأخبرهم أني قلت لك لا أُحسِنها.

وعن حنبل بن إسحاق قال: سألت أبا عبدالله عن مالكٍ فقال: مالكٌ سيّدٌ من سادات أهل =

يلزمك من حينِ تصبح إلى حين تمسي، ومن حينِ تمسي إلى حين تصبح، فلا تؤثرن عليه شيئاً.

(٢٣٤) متى آلمَكَ عَدَمُ إقبالِ الناس عليكَ، أو توجُّهُهُمْ بالذم إليك، فارجع إلى عِلْمِ اللهِ فيكَ، فإن كان لا يُقْنِعُكَ علمُهُ، فمصيبتُكَ بعدمِ قناعتِكَ بعلمِهِ أشدُّ من مصيبتكَ بوجودِ الأذى مِنْهم.

يعني متى أوجعك عدمُ إقبال الناس عليك بالمدح، أو آلمك توجههم إليك بالذم، فارجعِ إلى علم الله فيك، فإنه هو الذي يعلم ظاهرك وخافيك، فإن كنت عنده مخلصاً في أعمالك فلا تغتم لذم الذامين، وإن كنت عنده ممقوتاً فلا تغتر بمدح المادحين، فإن كان لا ينفعك علم الله تعالى بك بل نظرت إلى ما من المخلوقين، فمصيبتك الحاصلة لك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم؛ لبعدك عن رب العالمين.

فلا ينبغي للمريد أن يكون مطمح نظره إلا إلى مولاه، فلا يفرح إلا بإقباله عليه، ولا يحزن إلا لإعراضه عنه والعياذ بالله.

(٢٣٥) إنَّما أجرىٰ الأذىٰ على أيديهم كيْ لا تكونَ ساكناً إليهم. أرادَ أنْ يزعجَكَ عن كل شيءٍ؛ حتى لا يَشْغَلَكَ عنه شيءٌ.

يعني أنه سبحانه إنما أجرى الأذى لك ـ أيها المريد ـ على أيدي الخلق؛ لأجل أن لا تكون مائلاً إليهم بقلبك. فهو في الحقيقة نعمة عليك؛ لأنه أوصلك إلى من لا تصلِ النعم إلا منه إليك.

قال بعض العارفين: الصيحة من العدو سوط الله، يضرب به القلوب إذا ساكنت غيره. ولولا ذلك لرقد العبد في ظل العز والجاه، وهو حجاب عن الله عظيم.

وكان بعض العارفين يقول في دعائه: اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لهم

= العلم، وهو إمام في العلم والفقه. ثم قال: ومن مثل مالك مُتَّبِع لآثار من تقدم مع عقل وأدب؟ ا هـ «صفة الصفوة» (٢/ ١٧٧ ـ ١٧٩) باختصار.

خلقك، فسخرت لهم خلقك فرضوا منك بذلك. اللهم إني أسألك اعوجاج الخلق عَلَيَّ، حتى لا يكون لي ملجأٌ إلا إليك.

وقال في لطائف المنن[1]: اعلم أن أولياء الله، حكمهم في بداياتهم أن يسلط الخلق عليهم؛ ليطهروا من البقايا، وتكمل فيهم المزايا، ولئلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد، ومَنْ آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه. ولذلك قال ﷺ: «من أسدى إليكم معروفاً فكافؤوه[2] فإن لم تقدروا فادعوا الله له»[3]. كل ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخلق، وليتعلق بالملك الحق.

وقول المصنف: أراد أن يزعجك إلخ بمعنى ما قبله، يعني أراد أن ينفرك من كل شيء سواه؛ حتى لا يشغلك عنه سبحانه شيء. وذلك من أكبر النعم عليك من الله.

قال أبو الحسن الشاذلي[4]: آذاني إنسان مرة، فضقت ذرعاً بذلك، فنمت فرأيت يقال لي: من علامة الصدِّيقيَّة كثرة أعدائها ثم لا يبالىٰ بهم.

---

(١) هو كتاب لابن عطاء رحمه الله تقدم التعريف به في تعليق الحكمة رقم (٢٩).

(٢) كذا رسمت، والصواب فكافئوه.

(٣) الحديث: وهو جزء من حديث طويل، رواه أحمد في «المسند» (٦٨/٢) والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٢١٦) عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن أتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى يعلم أن قد كافأتموه» وأبو داود رقم (١٦٧٢) والنسائي (٨٢/٥) وابن حبان في «صحيحه» رقم (٢٠٧١) و«موارد الظمآن» والحاكم في «المستدرك» (٤١٢/١)، من حديث عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وهو حديث صحيح. ورواه أحمد في «المسند» (٥١٢/٢) والحاكم في «المستدرك» (٤١٣/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٢١٥) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما. ورواه الطبراني في «الكبير» من حديث الحكم بن عمير.

(٤) تقدمت ترجمته في تعليق الحكمة رقم (١٥).

(٢٣٦) إذا علمتَ أنَّ الشيطانَ لا يغفُلُ عنكَ، فلا تغفُلْ أنتَ عَمَّنْ ناصيتُكَ بيدِهِ.

يعني إذا تيقنت ـ أيها المريد ـ بالأدلة القطعية أن الشيطان لا يغفل عن إغوائك، ومحاربتك من كل جهة، كما قص الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾[١]. قال ابن عباس[٢]: من بين أيديهم أشككهم في آخرتهم، ومن خلفهم أرغبهم في دنياهم، وعن أيمانهم أشبه عليهم أمر دينهم، وعن شمائهم أزين لهم المعاصي وأحقق لهم الباطل. فلا تغفل أنت عن مولاك الذي ناصيتك بيده؛ أي قدرته،

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٧) وتمامها مع ما قبلها ﴿قال فبما أغْويتَني لأقعدَنَّ لهم صراطَكَ المستقيمَ * ثم لآتينَّهم مِنْ بين أيديهم ومِنْ خلفهم وعن أيمانهم وعن شَمائلهم ولا تجدُ أكثرَهُمْ شاكرين﴾.

(٢) هو: عبدالله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، أبو العباس، ابن عم رسول الله ﷺ. أمه أم الفضل لُبَابة بنت الحارث الهلالية. وُلِد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث. وفي الصحيح عنه أن النبي ﷺ ضمه إليه، وقال: «اللهم عَلِّمه الحكمة». وكان يقال له حبر العرب وقال ابن مندة: كان أبيض طويلاً مشرباً صفرة جسيماً وسيماً صبيح الوجه له وفرة يخضب بالحناء. وروى أبو الحسن المدائني عن سُحَيم بن حفص عن أبي بكرة قال: قدم علينا ابن عباس البصرة وما في العرب مثله جسماً وعلماً وثياباً وجمالاً وكمالاً. وفي معجم البغوي عن ابن عمر أنه كان يقرب ابن عباس ويقول: إني رأيت رسول الله ﷺ دعاك فمسح رأسك وتفل في فيك، وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». وقال الدارمي والحارث في مسنديهما جميعاً: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا جرير بن حازم، عن يعلى بن حكيم، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلُمّ فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير. قال [: فقال]: واعجباً لك! أترى الناس يفتقرون إليك؟ قال: فترك ذلك وأقبلت أسأل، فإن كان ليبلغني الحديث عن رجل فآيت بابه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه تُسْفِي الريح عليّ من التراب، فيخرج فيراني فيقول: يا ابن عم رسول الله، ما جاء بك؟ هلا أرسلت إليّ فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث. فعاش الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي ليسألوني. فقال: هذا الفتى كان أعقلَ مني. ا هـ «الإصابة» (٤/١٤١ ـ ١٤٥).

وذلك بتحقيق عبوديتك له، وتوكلك عليه، واعتصامك به، والتجائك إليه. فإن الله تعالى يكفيك شره. كما قال سبحانه: ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً ﴾[1] ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾[2].

قال بعض العارفين: الشيطان منديل هذه الدار؛ يعني يُمسح به أقذارُ النِسْبِ[3]، وهي نسبة الشرورِ وأنواعِ المعاصي والفساد إليه أدباً مع الله تعالى. وهذا سر إيجاده كما قال تعالى: ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿هذا من عمل الشيطان﴾[5]. وأما أنَّ له حولاً وقوة يضر بها أو ينفع فلا ا هـ.

وفي الحديث: «إن إبليس قال: وعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم فقال الله عزّ وجلّ: وعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني»[6].

وقال ذو النون المصري[7]: إن كان هو يراك من حيث لا تراه، فإن الله يراه من حيث لا يرى الله، فاستعن بالله عليه.

---

(١) سورة النساء: الآية (١٢٢) وتمامها ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سَنُدْخِلُهُمْ جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً وَعْدَ الله حقاً ومَنْ أصدقُ من الله قيلاً ﴾.

(٢) سورة الإسراء: الآية (٦٥).

(٣) قال في المصباح المنير: وانتسب إليه اعتزى، والاسم النِسْبَة بالكسر، فتجمع على نِسْب مثل سِدْرة وسِدْر، وقد تضم فتجمع مثل غُرفه وغُرَف.

(٤) سورة الكهف: الآية (٦٣)، وتمامها ﴿ قال أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصخرةِ فإني نسيتُ الحوتَ وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أذكرَهُ واتخذَ سبيلَهُ في البحرِ عجباً ﴾.

(٥) سورة القصص: الآية (١٥)، وتمامها ﴿ ودخَلَ المدينةَ على حينِ غفلةٍ من أهلها فوجد فيها رجلين يقْتَتِلانِ هذا مِنْ شيعته وهذا من عدوِّه فاستغاثَهُ الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزَهُ موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطانِ إنه عدوٌ مُضِلٌ مبينٌ ﴾.

(٦) الحديث: رواه بهذا اللفظ أحمد في «المسند» (٣/٤١) والحاكم في «المستدرك» (٤/٢٦١) والبغوي في «شرح السنة» (٥/٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، فإنه حديث صحيح بطرقه. وذكره الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٢٠٧) وزاد نسبته لأبي يعلى الموصلي.

(٧) ومنهم أبو الفيض ذو النون المصري، واسمه ثوبان بن إبراهيم، وقيل الفيض إبراهيم. وأبوه =

(٢٣٧) جَعَلَهُ لكَ عدواً ليحُوشَكَ به إليه، وَحَرَّكَ عليكَ النَّفْسَ ليدومَ إقبالُكَ عليهِ.

أي جعل الله لك الشيطان عدواً كما قال تعالى: ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾[1] ليحوشك، أي ليردك به إليه سبحانه. فإنك إذا عرفت أنك لا تطيق رَدَّ غِوايتِهِ لك بنفسك، اضطررت إلى الاستعانة عليه بربك، فكان تسليطه في الحقيقة من الله عليك نعمة. فاشكر مولاك الحكيم عليها، وتأمل بفكرك هذه الحكمة. وكذلك حَرَّكَ عليك النفس بطلب متابعة الشهوة والهوى؛ ليدوم إقبالك عليه تعالى، فإنك لا تقدر على مجاهدتها وقمع شهواتها إلا بمعونة مولاك، فإذا أرجعك بها إليه فقد بلَّغَكَ مناك.

وكأن المصنف رضي الله عنه يشير إلى الأعداء الأربعة المجموعة في قول بعضهم:

= كان نوبياً. توفي سنة خمس وأربعين ومائتين. فائق هذا الشأن، وأوحد وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً. سعوا به إلى المتوكل، فاستحضره من مصر. فلما دخل عليه، وعظه فبكى المتوكل، ورده إلى مصر مكرماً. وكان المتوكل إذا ذكر بين يديه أهل الورع يبكي ويقول: إذا ذكر أهل االورع فحيهلا بذي النون. وكان رجلاً نحيفاً، تعلوه حمرة، ليس بأبيض اللحية. ا هـ «الرسالة القشيرية» ص (٨).

وفي «صفة الصفوة». قال: قال ابن الجلاَّء: لقيت ستمائة شيخ ما لقيت فيهم مثل أربعة، أحدهم ذو النون. وقال يوسف بن الحسن: سمعت ذا النون يقول: بصحبة الصالحين تطيب الحياة، والخير مجموع في القرين الصالح؛ إن نسيت ذكرك، وإن ذكرت أعانك. وقال يوسف بن الحسين: سمعت ذا النون يقول: سقم الجسد في الأوجاع، وسقم القلوب في الذنوب، فكما لا يجد الجسد لذة الطعام عند سقمه، كذلك لا يجد القلب حلاوة العبادة مع الذنوب. ا هـ (٤/٣١٥).

وانظر بعض أخباره في «طبقات الصوفية» ص (١٥ ـ ١٦).

(١) سورة فاطر: الآية (٦)، وتمامها مع ما قبلها ﴿ يا أيها الناسُ إنَّ وعْدَ اللهِ حقٌ فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدنيا ولا يغرنَّكم بالله الغَرُور * إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌ فاتخذوهُ عدوّاً إنَّما يدعو حِزْبَهُ ليكونوا من أصحابِ السَّعيرِ ﴾.

إنـي بُلِيتُ بـأربـعٍ يَـرْمينني بـالنّبلِ عن قـوسٍ لها تَـوْتيرُ
إبليسُ والـدُّنيـا ونفسي والهـوىٰ يـا ربِّ أنتَ على الخلاصِ قَديرُ

(٢٣٨) مَنْ أثْبَتَ لنَفْسِهِ تواضُعاً فهو المتكبِّرُ حقّاً، إذْ ليسَ التواضُعُ إلا عن رِفْعَةٍ، فمتى أثبتَّ لنفْسِكَ تَواضُعاً[١] فأنْتَ المُتَكَبِّرُ.

يعني أن من أثبت لنفسه تواضعاً بأن خطر بباله أنه متواضع فهو المتكبر حقاً، إذ ليس التواضع الذي أثبته لنفسه ناشئاً إلا عن شهود رفعة كان يستحقها وتنازل عنها إلى ما دونها. وشهود ذلك هو عين التكبر.

فمتى أثبت لنفسك تواضعاً وشاهدت أنك نزلت عن الدرجة التي تستحقها، فأنت المتكبر بها، ولا ينتفي عنك التكبر إلا بوجود الصفة حقيقة؛ بأن لا ترى لنفسك قيمة ولا مرتبة. كما قال الشبلي[٢]: من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب. وعلامة المتحقق بهذا الخُلُق أن لا يغضب إذا عوتب، ولا يكره أن يذم أو يقذف بالكبائر، ولا يحرص أن يكون له عند الناس قدر أو جاه.

وقال أبو يزيد[٣]: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر. قيل: فمتى يكون متواضعاً؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقاماً أو حالاً.

وتواضعُ كلِّ أحد على قدر معرفته بربه وبنفسه. فقد كان بعض العارفين إذا عارضه في الطريق كلب يوسع له، ويمشي هو أسفل منه ويقول: هو أولى بالكرامة؛ لأني كثير الذنوب والكلب لا ذنب له.

وقال بعضهم: لا يجوز للإنسان أن يرى لنفسه مزية على غيره ولو كافراً؛ لعدم أمن العاقبة. وناهيك قوله تعالى: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم

---

(١) وفي نسخة: فمتى أثبتَّ لنفسك رفعةً فأنت المتكبر حقاً. اهـ.
(٢) تقدمت ترجمته في تعليق الحكمة رقم (٧٧).
(٣) تقدمت ترجمته في تعليق الحكمة رقم (١٧٩).

الخاسرون ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾[2].

وفي الحديث: «لَقلبُ ابن آدم أشد انقلاباً من القِدْرِ إذا استجمعت غلياناً»[3]. وكان ﷺ كثيراً ما يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[4].

ثم وضح ما تقدم بقوله:

(٢٣٩) ليس المتواضعُ الذي إذا تواضعَ رأىٰ أنه فوقَ ما صَنَعَ، ولكنَّ المتواضعَ الذي إذَا تواضعَ رأى أنه دونَ ما صَنَعَ.

فمن جلس في آخر المجلس مثلاً، ورأى أنه يستحق الجلوس في صدره، وإنما فعل ذلك تواضعاً، فهو المتكبر.

ومن رأى أن مرتبته أحط من ذلك، وأن جلوسه في آخر المجلس فوق ما يستحق؛ لكونه لا يرى لنفسه قدراً ولا رتبة، فهو المتواضع.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٩٩)، وتمامها ﴿ أفأَمِنوا مَكْرَ اللهِ فلا يَأْمَنُ مكـرَ اللهِ إلا القومُ الخاسرونَ ﴾.

(٢) سورة الأنفال: الآية (٢٤)، وتمامها ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسولِ إذا دعاكم لما يُحْيِيكم واعلموا أنَّ الله يحولُ بين المرءِ وقلبِهِ وأنَّهُ إليهِ تُحْشَرونَ ﴾.

(٣) الحديث: رواه أحمد في «مسنده» (٦/٤) والحاكم في «المستدرك» (٢/٢٨٩) من حديث المقداد بـن الأسود ـ رضي الله عنه ـ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. وذكره الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/٢١١) وقال رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها ثقات.

(٤) الحديث: رواه الترمذي رقم (٢١٤١) وأحمد في «المسند» (٣/١١٢، ٢٥٧) والحاكم في «المستدرك» (١/٥٢٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. ورواه الترمذي رقم (٣٥٨١) من حديث شهاب الجرمي رضي الله عنه، ورواه ابن ماجه رقم (١٩٩) في المقدمة، وأحمد في «المسند» (٤/١٨٢) والحـاكم (١/٥٢٥)، (٤/٣٢١) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه. ولفظ ابن ماجه «يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك» ورواه أحمد في «المسند» (٦/٢٥١) من حديث عائشة رضي الله عنها. وأحمد في «المسند» (٦/٢٩٤، ٣٠١، ٣١٥) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وهو حديث صحيح.

(٢٤٠) التواضُعُ الحقيقيُّ هو ما كانَ ناشئاً عن شُهودِ عَظَمَتِهِ، وتجلِّي صِفَتِهِ.

يعني أن التواضع الحقيقي الذي لا يبقى معه شائبةُ كِبْرٍ، هو ما كان ناشئاً عن شهود عظمته تعالى، وتجلي صفته على العبد. كما قال في عوارف المعارف[1]: لا يبلغ العبد حقيقة التواضع إلا عند لمعانِ نورِ المشاهدةِ في قلبه، فعند ذلك تذوب النفس، وعند ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب، فتلين وتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها، وسكون وهجها وغليانها.

ثم علل ذلك بقوله:

(٢٤١) لا يُخْرِجُكَ عن الوَصْفِ إلا شهودُ الوَصْفِ.

أي لا يخرجك عن وصفك النفساني إلا شهودُ الوصف الرباني، فإذا لم تشهد عظمته وكبرياءه وجلاله فلا تتوهم أن لك نصيباً من التواضع الحقيقي، فقف عند حدك، واعرف قدر نفسك، ولا تدَّعِ أحوال الرجال قبل أن تظفر بالنوال. وهذا وإن كان مرتباً على ما قبله لكنه أعم منه. فلا يخرجُك عن شهود القدرة والقوة من نفسك إلا شهودُ قدرة الله تعالى وقوته، ولا يخرجك عن شهود الغنى لك إلا شهود غناه، ولا يخرجُك عن شهود العزة لنفسك إلا شهود عزته. فتبقى بربك في الكل لا بنفسك. فتدبر ذلك، وجدَّ في مرضاة مولاك قبل حلول رمسك.

(٢٤٢) المؤمنُ يَشْغَلُهُ الثناءُ على اللهِ عن أن يكون لنفسِهِ شاكراً، وتَشْغَلُهُ حقوقُ اللهِ عن أنْ يكونَ لحظوظِهِ ذاكراً.

يعني أن المؤمن الحقيقي ذاهب عن نفسه، فلا يرى لها عملاً صالحاً.

---

(١) عوارف المعارف: كتاب في التصوف للشيخ شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبدالله السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢ قال في خطبته: لا يزال في كل عصر منهم علماء قائمون بالحق ويظهر في الخلق آثارهم من اقتدى بهم اهتدى ومن أنكرهم ضل واعتدى ثم إن إيثاري لهديهم ومحبتي لهم علماً بشرف حالهم وصحة طريقهم المبنية على الكتاب والسنة حداني أن أذب عن هذه العصابة بهذه الصبابة... وهو مشتمل على ثلاثة وستين باباً كلها في سِيَرِ القوم وأحوالهم وأعمالهم كما ذكر. اهـ «كشف الظنون» (١١٧٧/٢).

وإنما يشاهد الأفعال من الله تعالى، فإذا صلى أو صام أو فعل شيئاً من الطاعات، شغله الثناء على الله الذي أوجد ذلك فيه، ووفقه له عن أن يكون لنفسه شاكراً؛ لعدم رؤيته لنفسه. كما تشغله حقوق الله ـ أي مراعاتها ـ بأن يعبده لذاته عن أن يكون لحظوظه من طمع في جنة أو خوف من نار ذاكراً. كما وضح ذلك بقوله:

(٢٤٣) ليس المحبُّ الذي يَرْجو من مَحْبُوبِهِ عوضاً، أو يطلُبُ منه غرضاً. فإنَّ المحبَّ من يَبْذُلُ لكَ، ليس المحبُّ مَنْ تَبْذُلُ لَهُ.

يعني ليس المحب الحقيقي هو الذي يرجو من محبوبه عوضاً على أعماله؛ كدخول الجنة أو النجاة من النار، أو يطلب منه غرضاً من الأغراض الدنيوية أو الأخروية. فإن المحب الحقيقي من يبذل لك ـ بفتح التحتية وضم المعجمة بينهما موحدة ـ أي يعطيك. كما قال القائل:

إنَّ المحبَّ إذا أحبَّ حبيبَهُ ... تلقاه يبذلُ فيه ما لا يُبْذَلُ

ولابن الفارض[1]:

ما لي سوى روحي وباذلُ نفسِهِ ... في حبِّ مَنْ يهواه ليس بمُسْرِفِ
فلئن رضيتَ بها لقد أسْعَفْتَني ... يا خيبةَ المسعىٰ إذا لم تُسْعِفِ

وقال أبو عبدالله القرشي[2]: حقيقةُ المحبة أن تهب كلَّك لمن أحببته حتى لا يبقى لك منك شيء. وما ألطف قول بعضهم:

(١) تقدمت ترجمته في تعليق الحكمة رقم (١).

(٢) هو: مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير أبو عبدالله القرشي. عن الزبير بكار قال: كان مصعب بن ثابت من أعبد أهل زمانه. صام خمسين سنة. قال الزبير: وحدثني يحيى بن مسكين قال: ما رأيت أحداً قط أكثر ركوعاً وسجوداً من مصعب بن ثابت، كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة ويصوم الدهر. قال محمد بن سعد: توفي مصعب بن ثابت سنة سبع وخمسين ومائة. رحمه الله. اهـ «صفة الصفوة» لابن الجوزي (١٧٦/٢).

ومما قاله الشعراني عنه في «طبقاته»: كان رضي الله عنه جليل القدر، وكان يعظم الفقراء =

لئن بقيَتْ في العينِ منّيَ قطرةٌ فإني إذاً في العاشقينَ ذليلُ

وقوله: (ليس المحب) أي الحقيقي (من تبذل له) لأن المحبة الحقيقية أخْذُ خصالِ المحبوب لحبة قلب المُحِب، فلا يكون عنده التفات لغير محبوبه. فمن عبده تعالى لجنته، فليس محباً له بل للجنة. كما قال بعضهم:

وما أنا بالباغي عن الحب رِشْوةً ضعيفُ هوىً يرجو عليه ثوابا

(٢٤٤) لولا ميادينُ النّفوسِ ما تحقَّقَ سيرُ السائرين، إذ لا مسافةَ بينكَ وبينه حتى تطويَها رحلتُكَ، ولا قُطْعَةَ[1] بينكَ وبينهُ حتى تمحوَهَا وُصْلَتُكَ.

يعني لولا شهوات النفوس ومألوفاتها التي تخوض فيها وتتعشقها، كما تخوض الفرسان في الميادين الواسعة التي تجول فيها الخيل، ما تحقق سير السائرين أي ما تُصُوِّر سيرٌ من أيِّ مريدٍ. فإن الله تعالى أقرب إليه من حبل الوريد، ولو تطهرت النفوس لعلمت أنها في حضرة القدوس. فالسير إلى الله إنما هو قطع عقبات نفسك. فإن البعد منسوب إليك لا إلى ربك؛ إذ لا مسافة حسية بينك وبينه تقطعها رحلتك، لأنها لا تكون إلا بين متماثلين. ولا قُطْعة بضم القاف أي لا مقاطعة توجب البعد المعنوي بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك؛ لأن ذلك لا يكون إلا بين متعاديين، وأين أنت من معاداة ربك. فليس ثَمَّ حجابٌ يمنع وصولك غيرُ نفسك، ولا يزول ذلك الحجاب إلا بإماتتها وتطهيرها من كل ما يغضب رب الأرباب، ولا يكون ذلك في الغالب إلا بتسليمها لشيخ عارف بمالها من الأحوال، فإنك تصل بالانقياد إليه إلى أعلى مراتب الكمال.

(٢٤٥) جَعَلَكَ في العالَمِ المتوسِّطِ بين مُلْكِهِ ومَلَكوتِهِ؛ ليُعْلِمَكَ جلالةَ قدْرِكَ بينَ مخلوقاتِهِ، وأنك جَوْهَرَةٌ تنطوي عليكَ أصدافُ مكوَّناتِهِ.

أي جعلك أيها الإنسان عالَماً متوسِّطاً بين مُلكه ـ بضم الميم ـ وهو عالَم

= أشد تعظيم، ويقول: إنهم انتسبوا إلى الله تعالىٰ. وكان رضي الله عنه يقول: ما رأينا أحداً قط أنكر على الفقراء، وأساء بهم الظن إلا ومات على أسوأ حال. اهـ «الطبقات الكبرى» للشعراني (١٢٦/١).

(١) وفي نسخة: ولا قطيعة.

الشهادةَ، وملكوته وهو عالَم الغيب. ولم يجعلك ملكياً محضاً ولا ملكوتياً محضاً، بل جعل فيك من عالم الملك جسمك، ومن عالم الملكوت روحك وسرك؛ ليُعْلِمَكَ جلالة قدرك بين مخلوقاته، حيث جمعت بين الظاهر والباطن، وبين الجسمانيات والروحانيات، ففيك انطوى العالم الأكبر[1]. ومتى تدبرت ذلك علمت أنك جوهرة نفيسة، تنطوي أي تحتوي عليك للخدمة والحفظ مكوَّناته التي هي لك كالأصداف المحيطة بالجوهرة. فإن الله تعالى سخر لك جميع مخلوقاته لنفعك كما قال تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾[2] فينبغي لك أن ترفع همتك عن الأكوان، وتشتغل بعبادة الكريم المنان، فإنه يقبح منك أن تخدم الخدم وتترك عبادة مولي النعم.

وفي بعض الكتب المنزلة: يا ابن آدم خلقتُ الأشياءَ كلها من أجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له. وقد بين العلامة الشرقاوي انطواء العوالم في الإنسان بقوله: ففيه من صفات الملائكة العقل والمعرفة والعبادة. ومن صفات الشياطين الإغواء والتمرد والطغيان. ومن صفات الحيوانات أنه في حالة الغضب يكون أسداً، وفي حالة غلبة الشهوة يكون خنزيراً لا يبالي أين يلقي نفسه، وفي حالة الحرص على الدنيا والشره يكون كلباً، وفي حالة الاحتيال والخداع يكون ذئباً. ومن صفات النبات والأشجار أنه يكون في مبدئه غصناً طرياً مترعرعاً وفي آخره يابساً أسود. ومن صفات السماء أنه محل الأسرار والأنوار ومجمع الملائكة. ومن صفات الأرض أنه محل لبنات الأخلاق والطباع، ومنه اللين والخشن. ومن صفات العرش أن قلبه محل التجلي. واللوح أنه خزانة العلوم. والقلم أنه ضابط لها. والجنة أنه إذا حسنت أخلاقه تنعم به جليسه. والنار أنه إذا قبحت أخلاقه احترق به جليسه.

---

(١) هذا عجز بيت وتمامه:

وتزعم أنك جِرْمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالَمُ الأكبرُ

(٢) سورة الجاثية: الآية (١٣)، وتمامها: ﴿وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون﴾.

(٢٤٦) إنما وَسِعَكَ الكونُ من حيثُ جُثْمانيَّتُكَ[1]، ولم يَسَعْكَ من حيثُ ثُبوتُ روحانيَّتِكَ.

يعني أنك مناسب للكون ـ أي العالم السفلي وهو الأرض ـ من حيث جثمانيتك ـ بضم الجيم وسكون المثلثة ـ أي جسمك فقط، فلذا وسعك؛ لأن جسمك بعض الكون وله فيه مصالح.

وأما روحك فلا تصلح أن تتعلق بالكون لعدم وجود مصالحها فيه، وإنما تصلح للتعلق بمكوِّن الأكوان؛ فلذا لم يسعك الكون من حيث ثبوت روحانيتك. فينبغي السعي في تكميلها بإخراجها عن مألوفات بشريتك؛ حتى تصلح للتعلق برب البرية فترقى بمعراج كمالاتها إلى الحضرة القدسية.

فنظرك إلى الأكوان يحطك إلى أسفل سافلين، ونظرك إلى المكوِّن يرفعك إلى أعلى عليين. فاختر لنفسك ما يحلو.

(٢٤٧) الكائنُ في الكون ولم تُفْتَحْ له ميادينُ الغيوبِ مسجونٌ بمُحيطاتِهِ، ومحصورٌ في هيكل ذاتِهِ.

يعني أنَّ مَنْ وُجد في الدنيا، ولم تفتح له خزائن العلوم والمعارف الغيبية الشبيهة بالميادين؛ حتى يستنير بها قلبه، ويشاهد أسرار رب العالمين، فهو مسجون بمحيطاته ـ أي بشهواته المحيطة به ـ، ومحصور في هيكل ذاته ـ أي في هيكلٍ هو ذاته النفسانية ـ والمراد شهواتها. فهو مرادف لما قبله.

وأما من طهر نفسه من الشهوات، وتخلص من سجن الرعونات، فقد وصل إلى أعلى درجات السعادة، وفُتحت له ميادين الغيوب من عالم الغيب والشهادة.

وفي بعض الآثار المروية عن الله عزّ وجلّ: عبدي اجعلني مكان همك

---

(١) وفي نسخة: جسمانيتك، أي جسمك ا هـ.

أكفك كل هم، ما كنتَ بك فأنت في محل البعد، وما كنتَ بي فأنت في محل القرب، فاختر لنفسك.

(٢٤٨) أنتَ مع الأكوانِ ما لم تَشْهَدِ المكوِّنَ، فإذا شهدتَهُ كانتِ الأكوانُ مَعَكَ.

يعني أنك تكون مع الأكوان وعبداً لها، ما لم تشهد المكوِّن سبحانه فيها وقائماً عليها ومدبراً لها، فإذا شهدته وعرفته حق معرفته كانت الأكوان معك، ومسخرة لك ومتبركة بك حتى الحيوانات والجمادات. وهذا حال عليِّ الهمة والإرادة كما قال الشبلي[١]: ليس يخطر الكونُ ببال مَن عرف المكوِّن. وقال بعضهم أنا أدخل السوق والأشياء تشتاق إليَّ وأنا عن جميعها حر وقال بعضهم: أشرفْتُ على إبراهيم بن أدهم وهو في بستان يحفظه، وقد أخذه النوم، وإذا حية في فيها طاقة[٢] نرجس تروحه بها. وقال بعضهم كنت مع إبراهيم الخواص فإذا عقرب تسعى على فخده، فقمت لأقتلها فمنعني وقال: دعها كل شيء مفتقر إلينا ولسنا متفقرين إلى شيء[٣].

وكان بعض الأولياء يقول للسماء: أمطري. فتمطر.

وكان بعضهم يتعبد في الجبل، فإذا أراد الذهاب إلى بيته يأتي إليه السبع خاضعاً فيركبه[٤].

---

(١) تقدمت ترجمته في تعليق الحكمة رقم (٧٧).

(٢) وفي نسخة: باقة.

(٣) هذا من باب ما قدمه المؤلف قبل قليل بقوله: فإذا شهدته وعرفته حق معرفته كانت الأكوان معك، ومسخرة لك ومتبركة بك حتى الحيوانات والجمادات ا هـ فالعقرب هنا متبركة بإبراهيم الخواص ومفتقرة إليه بذلك، وهو غير مفتقر إليها ولا خائف من لسعها؛ لشهوده الخالق ومعرفته حق المعرفة. وينبغي أن لا تُفهم العبارة على غير هذا النحو، إذ الذي يفتقر إليه كل شيء ولا يفتقر إلى شيء على الحقيقة هو الله جل وعلا ولا شيء سواه كذلك.

(٤) وقد ورد من هذا القبيل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أن الحيوانات ذللت لهم وائتمرت بأمرهم. من ذلك ما ذكره أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه «صفة الصفوة» (١/٦٧١ - ٦٧٢) في ترجمة أبي عبد الرحمن مهران مولى رسول الله ﷺ الذي سماه رسول الله ﷺ «سفينة»: عن محمد بن المنكدر عن سفينة أنه ركب سفينة في البحر فانكسرت بهم قال: فتعلقت =

(٢٤٩) لا يلزمُ من ثبوتِ الخصوصيَّةِ عدمُ وصفِ البشريةِ، إنما مَثَلُ الخصوصيةِ كإشراقِ شمسِ النهارِ، ظهرتْ في الأفقِ وليستْ منهُ. تارةً تُشرقُ شموسُ أوصافِهِ على ليلِ وجودِكَ، وتارةً يقبضُ ذلك عنك فيردُّكَ إلى حدودِكَ. فالنهارُ ليسَ منكَ وإليكَ، ولكنَّهُ واردٌ عليكَ.

يعني لا يلزم من ثبوت الخصوصية لأحد الخواص بإيصال الأوصاف العلية إليه، وإظهار النعوت القدسية عليه، فيتصرف في المكوَّنات وتظهر على يده الكرامات، عدمُ[1] وصف البشرية بالكلية، فإن الأوصاف البشرية من العجز والجهل والفقر للعبد من الأمور الذاتية. خلافاً لمن قال: إن الوصول إلى الله لا يكون إلا بذم أوصاف البشرية، وزوالها بالكلية، والاتصاف بصفات الربوبية، فإن في ذلك من قلب الحقائق ما لا يخفى على من له أدنى روية. ولذا ضرب هنا لذلك مثلاً بقوله: إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ظهرت في الأفق؛ أي نواحي السماء وليست منه ـ أي الأفق ـ فالنور ليس ذاتياً له، وإنما عرض لإزالة الظلمة. فكذلك الأوصاف القدسية ليست ذاتية للعبد، وإنما هي عارضة على ظلمة أوصاف بشريته الذاتية؛ لأنه تارة تشرق أوصافه تعالى التي هي

= بشيء منها حتى خرجت إلى جزيرة فإذا فيها الأسد فقلت يا أبا الحارث: أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ فطأطأ رأسه وجعل يدفعني بجنبه، يدلني على الطريق... فلما خرجت إلى الطريق هَمْهَم فظننت أنه يودعني. رضي الله عنه.

وأورد زيني دحلان في كتابه «الفتوحات الإسلامية» في ذكر غزوة القسطنطينية أن معاوية استعمل عقبة بن نافع على إفريقية سنة خمسين، وبعد أن دخل إفريقية وكثر جمعه فرأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد...، فقصد موضع القيروان وكانت أجمة مشتبكة بها شيء كثير من أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك فدعا الله تعالى ـ وكان مستجاب الدعوة ـ ثم نادى: أيتها الحيات والسباع: إنا أصحاب رسول الله ارحلوا عنا فإنّا نازلون، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه. فنظر الناس ذلك اليوم إلى الدواب تحمل أولادها وتنتقل، ورأى ذلك كثير من قبائل البربر فأسلموا. «الفتوحات الإسلامية» (١/١٣٢) بتصرف.

(١) قوله: (عدمُ وصف...) فاعل لقوله: (لا يلزم من ثبوت الخصوصية...).

كالشموس على وجودك الشبيه بالليل المظلم؛ لما فيه من الأوصاف الدنيئة، فتغلب عليها، وتظهر خصوصيتك فتكون غنياً بالله بعد أن كنت فقيراً، وقادراً بالله بعد أن كنت عاجزاً، وعالماً به بعد أن كنت جاهلاً، إلى غير ذلك.

وتارة يقبض ذلك عنك، فيردك إلى حدودك من الفقر والعجز والجهل، فلا تظهر خصوصيتك.

فالنهار الذي هو الخصوصيات التي ظهرت عليك، ليس منك وإليك ـ أي ليس من أوصافك الذاتية ـ ولكنه وارد عليك من إشراق شموس أوصافه القدسية.

ثم اعلم أن القبض المذكور ليس سلباً بل هو تنبيه للقاصرين على أن الأمر كله لله ليس لهم منه شيء. ولذا ترى بعض الأولياء في بعض الأحيان عنده قوة بطش، وفي بعضها يكون عاجزاً.

وهذا لا يعارض قوله السابق: ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر؛ لأنَّ ما تَقَدَّم شمسُ المعارف وهي لم تأفل. وما هنا ظهورُ الخصوصية بتبديل صفات البشرية من الفقر وما معه، فإنها تارة تتبدل وتارة لا؛ ليعطي الكامل في العبودية كل وقت حقه.

(٢٥٠) دلَّ بوجود آثاره على وجود أسمائهِ، وبوجودِ أسمائه على ثبوت أوصافه، وبثبوت أوصافه على وجود ذاتهِ، إذْ مُحالٌ أن يقوم الوصفُ بنفسه. فأربابُ الجَذْبِ يكشف لهم عن كمال ذاته، ثم يردُّهم إلى شهود صفاته، ثم يُرْجِعُهم إلى التعلق[1] بأسمائه، ثم يردُّهم إلى شهودِ آثارِهِ. والسالكون على عكس هذا[2]، فنهايةُ السالكين بدايةُ المجذوبين، وبدايةُ السالكين نهايةُ المجذوبين. لكنْ لا بمعنى واحد، فربما التقيا في الطريق هذا في ترقِّيه، وهذا في تدلِّيه.

(١) وفي نسخة: التعمق.

(٢) وفي نسخة: والسالكون على العكس من هذا.

يعني أنه سبحانه دل بوجود آثاره ـ أي مصنوعاته ـ على وجود أسمائه؛ إذ لا يصدر هذا الصنع القويم إلا من قادر مريد عليم. وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه من القدرة والإرادة والعلم. وبثبوت أوصافه على وجود ذاته. وعلل ذلك بقوله: إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه لأن المعنى لا يقوم بالمعنى.

ثم إن عباد الله المختصين بالقرب منه والوصول إليه قسمان: أرباب جذب، وأرباب سلوك، فأرباب الجذب الذين اختطفتهم يد العناية، يكشف لهم أولاً عن كمال ذاته ـ أي عن ذاته الكاملة ـ بأن يزيد في قوة معرفتهم حتى يروا ذاته المقدسة بعين بصيرتهم، ثم يردهم إلى شهود صفاته، فيشاهدون بنور المعرفة ارتباطها بالذات، ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه بأن يشاهدوا بالذوق تعلقها بالآثار، ثم يردهم إلى شهود آثاره ـ أي صدورها عن الأسماء ـ وهؤلاء هم الذين يستدلون بالمؤثِّر على الأثر، ويقولون ما رأينا شيئاً إلا ورأينا الله قبله.

وأما السالكون فهم على عكس هذا لأنهم يستدلون بالأثر على المؤثِّر، فأول ما يظهر لهم الآثار فيستدلون بها على الأسماء وبها على الصفات وبها على كمال الذات، وهم الذين يقولون ما رأينا شيئاً إلا ورأينا الله بعده. فنهاية السالكين من شهود الذات المقدسة بداية المجذوبين، وبداية السالكين من التعلق بالآثار نهاية المجذوبين. لكن لا بمعنى واحد: فإن مراد السالكين شهود الأشياء لله، ومراد المجذوبين شهود الأشياء بالله، فالسالكون على تحقيق الفناء والمحو، والمجذوبون مَسْلُوكٌ بهم طريق البقاء والصحو فربما التقيا في الطريق ـ أي في منزل من المنازل ـ كشهود الصفات.

هذا أي السالك في ترقيه من الخلق إلى الحق، وهذا أي المجذوب في تدليه من الحق إلى الخلق.

(٢٥١) لا يُعْلَمُ قَدْرُ أنوارِ القلوبِ والأسرارِ إلا في غيبِ الملكوتِ، كما لا تَظْهَرُ أنوارُ السماءِ إلا في شَهادةِ المُلْكِ.

أي لا يعرف قدر الأنوار والأسرار التي أشرقت على القلوب من سماء

التوحيد والمعرفة إلا في غيب الملكوت ـ وهو عالَم الآخرة ـ. فمن كان قوي الإيمان كان له هنالك أعظم منازل الامتنان، ومن كان إيمانه بالغيب أكمل كان نوره وما يترتب عليه أتم وأشمل. كما أن أنوار السماء ـ وهي أنوار الكواكب ـ لا تظهر إلا في شهادة الملك ـ أي الملك المشاهَد وهو عالم الدنيا ـ لحصول المناسبة بين هذه الأشياء، فإن نور الإيمان ليس له أفول، فيناسبه الدار الباقية، وأنوار الكواكب تأفل، فيناسبها الدار الفانية.

(٢٥٢) وِجْدانُ ثمراتِ الطَّاعاتِ عاجلاً، بشائرُ العامـلين بوجودِ الجزاءِ عليها آجلاً.

يعني أن ما يجده العاملون من ثمرات الطاعات، كزيادة إشراق أنوار اليقين في قلوبهم، والتلذذ بها عند مناجاة ربهم، بشائر لهم بقبولها ووجود الجزاء عليها في الدار الآخرة، وإن لم يقصدوه بطاعتهم، فإن الأكمل عدم قصد ذلك كما قال المصنف:

(٢٥٣) كيفَ تطلبُ العوضَ على عملٍ هو مُتَصَدِّقٌ به عليكَ؟ أم كيفَ تطلبُ الجَزاء على صدقٍ هو مُهْدِيهِ إليكَ؟.

يعني أن طلبك العوض على عمل هو في الحقيقة له تعالى؛ لقوله سبحانه: ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾[1] مما يُتعجب منه؛ لأنه سبحانه مُتَصَدِّقٌ به عليك.

---

(١) سورة الصافات: الآية (٩٦) وهي مع ما قبلها ﴿ فأقبلوا إليـه يَزِفُّونَ ✽ قال أتعبدُونَ ما تَنْحِتُون ✽ والله خلقَكمْ وما تَعْمَلُونَ ﴾.

قال القرطبي في تفسير هذه الآيات: فيه حذف، أي قالوا: من فعل هذا بآلهتنا، فقال محتجاً ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ أي أتعبدون أصناماً أنتم تنحتونها، بأيديكم تنجرونها. . . .
﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ «ما» في موضع نصب أي خلق ما تعملونه من الأصنام. . . .
والأحسن أن تكون «ما» مع الفعل مصدراً، والتقدير والله خلقكم وعملكم، وهذا مذهب أهل السنة: أن الأفعال خَلْقٌ لله عزّ وجلّ واكتسابٌ للعباد. وفي هذا إبطال مذاهب القَدَرية =

وكذلك طلب الجزاء على الصدق ـ أي الإخلاص فيه ـ مما يُتَعَجَّبُ منه لأنه مهديه إليك.

وإنما عبر في الأعمال بالصدقة، وفي الصدق الذي عليه مدار قبول الأعمال بالهدية إشارة إلى تباينهما في الشرف، كتباين الصدقة والهدية.

(٢٥٤) قومٌ تَسْبِقُ أنوارُهم أذكارَهم، وقومٌ تسبِقُ أذكارُهم أنوارَهم[١].

يعني أن الواصلين إلى الله تعالى على قسمين: قوم تسبق أنوارهم أذكارهم، وهم المجذوبون المرادون الذين لم يتكلفوا شيئاً، بل واجهتهم الأنوار فحصلت منهم الأذكار.

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء

وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم، وهم المريدون السالكون، فمتى اجتهدوا في الأذكار حصلت لهم الأنوار واهتدوا لمرضاة العزيز الغفار. قال تعالى:

= والجَبْرية. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله خالق كل صانع وصنعته» ذكره الثعلبي، وخرَّجه البيهقي من حديث حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ صنع كل صانع وصنعته فهو الخالق وهو الصانع سبحانه». اهـ القرطبي (٩٦/١٥).

أقول: وَلْننظر إلى قوله تعالى في سورة الرعد: الآية (١٦) ﴿قل مَنْ رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم **قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار**﴾ فقد بين سبحانه في آخر هذه الآية أنه جلّ وعلا خالق كل شيء، وأعمال العباد شيء من الأشياء فهي مخلوقة.

ويقول القرطبي في تفسيره: والآية رد على المشركين والقدرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله اهـ.

ويقول النسفي في تفسيرها أيضاً: أي خالق الأجسام والأعراض لا خالق غير الله، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق، فلا يكون له شريك في العبادة. ومن قال: إن الله لم يخلق أفعال الخلق وهم خلقوها فتشابه الخلق على قولهم اهـ.

(١) وفي طبعة أحمد عبيد زيادة هي: وقومٌ تتساوى أذكارُهم وأنوارُهم، وقومٌ لا أنوارَ ولا أذكارَ، نعوذُ بالله مِنْ ذلك.

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[1]. ثم بين حال الفريقين بعبارة أخرى فقال:

(٢٥٥) ذاكرٌ ذَكَرَ ليستنيرَ قلبُهُ[2]، وذاكرٌ استنارَ قَلْبُهُ فكان ذاكراً[3].

الأول راجع للفريق الثاني وهم السالكون، والثاني راجع للفريق الأول وهم المجذوبون، وكل على نور.

(٢٥٦) ما كان ظاهِرُ ذِكْرٍ، إلا عن باطنِ شهودٍ وفِكْرٍ.

يعني أن الذكر الظاهر ـ والمراد به الأعمال الظاهرة جميعها ـ لا تكون إلا عن باطن شهود الحق جل شأنه، والتفكر في آثار قدرته، فإن صلاح الظاهر تابع لصلاح الباطن. وإنما خص الذكر بالذكر من بين سائر الأعمال لأنه روحها والمقصود بالذات منها قال تعالى: ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾[4]. ثم وضح هذا المعنى بقوله:

(٢٥٧) أشهدكَ من قبلِ أنْ يَسْتَشْهِدَكَ فنطقتْ بإلَهِيَّتِهِ[5] الظواهِرُ، وتحقَّقَتْ بأحَدِيَّتِهِ القلوبُ والسرائرُ.

أي أطلعك سبحانه على وحدانيته بتجلي أنوار المعارف على قلبك، حتى شاهدت ذلك على حسب قدرك، من قبل أن يستشهدك ـ أي يطلب منك أن تشهد بعظمته وجلاله بذكرك وعبادتك ـ فإن الذكر والعبادة شهادة منك بعظمة المذكور والمعبود، فنطقتْ بألوهيته ـ أي بما يدل عليها ـ الظواهرُ ـ أي الجوارح ـ بأنْ أتت بالأعمال التي تكاد تنطق بعظمة ذي الجلال، وهذا راجع للاستشهاد.

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٦٩) وتمامها ﴿ والذينَ جاهدوا فينا لنَهْدِيَنَّهم سبلَنا وإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسنين ﴾.

(٢) وعند عبيد: ليستنير به قلبه.

(٣) وعند عبيد زيادة هي: والذي استوتْ أذكارُهُ وأنوارُهُ فبذِكْره يُهتدىٰ، وبنوره يُقْتَدى.

(٤) سورة طه: الآية (١٤)، وتمامها ﴿ إنِّي أنا اللهُ لا إلَه إلاّ أنَا فاعبدني وأقمِ الصلاةَ لذكري ﴾.

(٥) وفي نسخة: بألوهيته.

وقوله: وتحققت بأحديته القلوب والسرائر راجع للإشهاد.

(٢٥٨) أكرمَكَ بكراماتٍ ثلاثٍ: جعلكَ ذاكراً له؛ ولولا فضْلُهُ لم تكن أهلاً لجريانِ ذكرهِ عليكَ. وجعلكَ مذكوراً بهِ؛ إذْ حقَّقَ نسبَتَهُ لـديكَ. وجعلكَ مذكوراً عِنْدَهُ، فَتَمَّمَ نِعْمَتَهُ عليكَ.

يعني أن الله تعالى أكرمك ـ أيها المؤمن ـ بثلاث كرامات، جمع لك فيهن أنواع الفضائل والمبرات. الأولى: جعلك ذاكراً له بلسانك وقلبك، ووجَّه حلاوة ذلك إليك، ولولا فضله لم تكن أهلاً لجريان ذكره عليك.

والثانية: جعلك مذكوراً به عند الناس؛ بأن يقال: هذا ولي الله وذاكره؛ إذ حقق نسبته ـ أي خصوصيته ـ لديك، وهي ما أظهره من أنوار الذكر والطاعة عليك.

والثالثة: جعلك مذكوراً عنده، فتمم نعمته عليك بمزيد الإكرام ومنتهى الفضل والإنعام.

وفي الحديث القدسي: «مَنْ ذكرني في نفسِهِ ذكرتُه في نفسي، ومَنْ ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منه»[١].

وقال ﷺ: «ما جلس قومٌ يذكرون الله تعالى إلا حفَّتْهم الملائكة وغشيتْهُمُ الرحمةُ ونزلتْ عليهم السكينةُ وذكرهم اللهُ فيمن عنده»[٢] اهـ. والعندية هنا عندية مكانة ـ أي شرف ـ لا مكان، تعالى الله عن ذلك.

---

(١) الحديث: جزء من حديث طويل رواه البخاري في «صحيحه» (١٣/٤٢٨)، ومسلم رقم (٢٦٧٥)، والترمذي رقم (٣٥٩٨) في الدعوات، باب حسن الظن بالله تعالىٰ، وابن ماجه رقم (٣٨٢٢)، وأحمد في «المسند» (٢/٢٥١، ٤٠٥، ٤١٣، ٤٨٠، ٤٨٢). ولفظه بتمامه عند الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم، وإن اقترب إليّ شبراً اقتربت منه ذراعاً، وإن اقترب إليّ ذراعاً اقتربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

(٢) الحديث: رواه بهذا اللفظ ابن حبان في «صحيحه» من حديث أبي سعيد الخدري وأبي =

(٢٥٩) رُبَّ عُمُـرٍ اتسعتْ آمادُهُ، وقلت أمْدادُهُ. ورُبَّ عُمُرٍ قليلةٌ آمادُهُ، كثيرةٌ أمْدادُهُ.

أي رب عمر لشخص اتسعت آماده ـ بالمد جمع أمد كسبب وأسبـاب ـ أي اتسع زمنه حتى طال، وقلت أمداده ـ بفتح الهمزة جمع مدد ـ أي فوائده؛ بأن كان الشخص من الغافلين.

وربٍّ عمر لشخص آخر قليلة آماده كثيرة أمداده؛ بأن كان من الذاكرين. كما وضح ذلك بقوله:

(٢٦٠) مَنْ بُورِكَ له في عُمُرِهِ أدركَ في يسيرٍ من الزَّمَنِ مِنْ مِنَنِ اللهِ تعالىٰ ما لا يدخلُ تحتَ دوائرِ العِبارَةِ، ولا تَلْحَقُهُ الإشارةُ.

يعني أن من بورك له في عمره، بأن رزق من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام الأوقات، وانتهاز فرصة الإمكان خشية الفوات، فبادر إلى الأعمال القلبية والبدنية، واستفرغ في ذلك مجهوده بالكلية، أدرك في يسير من الزمن من المنن الإلٰهية والمعارف الربانية ما لا يدخل تحت دوائر العبارة لقصورها عن الإحاطة به؛ ولا تلحقه الإشارة إليه لعلوه في مقامه ومنصبه؛ فيرتفع له في كل ليلة من لياليه من الأعمال الصالحة ما لا يرتفع لغيره في ألف شهر؛ فتكون لياليه كلها بمنزلة ليلة القدر. كما قال أبو العباس المرسي[1]: أوقاتنا والحمد لله كلها ليلة

= هريرة رضي الله عنهما، وهو حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل بمعناه رواه مسلم في «صحيحه» رقم (٢٦٩٩)، والترمذي رقم (٢٩٤٦) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «من نفَّس عن أخيه كربة من كُرب الدنيا، نفَّس الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن يسَّر على مُعْسر، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عوْن أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة، وما قعد قوم في مسجد يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

(١) تقدمت ترجمته في تعليق الحكمة رقم (٩٦).

القدر. فالعبرة بالبركة بالعمر لا بطوله. وعلى هذا يحمل حديث: «البِرُّ يزيد في العمر»[1] فإن المراد البركة فيه، بحيث يفعل فيه من الخيرات ما لا يفعله غيره في الأزمنة الطويلة الخالية من البركات.

(٢٦١) الخِذْلانُ كلُّ الخِذْلانِ أن تتفرغَ من الشواغلِ ثم لا تتوجَّهُ إليهِ، وتَقِلَّ عوائقُكَ ثم لا ترحلَ إليه.

يعني أن الخِذْلان التام المؤكَّد أن تتفرغ من الشواغل؛ بأن كان عندك ما يكفيك من الدنيا الدنية، ثم لا تتوجه إليه بالاشتغال بما يقربك إلى حضرته القدسية[2].

وتقل عوائقك التي تثقلك عن الإقبال عليه، ثم لا ترحل بكامل توجهاتك إليه.

قال الإمام القشيري[3]: فراغ القلب من الأشغال نعمة عظيمة، فإذا كفر عبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى، وانجر في قياد الشهوات، شوش الله عليه نعمة قلبه، وسلبه ما كان يجد من صفاء لبه.

---

(١) الحديث: [ورد بلفظ: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البرِّ»] رواه الترمذي رقم (٢١٤٠) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤/١٦٩) من طريق أبي مودود عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان رضي الله عنه، وفي سنده أبو مودود ولقبه (فضة) وهو لين الحديث كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب» ولكن للحديث شاهد من حديث ثوبان ـ رضي الله عنه ـ رواه ابن ماجه رقم (٤٠٢٢) وأحمد في «المسند» (٥/٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢) والحاكم في «مستدركه» (١/٤٩٣) وإسناده ضعيف أيضاً، ولكنه حسن به.

(٢) وفي نسخة: إلى الحضرة القدسية.

(٣) هو: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، من بني قشير بن كعب أبو القاسم زين الإسلام شيخ خراسان في عصره زهداً وعلماً بالدين. كانت إقامته بنيسابور وتوفي فيها. ا هـ «الأعلام» للزركلي (٤/١٨٠).

وقد ترجمه ابن خلكان فقال: هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري الفقيه الشافعي. كان علّامة في الفقه والأصول والتفسير والحديث والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف. جمع بين الشريعة والحقيقة. أصله من ناحية أُسْتُوا من العرب الذين قدموا =

(٢٦٢) **الفكرةُ سيرُ القلبِ في ميادينِ الأغيارِ.**

يعني أن الفكرة المأمورين بها إنما هي سير القلب ـ أي جولانه ـ في مشاهدة الأغيار ـ أي المخلوقات الشبيهة بالميادين في الاتساع ـ قال تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾[1]. ونحو ذلك من الآيات الدالة على التفكر والنظر في عجائب المخلوقات. وأما التفكر في ذات الله فإنه منهي عنه؛ لأنه لا تحيط به الفكرة.

فإذا تفكر العبد في وجود المخلوقات هداه ذلك إلى وجود موجِدِهم، وهذا تفكر العامة. وإذا تفكر في الدنيا وقلة وفائها للطالبين ازداد تباعداً عنها، وهذا تفكر الزاهدين. وإذا تفكر في الحسنات وما يترتب عليها فعَلَها وازداد رغبة فيها، أو في السيآت وما يترتب عليها تركَها ظاهرها وخافيها، وهذا تفكر العابدين التجار. وإذا تفكر في توارد النعم ازداد محبة في المُنْعِم بها، وهذا تفكر العارفين الأحرار.

= خراسان. صنّف التفسير الكبير وسماه «التيسير في علم التفسير» وهو من أجود التفاسير، وصنف الرسالة في رجال الطريقة. وأما مجالس الوعظ والتذكير فهو إمامها.

ونقل عن غيره فقال: ذكره أبو الحسن علي الباخرزي في كتاب «دمية القصر» وبالغ في الثناء عليه وقال في حقه: لو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب، ولو ربط إبليس في مجلسه لتاب.

وذكره الخطيب في تاريخه وقال: كان ثقة وكان يقص وكان حسن الوعظ مليح الإشارة وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي.

ولد في شهر ربيع الأول سنة ٣٧٦ هـ وتوفي صبيحة يوم الأحد قبل طلوع الشمس ١٦/ ربيع الآخر سنة ٤٦٥ هـ بمدينة نيسابور ودفن بالمدرسة تحت شيخه أبي علي الدقاق. اهـ «وفيات الأعيان» (٣/ ٢٠٥ وما بعدها).

(١) سورة يونس: الآية (١٠١)، وتمامها مع ما قبلها ﴿ولو شاء ربُّك لآمَنَ مَنْ في الأرض كلُّهم جميعاً أفأنت تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين * وما كان لنفسٍ أنْ تؤمنَ إلا بإذن الله ويجعلُ الرجسَ على الذين لا يعقلون * قل انظروا ماذا في السمواتِ والأرض وما تغني الآياتُ والنُّذُرُ عن قوم لا يؤمنون *﴾.

(٢٦٣) الفكرةُ سراجُ القَلْبِ، فإذا ذهبَتْ فلا إضاءةَ لهُ.

يعني أن الفكرة بمنزلة السراج للقلب يستضيء بها؛ لأن بها تنجلي حقائق الأمور، فيظهر الحق من الباطل، وتعرف آفات النفس بالتفكر في معائبها ومكائدها، وتعلم مكائد العدو وغرورالدنيا ونحو ذلك. فإذا ذهبت الفكرة منه فلا إضاءة له، فيكون كالبيت المظلم والعياذ بالله.

(٢٦٤) الفِكْرةُ فِكْرتَانِ: فكرةُ تصديقٍ وإيمانٍ، وفكرةُ شهودٍ وعِيَانٍ. فالأولى لأرْبابِ الاعتبارِ، والثانيةُ لأربابِ الشُّهودِ والاستبْصَارِ.

يعني أن الفكرة التي هي السير في ميادين الأغيار فكرتان: إحداهما أرفع من الأخرى؛ لأنها تختلف باختلاف السالكين والمجذوبين، ففكرة السالكين: فكرة تصديق وإيمان ـ أي فكرة ناشئة عن أصل التصديق الذي هو الإيمان ـ والقصد بها الزيادة فيه بالاستدلال بالأثر على المؤثر. وأما فكرة المجذوبين: ففكرة شهود وعيان ـ أي فكرة ناشئة عن المشاهدة والمعاينة بعين البصيرة ـ فيستدلون بالمؤثِّر على الأثر. فالأُولىٰ لأرباب الاعتبار ـ أي المستدلين بالآثار ـ وهم السالكون. والثانية لأرباب الشهود والاستبصار ـ أي المستدلين بالمؤثِّر على الأثر ـ وهم المجذوبون.

واعلم أن المجذوب سلك الطريق مسرعاً إلى الله، واطلع على المقامات التي كابد مشقتها من سواه. خلافاً لمن قال: إن السالك أتم من المجذوب؛ لأن السالك عرف الطريق، والمجذوب ليس كذلك.

لأن المجذوب طويت له الطريق ولم تطو عنه، فهو كمن طويت له الطريق إلى مكة. والسالك كمن سار إليها على أكوار المطايا. كذا حققه بعض العارفين والله تعالى يجعلنا من الواصلين. وهذا آخر الحكم وما بعده مكاتبات لبعض إخوانه ومناجاة لمن والاه بمزيد النعم.

انتهى ولله الحمد مساء الأحد ١٤٠٣/٩/٢٤ هـ ١٩٨٣/٦/٥ م.



من مكاتباته لبعض إخوانه

(١) فمما كتبه رضي الله عنه لبعض إخوانه وأجاد ووفى فيه من بيان حال السالك وآداب السلوك بالمراد قوله:

أما بعد! فإن البدايات؛ أي بدايات السلوك، **مجلات النهايات** - بفتح الميم والجيم وتشديد اللام جمع مجلة - كذلك؛ أي محل التجلي والظهور كالمرآة والمجالي؛ والمظاهر التي تنجلى فيها الأمور، فينجلي أمر نهاية السالك في ابتداء سلوكه، وقد بين ذلك بقوله: **وإن من كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته**. فمن كان في بدايته منقطعاً عن الأغيار متوجهاً بكليته إلى خدمة العزيز الغفار، انتهى إلى أمر عظيم وفتح جسيم، ومن كان ضعيف البداية فهو ضعيف النهاية.

والمشتغَل به أيها المريد الصادق هو الذي أحببته وسارعت إليه.

من الأعمال الصالحة التي تقربك إلى مولاك، وتوصلك إلى حظيرة القدس التي تبلغ فيها مناك. فكن قرير العين بما سارعت إليه، ولا تحتقر ما اشتغلت به من الطاعات فإنه هو الذي يقربك لديه.

والمشتغَل عنه هو المؤثر عليه.

أي أن الأمر الذي ينبغي أن تشتغل عنه ولا تلتفت إليه هو المؤثر - بفتح المثلثة - أي المقدَّم غيره عليه، فإذا اشتغلت عن حظوظك الدنيوية ولم تحتفل بها بالكلية، فقد آثرت؛ أي قدمت خدمة ربك عليها فطب نفساً بما وفقت له منها فالمقصود من هذا الكلام، تهييج السالك وإنهاض همته بمدح ما أقبل

عليه، وذم ما أعرض عنه، لِيَحْسُنَ عنده عدم الالتفات إليه. ومن دعاء بعض العارفين لبعض السالكين: عرفك الله قدر ما تطلب حتى يهون عليك ما تترك.

وإن من أيقن أن الله يطلبه بالقيام بوظائف العبودية **صدق الطلب إليه**؛ أي صدق في الطلب بأن يتوجه إلى ما طلبه منه مولاه بصدق النية، **ومن علم أن الأمور بيد الله**؛ أي قدرته، ومنها سعيه واجتهاده في الطاعة، **انجمع بالتوكل عليه**؛ أي انجمع عليه قلبه بالتوكل عليه سبحانه في تيسير أموره، فقوله (عليه) تنازع فيه كل من الفعل والمصدر، وهذا قيام بحق الحقيقة كما أن قوله (صدق الطلب) وفاء بحق الشريعة ومن ذلك قوله ﷺ: «اعقلها وتوكل»[1]. **وإنه لا بد لبناء هذا الوجود أن تنهدم دعائمه وأن تسلب كرائمه**. هذه الجملة معطوفة على إن البدايات، فهي ـ بكسر الهمزة ـ وقصده بها تسلية المريد عما يفوته في حال سلوكه من زهرات الدنيا الفانية، فإنه إذا علم أن هذا الوجود الذي هو دار الدنيا الشبيه بالقصر المبني، لا بد أن تنهدم دعائمه؛ أي أركانه، وأن تسلب كرائمه؛ أي نفائسه، طَيَّبَ[2] نفسَه بتركه وعدم النظر إليه، واجتهد فيما يقربه في الدار التي لا فناء لها ويعود نفعه عليه.

فالعاقل من كان بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى، قد أشرق نوره وظهرت تباشيره.

يعني أن العاقل هو الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة وإذا تحقق بهذا

---

(١) الحديث: رواه الترمذي رقم (٢٥١٩) في صفة القيامة، باب رقم (٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال رجل: يا رسول الله! أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل». وفي سنده المغيرة بن أبي قرة السدوسي، لم يوثقه غير ابن حبان، لكن له شاهد عند البيهقي في «شعب الإيمان» من حديث عمرو بن أمية الضمري بلفظ: «قيد وتوكل» ورواه الحاكم في «المستدرك» (٢/٦٢٣) من حديث عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله! أرسل راحلتي وأتوكل؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل قيدها وتوكل». وقال الحافظ الذهبي: سنده جيد. أقول: بل في سنده يعقوب بن عبدالله بن أمية الضمري، لم يوثقه غير ابن حبان، ولكن الحديث حسن بشاهده من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) قوله: «طيب نفسه» جواب (إذا علم...).

المقام فقد أشرق نوره في قلبه، وظهرت تباشيره المبشرة له بالقبول على وجهه.

فصدف ـ بالدال المهملة والفاء ـ أي أعرض **عن هذه الدار مغضياً** ـ بالغين والضاد المعجمتين بعدهما تحتيه ـ أي غاضاً بصره عنها ولم ينظر إليها لقذارتها **وأعرض عنها مولياً**، فلم يلتفت إليها بقلبه **فلم يتخذها وطناً** بظاهره على سبيل التمتع بها، **ولا جعلها سكناً** ببطانه على جهة المحبة لها، **بل أنهض الهمة فيها إلى الله تعالى وسار فيها مستعيناً به في القدوم عليه، وهذا ابتداء سفره بقلبه إلى الحضرة العلية، وقطع عقبات النفس مستعيناً به تعالى لا بأعماله في القدوم عليه والوصول إلى حضرته القدسية فقد قيل**:

إذا لم يعنْكَ اللهُ فيما تريدُهُ ... فليس لمخلوقٍ إليه سبيلُ
وإنْ هُوَ لم يُرْشِدْكَ في كلِّ مَسْلَكٍ ... ضَلَلْتَ ولو أنَّ السِّماكَ دليلُ

فمن اعتمد على عمله انقطع عن الوصول، ومن اعتمد على فضل مولاه بَلَّغَهُ المأمول فما زالت مطية عزمه؛ أي عزمه الشبيه بالمطية **لا يقر قرارها، دائماً تسيارها**؛ أي سيرها إلى الله فلا تستقر في محل يعوقها عنه من المقامات السنية والمكاشفات البهية، **إلى أن أناخت**؛ أي استقرت **بحضرة القدس**؛ أي التطهير والتنزيه، وهي حضرة الرب سبحانه وتعالى **وبساط الأنس**؛ أي المؤانسة لكل واصل وقد وصف تلك الحضرة بقوله: **محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة**. قال بعض المحققين: المراد بالمفاتحة نداء الحق بمعاني أسمائه وصفاته، والمواجهة إقبال الرب على العبد، والمجالسة ملازمة ذكر الله تعالى «أنا جليس من ذكرني»[1] والمحادثة؛ أن يتكلم في سره

---

(١) الحديث: قال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة»: رواه الديلمي بلا سند عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً بهذا. وذكره البيهقي في «شعب الإيمان» من حديث أبي بن كعب قال: قال موسى عليه السلام: يا رب أقريب أنت فأناجيك، أم بعيد فأناديك؟ فقال له: يا موسى «أنا جليس من ذكرني». وعند البيهقي معناه في المرفوع من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «إن الله عزّ وجلّ قال: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه» ورواه البخاري (٤١٧/١٣) معلقاً في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: =

بالمعارف والأسرار المفاضة عليه من ربه. والمشاهدة؛ كشف لا يصاحبه وَهْم. والمطالعة؛ هي مطالعة معاني أوصافه على بساط أوصافك. اهـ. والتحقيق أن هذه الألفاظ الستة التي ذكرها المصنف لا تدرك ألا بالذوق، وغاية ما يفهم منها أن الواصلين إلى تلك الحضرة تفاض عليهم المعارف الإلّهية، ويقابلون من لدن الكريم الجواد بالتحف السنية.

فصارت الحضرة مَعْشَشَ قلوبهم، إليها يأوون وفيها يسكنون.

أي صارت الحضرة لقلوبهم بمنزلة العش للطير، ففيه تشبيه حالهم بحال الطائر، لأنهم إليها يأوون. وههنا حصل لهم التحقق بمقام الفناء والمحو وهو مقام الجمع الذي انتهى به سيرهم إلى الملك الحق، ثم بعد ذلك يتحققون بمقام البقاء والصحو، وهو مقام الفرق الذي يؤمرون فيه بمخالطة الخلق وهو المراد بقوله: **فإذا نزلوا إلى سماء الحقوق**؛ أي حقوق الله الواجبة عليهم عند مخالطة الناس الشبيهة بالسماء، بجامع صعوبة الارتقاء إلى كل، **أو أرض الحظوظ**؛ أي حظوظ أنفسهم التي يحصل لهم الارتفاق بها الشبيهة بالأرض؛ بجامع سهولة الاستقرار على كل. **فبالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة بل**

= ﴿لا تحرك به لسانك﴾ قال: وقال أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «قال الله تعالى: أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه». ورواه موصولاً أحمد في «المسند» (٢/٥٤٠) وابن ماجه رقم (٣٧٩٢) في الأدب، باب فضل الذكر، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٢٣١٦) موارد الظمآن، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه الحاكم في «المستدرك» (٤٩٦/١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. ومعناه في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أنا عن ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني...» الحديث. لكن المعنى مختلف بين المعية والمجالسة. قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري شرح صحيح البخاري»: قال ابن بطال: أي أنا معه بالحفظ والكلاءة، لا أنه معه بذاته تعالى، لاستحالة ذلك. وقال الكرماني: المعية هنا معية الرحمة. وأما في قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ فهي معية العلم، يعني فهذه أخص من المعية التي في الآية.

دخلوا في ذلك بالله ولله ومن الله وإلى الله؛ أي فيكون نزولهم بالإذن من الله لهم في النزول لإرشاد الخلق بما يشرق في قلوبهم من النور الذي يجعله عَلَماً على ذلك، والتمكين؛ أي التمكن في مقام البقاء حتى تحصل لهم القوة على مخالطة الناس وتحمل أذاهم، ولم يكن ذلك إلا بعد رسوخهم في اليقين بالله تعالى، فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة عن الله، بل نزلوا إليها بالأدب التام مع الخلق، واليقظة الكاملة بمشاهدة الحق، فإنهم يرون الله في كل مشهود، فإذا آذاهم شخص تحملوه لله الذي أوجده، ورأوا أن الذي سلطه عليهم مولاهم لذنب فعلوه لا يليق بهم، وإذا أكرمهم شخص شكروه مع ملاحظة أن الذي حرك قلبه للإكرام مولاهم، ولم ينزلوا إلى الحظوظ بالشهوة النفسانية والمتعة - بضم الميم - أي التمتع بها كما هو مقصد أصحاب النفوس الدنية، بل دخلوا في ذلك كله من الحقوق والحظوظ بالله مستعينين، ولله ملاحظين، ومن الله آخذين، وإلى الله متوسلين، فتدبر ذلك.

﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق ﴾[1] ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني، واستسلامي وانقيادي إليك إذا أخرجتني.

قال ابن عباد: المُدْخَل والمُخْرَج الإدخال والإخراج، وقد عبر بهاتين العبارتين عن السفرين المذكورين، فالمدخل؛ هو سفر الترقي لأنه دخول على الله عزّ وجلّ في حالة فنائه عن رؤية غيره، والمخرج؛ هو سفر التدلي لأنه خروج إلى الخليقة لفائدتي الإرشاد والهداية في حال بقائه بربه وتحققه في هذين المقامين؛ أعني مقام الفناء والبقاء، هو معنى صدقية مدخله ومخرجه، وإنما طلب هذا ليحصل له به ذهابه عن رؤية نفسه في النسبة والوقوف مع الحظ، ففي المدخل يشاهد حول الله تعالى وقوته فينتفي عنه بذلك النسبة إلى نفسه، وفي المخرج يستسلم لربه وينقاد إليه فينتفي عنه بذلك مراعاة حظه ثم قال:

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٠)، وتمامها: ﴿ واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾.

«﴿ واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾[1] ينصرني وينصر بي ولا ينصر علي، ينصرني على شهود نفسي ويفنيني عن دائرة حسي.

أي واجعل لي من عندك يا الله سلطاناً نصيراً؛ أي مدداً إلٓهياً لا يصادمه شيء إلا دمغه، يصرني على أعدائي وينصر بي أحبابي الذين أقمتني لإرشادهم ولا ينصر عليّ أحداً من النفس والهوى والشيطان، فإن ذلك والعياذ بالله من علامات الخذلان. ثم خص النفس لكونها أعدى الأعداء بقوله ينصرني على شهود نفسي بأن لا أشاهد لها فعلاً من الأفعال، ويفنيني عن دائرة حسي؛ أي عما يدور به حسي من الأكوان حتى أصل بعدم التعلق بها إلى درجات الكمال.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٠)، وتمامها: ﴿ وقل ربِّ أدخلني مُدْخَلَ صِدقٍ وأخرجني مُخْرَجَ صِدقٍ. . . ﴾.

(٢) ومما كتبه رضي الله عنه لبعض إخوانه قوله:

إن كانت عين القلب تنظر إلى الله واحد في منته، فالشريعة تقضي[1] أنه لا بد من شكر خليقته.

أي إن كانت البصيرة التي هي عين القلب تنظر إلى أن الله تعالى واحد في منته؛ أي عطيته بمعنى أنه المعطي في الحقيقة لا غيره فلا يستحق الشكر سواه فالشريعة أمرتنا أن نشكر أيضاً من وصلت النعمة على يده لما في الحديث: «أشْكَرُ الناسِ لله أشكرُهُمْ للنِّاس»[2] فعليك أن تنظر إلى الجهتين وتشكر الله حقيقة، والخلْق مَجازاً امتثالاً لأمر خالقك فتكون في الحالين مُجازاً[3]، ثم بين أن الناس في حال ورود النعمة عليهم من أحد العبيد أقسام بقوله:

وإن الناس في ذلك على ثلاثة أقسام: غافل منهمك في غفلته قويت دائرة حسه وانطمست حضرة قدسه، فنظر الإحسان من المخلوقين ولم يشهده من رب

---

(١) وفي نسخة: تقتضي.

(٢) الحديث: رواه أحمد في «المسند» (٥/٢١٢)، وذكره السيوطي في «الجامع الصغير» وزاد نسبته للطبراني في «الكبير» والبيهقي في «شعب الإيمان» والضياء المقدسي، من حديث الأشعث بن قيس رضي الله عنه. ورواه أيضاً الطبراني في «الكبير» والبيهقي، في «شعب الإيمان» من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وابن عدي، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. وهو حديث صحيح بشواهده.

(٣) هكذا أثبتت في سائر الطبعات، وحقها أن تكون بالألف المقصورة فترسم (مجازى).

العالمين، إما اعتقاداً فشركه جلي، وإما استناداً فشركه خفي.

يعني أن من قويت دائرة حسه من العامة لتعلقه بالأكوان وانطمست حضرة قدسه؛ أي طهره والمراد عين بصيرته، فأبعدته عن المكوِّن عليِّ الشانِ، إذا اعتقد أن المؤثِّر والمعطي هو العبد فشركه ظاهر جلي يخرجه من ربقة الإيمان، وإذا نسب ذلك إلى العبد استناداً فذلك شركه خفي لكونه أشرك مع الله غيره ففي إيمانه نقصان لقوله: لولا فلان تسبب لي في هذا الأمر ما وصل لي من الله، والتوحيد الخالص أن يعتقد أن العبد مقهور وأن الموصل له إنما هو مولاه، ثم أشار إلى القسم الثاني بقوله:

وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق وفني عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب فهو عبد مواجه بالحقيقة ظاهر عليه سناها سالك للطريقة قد استولى على مداها، غير أنه غريق الأنوار مطموس الآثار قد غلب سكره على صحوه وجمعه على فرقه وفناؤه على بقائه وغيبته على حضوره.

يعني أن صاحب الحقيقة الذي غلب عليه سناها ـ بالقَصْرِ ـ أي ضياؤها وسلك طريقة القوم واستولى على مداها؛ أي نهايتها لا ينظر الأسباب لشهوده مسبِّب الأسباب، فهو من الخواص لكنه وإن كان كاملاً بالنسبة لأهل الغفلة ناقص بالنسبة لخواص الخواص الذين جمعوا بين الأمرين وهم أهل المعرفة، ولذا قال المصنف: غير أنه غريق الأنوار؛ أي غريق في بحار التوحيد مطموس الآثار؛ أي مطموسة بصيرته عن النظر إلى الآثار والعبيد، قد غلب سكره وهو عدم إحساسه بالآثار على صحوه وهو إحساسه بها وجمعه، وهو رؤيه الحق وحده على فرقه، وهو رؤية الحق والخلق، فهو في مقام الجمع لا في مقام الفرق، وقد اتضح لك مما هنا ومما تقدم الفرق ومعاني باقي الألفاظ ترجع إلى هذا، ثم أشار إلى القسم الثالث بقوله:

وأكمل منه عبد شرب فازداد صحواً وغاب فازداد حضوراً، فلا جمعه يحجبه عن فرقه ولا فرقه يحجبه عن جمعه، ولا فناؤه يصده عن بقائه ولا بقاؤه

يصده عن فنائه، يعطي كل ذي قسط قسطه ويوفي كل ذي حق حقه.

وهذا حال خواص الخواص، فإن من شرب من كؤوس التوحيد فازداد صحواً بعد سكره، وغاب عن الخلق فازداد حضوراً معهم بربه قد شرب بالكأسين وجمع بين المزيتين، فباطنه مكمل بالحقيقة، وظاهره مجمل بالشريعة، فيشكر الخلق والحق ولا يغيب عن الحق في حال مخالطة الخلق ليعطي كل ذي قسط قسطه ـ بكسر القاف ـ أي: نصيبه وعطف ما بعده عليه للتفسير، ومن أهل هذا المقام الصديق الأكبر بطريق الوراثة عن النبي الأطهر كما قال المصنف:

وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها لما نزلت براءتها من الإفك على لسان رسول الله ﷺ: يا عائشة! اشكري رسول الله ﷺ فقالت: والله لا أشكر إلا الله، دلها أبو بكر رضي الله عنه على المقام الأكمل؛ مقام البقاء المقتضي لإثبات الآثار، وقد قال الله تعالى: ﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾[1] وقال ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[2]. وكانت هي في

---

(١) سورة لقمان: الآية (١٤)، وتمامها مع التي بعدها: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وَهْناً على وَهْنٍ وفصاله في عامين أنِ اشكُرْ لي ولوالديك إليَّ المصير * وإنْ جاهداك على أنْ تشركَ بي ما ليس لك به عِلمٌ فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبعْ سبيلَ مَنْ أنابَ إليَّ ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾.

(٢) الحديث: رواه بهذا اللفظ أحمد في «المسند» (٢/٣٠٣، ٣٨٨، ٤٦١، ٤٩٢) وأبو داود رقم (٤٨١١) في الأدب، باب في شكر المعروف، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٢٠٧٠) موارد الظمآن. ورواه الترمذي رقم (١٩٥٥) في البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك بلفظ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله». ورواه أحمد في «المسند» بلفظ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه أحمد في «المسند» (٣/٣٢) والترمذي رقم (١٩٥٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، بلفظ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله». وأحمد (٤/٢٧٨) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه. وهو حديث صحيح.

قال ابن العربي: روي برفع لفظ الجلالة، و«الناس» ومعناه: من لا يشكر الناس لا يشكر الله، وبنصبهما، أي: من لا يشكر الناس بالثناء عليهم بما أولوه، لا يشكر الله، فإنه أمر =

ذلك الوقت مصطَلَمة عن شاهدها، غائبة عن الآثار فلم تشهد إلا الواحد القهار.

يعني أن أبا بكر الصديق كان في مقام الفرق الذي هو أعلى من مقام عائشة إذ ذاك، فإنها كانت في مقام الجمع لأنها كانت مصطلمة؛ أي فانية عن شاهدها وهو حكم بشريتها، ويفسره قوله غائبة عن الآثار بل ترقت عنه إلى مقام القهار، ولم يكن هذا الحال لازماً لها في جميع أوقاتها بل ترقت عنه إلى مقام الفرق كأبيها. والإفك: هو الكذب عليها، وإن أردت تفصيل هذه القصة فعليك بشرحنا على مختصر الإمام ابن أبي جمرة، وفيه أن الذي قال لها ذلك أمها، ولعل القول صدر منهما معاً ليحصل الجمع بين الروايتين.

= بذلك عبيده، أو من لا يشكر الناس كمن لا يشكر الله، ومن شكرهم كمن شكره، وبرفع «الناس» ونصب لفظ الجلالة، وبرفع لفظ الجلالة ونصب «الناس». ومعناه: لا يكون من الله شكر إلا لمن كان شاكراً للناس، وشكر الله: زيادة النعم وإدامة الخير والنفع منها لدينه ودنياه. اهـ «جامع الأصول» تحقيق عبد القادر أرناؤوط هامش (٢/ ٥٥٩).

(٣) ولما سئل رضي الله عنه عن قوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1] هل ذلك خاص به ﷺ أو لغيره منه نصيب؟ أجاب بقوله:

إن قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود، فالرسول ﷺ ليس معرفة كمعرفته فليس قرة عين كقرته، وإنما قلنا إن قرة عينه في صلاته بشهوده جلال مشهوده لأنه قد أشار إلى ذلك بقوله في الصلاة ولم يقل بالصلاة إذ هو صلوات الله عليه وسلامه لا تقر عينه بغير ربه وكيف وهو يدل على هذا المقام ويأمر به من سواه بقوله ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه»[2] ومحال أن يراه ويشهد معه سواه فإن قال قائل قد تكون قرة العين بالصلاة لأنها فضل من الله وبارزة من عين

(١) الحديث: جزء من حديث أوله: «حُبِّبَ إليَّ من الدنيا: النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة». رواه أحمد في «المسند» (١٢٨/٣، ١٩٩، ٢٨٥) والنسائي في عشرة النساء، باب حب النساء (٦١/٧) والحاكم (١٦٠/٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. وبعض الناس يزيد في الحديث كلمة ثلاث «حبب إليّ من الدنيا ثلاث: . . .» وكلمة «ثلاث» لا أصل لها في شيء من طرق الحديث، ومفسدة للمعنى، لأن النساء والطيب من الدنيا، وقرة العين في الصلاة ليست من الدنيا.

(٢) الحديث: جزء من حديث طويل رواه الطبراني في «الكبير» من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. والحديث بتمامه: «اعبد الله كأنك تراه، وعُدَّ نفسك في الموتى، وإياك ودَعَوات المظلوم فإنهن مجابات، وعليك بصلاة الغداة وصلاة العشاء فاشهدهما، فلو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبواً» وإسناده ضعيف، ولكن له شاهد من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه عند أبي نعيم في «الحلية»، وله شاهد آخر من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عند

منة الله فكيف لا يفرح بها؟ وكيف لا تكون قرة العين بها؟ وقد قال سبحانه: ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾[1] الآية فاعلم أن الآية قد أومأت إلى الجواب لمن تدبر سر الخطاب إذ قال فبذلك فليفرحوا، وما قال فبذلك فافرح يا محمد قل لهم فليفرحوا بالإحسان والتفضل وليكن فرحك أنت بالمتفضل كما قال في الآية الأخرى ﴿ قل اللهُ ثم ذرهم في خضوهم يلعبون ﴾[2].

قرة العين - بضم القاف وتشديد الراء - عبارة عن كمال الفرح والسرور ويختلف ذلك باختلاف الناس قوة وضعفاً على حسب معرفتهم بمعبودهم الذي يناجونه في صلاتهم، ومعلوم أن أكمل الناس في المعرفة سيد الأولين والآخرين، فلذلك لم تكن قرة عين كقرته من الناس أجمعين وكانت قرة عينه ﷺ في الصلاة بربه لا بالصلاة لأن ذلك هو المقام الأكمل.

وأما من كانت قرة عينه بالصلاة نظراً لكونها من الفضل فمقامه أنزل ولا يليق به ﷺ وبمن كان على قدمه من خواص أتباعه إلا أكمل الحالات. أسأل الله بجاهه العظيم أن يوصلنا إلى رفيع الدرجات.

= الطبراني فهو بهما حسن. وهو جزء أيضاً من الحديث الطويل الذي رواه مسلم رقم (٨) في الإيمان من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي سأل فيه جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن الإسلام، والإيمان، ثم قال له: أخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

(١) سورة يونس: الآية (٥٨)، وتتمتها: ﴿ هو خيرٌ مِمَّا يجمعون ﴾.

(٢) سورة الأنعام: الآية (٩١)، وتمامها: ﴿ وما قَدَرُوا الله حق قَدْرِهِ إذ قالوا ما أنزل الله على بَشَرٍ من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعُلِّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل اللهُ ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾.

(٤) ومما كتبه رضي الله عنه لبعض إخوانه قوله:

الناس في ورود المنن على ثلاثة أقسام: فرح بالمنن لا من حيث مهديها ومنشئها ولكن بوجود متعته فيها فهذا من الغافلين يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ﴾[١] وفرح بالمنن من حيث إنه[٢] شهدها منة ممن أرسلها، ونعمة ممن أوصلها يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾[٣] وفرح بالله ما شغله من المنن ظاهر متعتها ولا باطن منتها بل شغله النظر إلى الله عما سواه والجمع عليه فلا يشهد إلا إياه يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾[٤].

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٤٤)، وتمامها مع التي بعدها: ﴿ فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به فَتَحْنَا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ حتى إذا فرحوا بما أُوتُوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مُبْلِسون * فقُطِعَ دابرُ القومِ الذين ظلموا والحمدُ للهِ ربِّ العالمين ﴾.

(٢) بفتح همزة إن وكسرها، والفتح على أنها مؤولة بمصدر خبره محذوف، والتقدير؛ من حيث شهودها حاصل، والكسر على أن ما بعدها جملة مستقلة غير مؤولة.

(٣) سورة يونس: الآية (٥٨).

(٤) سورة الأنعام: الآية (٩١)، وتمامها: ﴿ وما قَدَروا اللهَ حقَّ قَدْرِهِ إذ قالوا ما أنزلَ اللهُ على بشرٍ من شيءٍ قُلْ مَنْ أنزلَ الكتابَ الذي جاءَ به موسىٰ نوراً وهدىً للناس تجعلونَهُ قراطيسَ=

يعني من الناس قسم فرح - بفتح الفاء وكسر الراء منوناً - أي شديد الفرح بالمنن؛ أي النعم، لا من حيث مهديها ومنشئها وهو الله تعالى، وإنما فرحه بسبب تمتعه بها، فهذا الفريق أشبه شيء بالأنعام الذين يأكلون ويشربون ويغفلون عن صاحب الإنعام، فربما كانت عليهم النعم استدراجاً، فكلما أعطوا نعمة ازدادوا غفلة عن شكر المنعم حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وقسم فرِح بالنعم من حيث إنه شهدها مِنَّةً وفضلاً ممن أرسلها إليه، ونعمة ممن أوصلها لديه وهو الله تعالى فشكره سبحانه عليها، وشرف بذلك ولكن انحط قدره حيث نظر إلى حظ نفسه في النعمة، وارتكن إليها فإذا نزعت منه تغير عليها فهو مخاطب بما خوطب به أوساط المؤمنين في الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾[1]. وقسم في غاية الشرف والكمال لم ينظر بعين البصيرة إلا للمنعم المفضال، فلم يلتفت إلى ظاهر متعة النعم؛ أي التمتع بها كالقسم الأول، ولا إلى باطن منتها من حيث إنها منة من الله وعناية منه بهم كالقسم الثاني، بل شغله النظر إلى الله تعالى عما[2] سواه، والجمع عليه بقلبه فلا يشهد إلا إياه، لأن المشاهد للمنعم فانٍ عن حظوظ نفسه، فهو يرى الأشياء كلها نعماً لا فرق عنده بين وجود وعدم، ولا منع وعطاء، لا يخاف عليه من التغير والانقلاب لتغير الأفعال والأسباب، فهو الذي يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾[3].

= تُبْدُونَها وتُخفونَ كثيراً وعُلِّمْتُم ما لم تَعْلَمُوا أنتم ولا آباؤكم قُلِ اللهُ ثُم ذَرْهم في خَوْضِهم يلعبون ﴾.

(١) سورة يونس: الآية (٥٨)، وتمامها: ﴿ هو خيرٌ مِمَّا يجمعون ﴾.

(٢) وفي نسخة: «عمن».

(٣) سورة الأنعام: الآية (٩١)، وتمامها: ﴿ وما قَدَروا الله حقَّ قَدْره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل مَنْ أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعُلِّمْتُم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾.

وقد أوحى الله إلى داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: **يا داود! قل للصديقين بي فليفرحوا وبذكري فليتنعموا**. يعني أن من كان كثير الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال، فلا ينبغي أن يفرح إلا بكونه عبداً لذي العزة والجلال ولا يتلذذ إلا بذكر الكبير المتعال. فإنه إذا كان بهذه المثابة يُبَلِّغُهُ سيده الآمال. **والله تعالى يجعل فرحنا وإياكم به وبالرضا منه، وأن يجعلنا من أهل الفهم عنه، وأن لا يجعلنا من الغافلين، وأن يسلك بنا مسلك المتقين بمنه وكرمه** آمين.



المناجاة الإلَٰهية

وقال رضي الله عنه في مناجاته، وكلها حكم عجيبة لها في القلوب تأثيرات غريبة، لا سيما إذا استعملت في الأسحار، فإنها تكسو القلوب جلابيب الأنوار.

(١) إلَٰهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري؟!

(٢) إلَٰهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي؟!

يعني أنا الفقير إليك في الحالة التي تغنيني فيها، والجاهل في حال علمي فإن فقري وجهلي من صفاتي الذاتية، والغنى والعلم من الصفات العرضية، والعارض بصدد الزوال، فلا تتوهم أيها الناظر أن فيه الجمع بين المتنافيين تكن من أهل الكمال. وقدم المصنف هذا بين يدي دعائه ليكون أرجى للإجابة، كما قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾[1] التضرع في الدعاء أن تقدم إليه افتقارك وعجزك، لا أن تقدم إليه صلواتك وفعلك. وقال

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٥٥)، وتتمتها مع التي بعدها: ﴿إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾.

قال النسفي في تفسيره (٢/٥٧) في تفسير قوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾: نصب على الحال أي ذوي تضرع وخفية، والتضرع تفعل من الضراعة وهي الذل، أي تذللاً وتملقاً. قال عليه الصلاة والسلام: «إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً إنما تدعون سميعاً قريباً، إنه معكم أينما كنتم». عن الحسن: بين دعوة السر والعلانية سبعون ضعفاً. ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ المجاوزين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره، وعن ابن جريج: =

سهل بن عبد الله: ما أظهر عبد فقره إلى الله تعالى في وقت الدعاء في شيء يحل به، إلا قال لملائكته: لولا أنه لا يحتمل كلامي لأجبته لبيك.

(٣) إلٓهي إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول مقاديرك، منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء، واليأس منك في بلاء.

يعني أن اختلاف ما تدبره يا الله في المخلوقات؛ بالصحة والمرض، والغنى والفقر، والطاعة والمعصية، والقبض والبسط، والقناعة والحرص، ونحو ذلك وسرعة حلول ما تقدره عليهم، منعا عبادك العارفين بك عن سكونهم إلى عطاء منك، سواء كان دنيوياً كالأموال، أو دينياً كالمعارف، وعن يأسهم منك في رفع بلاء عنهم أوقعته بهم، سواء كان دنيوياً؛ كفقر، أو دينياً؛ كمعصية، لأن العبرة بالخواتم والنهايات. فكم من ذي مال صار فقيراً، وكم من فقير صار غنياً، وكم من مريض صار صحيحاً، وكم من صحيح صار مريضاً، وكم من طائع صار عاصياً، وكم من عاص صار مطيعاً، فنسأله سبحانه حسن الختام بجاه النبي عليه الصلاة والسلام.

(٤) إلٓهي مني ما يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك.

أي مني ما يليق بلؤمي الذي هو وصف العبيد من مبارزتك بالذنوب، ومنك ما يليق بكرمك الذي هو وصف الربوبية من التجاوز والعفو وستر العيوب، وهذا الكلام من ألطف آداب الدعاء، ولا يخيب عبد به إلى الله التجأ.

(٥) إلٓهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي، أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفي.

يعني أن اللطف والرأفة التي هي شدة الرحمة قد اتصف بهما سبحانه في

= الرافعين أصواتهم بالدعاء. وعنه الصياح في الدعاء مكروه وبدعة. وقيل هو الإسهاب في الدعاء. وعن النبي ﷺ: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل» ثم قرأ: ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾.

الأزل. فقال: ﴿ الله لطيف بعباده ﴾[1]. أي مريد بهم الرفق والرحمة فيما لا يزال، ولا يتصور أن يمنع العبد منهما بعد وجوده فإن وعده سبحانه لا يخلف.

(٦) إلّهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك، ولك المنة عليّ، وإن ظهرت المساوي مني فبعدلك، ولك الحجة عليّ.

أي إن ظهرت أنواع الطاعات والصفات المحمودة مني فبفضلك، ولك المنة؛ أي الامتنان علي بشهادة ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ﴾[2] وملاحظة ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور ﴾[3]. وإن ظهرت المساوي؛ أي أنواع المعاصي والصفات المذمومة مني فبعدلك، لا بطريق الظلم فإنك متصرف في ملكك ولك الحجة عليّ، لأنك رب وأنا عبد، فتقول: لم فعلت يا عبدي! وليس لي عليك حجة بأن أقول إن ذلك بتقديرك يا ربي، فإن ذلك شأن الجاهل، وأما العالم، فيقول: المالك يتصرف في ملكه كيف يشاء، بذوق ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾[4].

(٧) إلّهي كيف تكلني إلى نفسي وقد توكلت لي؟ وكيف أضام وأنت الناصر لي؟ أم كيف أخيب وأنت الحفي بي؟

يعني أن من أسمائه تعالى الوكيل؛ أي الكافي والناصر؛ أي مانع الضيم والذل، والحفي ـ بالحاء المهملة والفاء ـ أي اللطيف، وهذه الأسماء تقتضي

---

(١) سورة الشورى: الآية (١٩)، وتتمتها: ﴿ يرزق من يشاء وهو القوي العزيز ﴾.
(٢) سورة النور: الآية (٢١)، وتمامها: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يَتَّبِعْ خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زَكَىٰ منكم من أحد أبداً ولكنَّ الله يُزَكِّي من يشاء والله سميع عليم ﴾.
(٣) سورة النور: الآية (٤٠)، وتمامها: ﴿ أو كظلمات في بحر لُجِيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾.
(٤) سورة الأنبياء: الآية (٢٣).

وجود آثارها من كفاية العبد، ونصرته واللطف به.

ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟ أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك؟ أم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك؟ أن كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك؟.

لما كان أعظمَ ما يتوسل ـ أي يتقرب به العبد إلى مولاه ـ فَقْرُهُ إليه في كل حال من الأحوال، لكونه مقتضى العبودية بلا اشتباه، قال المصنف: ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك، ثم إنه ترقى عن هذا المقام، ورأى أن التوسل بالفقر معلول عند العارفين الأعلام، فإنَّ توسل العبد به يقتضي شهوده له واعتماده عليه، ورأى أيضاً أنه لا مناسبة بين المتوَسَّل به والمتوَسَّل إليه، فقال: وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟ فلا يصح التوسل بالفقر من هذا الوجه عند العارفين، كما هو مقتضى الحقيقة، والأول مقام السالكين وهو مقتضى الشريعة. ويناسب مقام العارفين، ما حكي أن سيدي أبا الحسن الشاذلي دخل على شيخه سيدي عبد السلام، فقال له: يا أبا الحسن! بماذا تلقى الله تعالى؟ فقال له: بفقري. فقال له الشيخ: والله لئن لقيتَ الله بفقرك لتلقَيَنَّه بالصنم الأعظم، ولا تصح حقيقة الفقر إلا بالغيبة عن الفقر، وإلا كنت غنياً بفقرك. ا هـ ثم إن المصنف ترقى إلى مقام الخليل المقتضي لترك الدعاء والتسليم إلى الملك الجليل، فتعجب من نفسه في حال السؤال السابق وقال: أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك؟ فإن الخليل لما قال له جبريل: ـ عندما أراد النمرود أن يلقيه في النار ـ سل مولاك. فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. ثم تعجب أيضاً من كونه يسأل بقوله: أم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك؟ يعني أن العبد لا تنسب إليه الترجمة والسؤال، فإن الذي أنطق لسانه إنما هو الكبير المتعال، ومن أنطق لسانه عالم بأحواله، فهو المسؤول الذي يتفضل عليه عند تحريك لسانه بحصول آماله، ولذا قال: أم كيف تخيب آمالي ـ أي ما أؤمله وأرتجيه من كل ما يرام ـ وهي قد وفدت ـ أي توجهت ـ إليك كما تتوجه

الوفود إلى الكرام وأنت أكرم الأكرمين، فافعل بنا ما أنت أهله يا أرحم الراحمين. ثم إنه ترقى عن مقام نسبة التقصير للنفس، الذي اقتضته هذه التعجبات، لأنه غير لائق بالعارفين لما فيه من رؤية النفس، وملاحظة حالها والعارف لا يرى غير الله، ويرى أن الأحوال كلها حسنة من حيث نسبتها له، فقال: أم كيف لا تحسن أحوالي الباطنية والظاهرية، وبك قامت ؟ ـ أي صدرت ـ وإليك رجعت لأنك المقصود بها.

(٨) إلّهي ما ألطفك بي مع عظيم جهلي، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي!

ما تعجبية؛ أي ما أكثر لطفك ورفقك بي، مع جهلي العظيم بعواقب الأمور فربما أقصد ما فيه ضرر فيمنعني لطفك عنه، ويرشدني إلى ما فيه النفع والسرور وما أعظم رحمتك بي، مع فعلي القبيح المقتضي ـ لولا عظيم إحسانك إليّ ـ للتأديب والتقبيح.

(٩) إلّهي ما أقربك مني، وما أبعدني عنك!

أي ما أشد قربك مني بالإحاطة والاقتدار، وما أبعدني عنك بصفاتي التي لا تليق للقرب من العزيز الغفار، ثم ترقى فقال:

(١٠) إلّهي! ما أرأفك بي! فما الذي يحجبني عنك؟

أي ما أشد رأفتك بي التي أفنى بها عن رؤية نفسي، فما الذي يحجبني عنك؛ أي فلا حاجب لي عن الرب المعبود، ما دمت في هذا الشهود.

(١١) إلّهي! قد علمتُ باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار، أن مرادك أن تتعرف إليّ في كل شيء، حتى لا أجهلك في شيء.

يعني قد علمت باختلاف الآثار عليَّ، التي هي تنقلات الأطوار، أي الأحوال؛ من صحة ومرض، وغنى وفقر، وعز وذل، وقبض وبسط، وطاعة وعصيان، إلى غير ذلك من الشؤون التي تبديها ولا تبتدئها، بشهادة ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾[1] وأيقنت أن مرادك مني أن تتعرف إليّ تعرفاً خاصاً في كل

(١) سورة الرحمن: الآية (٢٩)، وتمامها: ﴿يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن﴾.

شيء، حتى أعرفك ولا أجهلك في شيء، فأشكرك في حال النعمة، وأصبر في حال النقمة. وأما لو ألزمتني حالة واحدة لكانت معرفتي ناقصة، فأنا الآن أتقلب بالمعرفة في جنة أتبوأ منها حيث أشاء. قال بعضهم: في الدنيا جنة معجلة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة، ولا لشيء أبداً ولم يستوحش من شيء. قيل: وما هي؟ قال: معرفة الله تعالى.

(١٢) إلَهي! كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك، وكلما آيستني أوصافي أطمعتني مننك.

أي كلما أخرسني عصياني الناشئ عن لؤم العبيد المانع من انطلاق اللسان بالطلب من العزيز الحميد، أنطقني كرمك العام الذي لا يخص من استقام، وكلما آيستني ـ أي أوقعتني في اليأس من الاستقامة ـ أوصافي الذميمة، أطمعتني في ذلك مننك التي شملت البار والفاجر فلم تخص صاحب الأوصاف العظيمة.

(١٣) إلَهي! من كانت محاسنه مساوي فكيف لا تكون مساويه مساوي؟ ومن كانت حقائقه دعاوي فكيف لا تكون دعاويه دعاوي؟.

أي من كانت أعماله الصالحة عيوباً في نفس الأمر لعدم خلوها من دقائق العجب والرياء، فإنه أخفى من دبيب النمل، فكيف لا تكون مساويه ـ أي عيوبه الظاهرة وأعماله السيئة ـ مساوي؟ أي عيوباً في نفس الأمر فصح الإخبار. ومن كانت حقائقه ـ أي الأمور التي يتحقق بها من العلوم والمعارف ـ **دعاوي** لا حقائق لها في نفس الأمر، فكيف لا تكون **دعاويه** التي يدعيها **دعاوي**[1] في نفس الأمر؟ فالكمال المنسوب إلى العبد نقصان على التحقيق، فما ظنك بنقصانه؟ أسأل الله العفو والتوفيق.

(١٤) إلَهي حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذي مقال مقالاً، ولا لذي حال حالاً.

---

(١) الدعوى: تجمع على دعاوِي، ودعاوَى. انظر المصباح المنير.

أي قضاؤك النافذ في خلقك، ويفسر ذلك قوله: ومشيئتك القاهرة، لم يتركا لذي مقال مقالاً، فمن كان ينطق بالحكمة البهية، ويتكلم بالعلوم والمعارف الربانية لم يغتر بذلك لأن المشيئة قهرت غيره بسلب ما كان معه، فيكون دائماً في مقام الخوف، وكذلك إذا كان ذا حال من الأحوال بأن حصل له الكشف، فإنه لا يغتر بذلك لما شوهد من سلب كثير من الرجال، فوجب الفرار من كل شيء إليه والاعتماد في جميع الأحوال عليه.

(١٥) إلّهي! كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادي عليها عدلك، بل أقالني منها فضلك.

أي كم من طاعة ظاهرية بنيتها؛ أي أقمتها على الوجه المأمور به، وحالة باطنية شيدتها بالإخلاص فيها، وتطهيرها مما يكدر صافيها، ولما رأيت أني صرت بها في حصن حصين من النار، وأيقنت بحصول الثواب في دار القرار، هدم اعتمادي عليها عدلك الذي مقتضاه أنك تفعل ما تشاء وتختار، فلك أن تعذب الطائع وترحم العاصي، فأقالني من الاعتماد عليها فضلك الذي هو أحسن عوض يا عزيز يا غفار.

(١٦) إلّهي! أنت تعلم وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزماً، فقد دامت محبة وعزماً.

يعني أن عدم دوام فعل الطاعة مجزوم به، لكن دامت محببتي لها وعزمي عليها كما يعلم الله، وهذا فضل كبير مَنَّ به اللطيف الخبير.

(١٧) إلّهي! كيف أعزم وأنت القاهر، وكيف لا أعزم وأنت الآمر؟.

مقصوده الجمع بين الحقيقة والشريعة، فكن بالحقيقة مُؤَيَّداً وبالشريعة مُقَيَّداً لأن العبد إذا شاهد عجزه وضعفه، وأنه لا مشيئة له إلا بمشيئة ربه، لم يبق في نظره عزم فضلاً عن الجزم، فضلاً عن العمل، فلا ينسب شيئاً إلى نفسه ولا يسعه إلا التسليم والانقياد لقضاء ربه، وإذا نظر إلى تكليفه وأمره ونهيه حاول العزم وعالج الجزم وسارع إلى العمل، والله تعالى يرزقنا التوفيق، وبلوغ الأمل.

(١٨) إلّهي! ترددي في الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك.

أي تعلقي بالآثار التي هي المكوَّنات من حيث الاستدلال بها عليك، يوجب بُعد المزار؛ أي الوصول إليك؛ فاجمعني عليك؛ أي أوقفني بين يديك بخدمة أي طاعة، من أذكار ورياضات ومجاهدات، فإنها وإن كانت من الآثار لكنها من حقوق الله التي بها يصل العبد بمعونته تعالى إلى رفيع الدرجات.

(١٩) إلّهي! كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟.

يشير إلى أن أرباب الدليل والبرهان عوام عند أهل الشهود والعيان، فإنه شتان بين من يسْتَدِلُّ به وبين من يَسْتَدِلُّ عليه، وقد قال أبو الحسن الشاذلي: كيف يُعْرَفُ بالمعارف من به عرفت المعارف؟ أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده وجود كل شيء؟ اهـ جعلنا الله به من العارفين بجاه سيد الأولين والآخرين.

(٢٠) إلّهي! عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبك نصيباً.

يعني إذا لم يلاحظ العبد أن الله رقيب عليه فذلك لعمى بصيرته، التي هي عين قلبه فيكون غافلاً عن قوله تعالى: ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ﴾(١).

قال الإمام القشيري: خوَّفهم بما عرَّفهم من اطلاعه عليهم في جميع أحوالهم، ورؤيته لما يسلفونه من فنون أعمالهم، والعلمُ بأنه يراهم يوجب

(١) سورة يونس: الآية (٦١)، وتتمتها: ﴿ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾.

استحياؤهم منه. وفي الحديث: «أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان»[1] وقوله وخسرت صفقة ـ أي تجارة ـ عبد لم يجعل له من حبك نصيباً؛ أي من حبك له بمزيد التفضل والإحسان، وحبه لك بالطاعة التي تقربه إلى مواهب الرضوان، فيكون من الذين قال الله فيهم: ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾[2] وفي بعض الآثار: يا عبدي أنا لك محب فبحقي عليك كن لي محباً.

(٢١) إلَهي! أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار، حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ﴿إنك على كل شيءٍ قدير﴾[3].

أي أمرت يا الله بعد سفر الترقي؛ الذي هو الوصول إلى صريح المعرفة بالرجوع إلى الآثار ـ أي المكوَّنات ـ الذي هو سفر التدلي، فارجعني إليها ـ بوصل الهمزة ـ مكسواً بكسوة أنوار اليقين، ومؤيداً بهداية الاستبصار وهي العلم الراسخ المتين، حتى أرجع إليك منها بأن أشاهدك فيها ولا أشتغل بها عنك، كما دخلت إليك منها بالاستدلال بها عليك في ابتداء السلوك، فإني إذا كنت مؤيَّداً منك بما ذكر كنت مصون السر عن النظر إليها بعين الاستحسان، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها في نوال أو إحسان.

---

(١) الحديث: ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» من رواية الطبراني في «الكبير» وأبي نعيم في «الحلية» من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، بلفظ: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت» وهو حديث ضعيف، كما قال المناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٢/ ٢٩).

(٢) سورة المائدة: الآية (٥٤)، وتمامها مع ما بعدها: ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دِينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * إنما وَلِيُّكمُ اللهُ ورسولُه والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتولَّ اللهَ ورسولَهُ والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾.

(٣) سورة آل عمران: الآية (٢٦)، وتمامها: ﴿ قل اللهم مالِكَ المُلْكِ تؤتي المُلْكَ من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتُعِزُّ من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيءٍ قدير ﴾.

(٢٢) إلٰهي هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدل عليك فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

بمثل هذا الدعاء يرجى جزيل العطاء، فإن مع الذلة تكون النصرة، قال تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾[١] فمن تذلل بين يدي مولاه؛ أي قدرته وإرادته، أمده بجنود عـزته، وما ألطف قول بعضهم:

ومـا رُمْتُ الـدخـولَ عليـه حتى ... حـللت محـلة العَبْـدِ الـذَلـيـلِ
وأغضيتُ الجفـونَ على قـذاهـا ... وصنتُ الـنفسَ عـن قـالٍ وقيـلِ
وذلُّ الـعبـدِ لـلمـولى غـنـاهُ ... وغـايتُـهُ إلى الـعـزِّ الـطويـلِ

ثم إن مطلب العارفين ـ منه لا من غيره ـ الوصولُ إليه والاستدلال به عليه إذ لا وصول إلى معرفته سبحانه إلا بتعريفه، فلذا سأل ذلك المصنف بقوله: منك أطلب الوصول إليك وبك أستدل عليك، فاهدني بنورك؛ أي نور الإيمان واليقين إليك؛ أي إلى معرفتك، وأقمني بصدق العبودية؛ أي بالعبودية الصادقة بين يديك بأن أكون حاضر القلب معك، وأنا في غاية التذلل والخضوع لك ظاهري كباطني.

(٢٣) إلٰهي! علمني من علمك المخزون، وصني بسر اسمك المصون.

أي من علمك اللدني الذي اختزنته عندك لخاصة أوليائك، كما قلت في كتابك العزيز في حق الخضر عليه السلام: ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾[٢]. قال أبو بكر الواسطي في قوله تعالى: ﴿والراسخون في العلم﴾[٣]: هم الذين

(١) سورة آل عمران: الآية (١٢٣)، وتمامها: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾.

(٢) سورة الكهف: الآية (٦٥)، وتمامها مع ما بعدها: ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً * قال له موسى هل أتبعك على أن تُعَلِّمَنِ مما عُلِّمْتَ رُشْداً * قال إنك لن تستطيع مَعِيَ صبراً﴾.

(٣) سورة آل عمران: الآية (٧)، وتمامها: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات =

رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب، وفي سر السر فعرّفهم ما عرّفهم وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادة، فانكشف لهم من مدخور الخزائن، والمخزون تحت كل حرف وآيـة من الفهم وعجائب النظر، فاستخرجوا الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة وقال بعضهم: العلم اللدني هو أسرار الله يبديها إلى أنبيائه وأوليائه وسادات النبلاء، من غير سماع ولا دراسة. وقوله وصني؛ أي احفظني عن رؤية الأغيار بسر اسمك المصون؛ أي أسمائك المصونة وسرها ما يتوارد على القلب من أنوارها.

(٢٤) ألّهي! حققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي مسالك أهل الجذب.

أي أعطني مقامات أهل القرب منك؛ وهي الفناء في التوحيد والتحقق بالتجريد، فتبطل في حقهم رؤية الأسباب ويزول عن مطمح نظرهم كل ستر وحجاب، واسلك بي مسالك أهل الجذب وهم المحبوبون المرادون، فإن مسالكهم في غاية السهولة، لأن الله جذبهم إليه وأخرجهم من أسر النفس والسِّوىٰ حتى أقبلوا بعنايته عليه. أسأل الله أن يقرب لنا الطريق إنه ولي التوفيق.

(٢٥) إلّهي! أغنني بتدبيرك عن تدبيري، وباختيارك لي عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري.

لما كان كل من التدبير والاختيار مختصاً بالواحد القهار، سأله أن يغنيه عنهما حتى لا يكون له التفات إليهما، فإن في ذلك منازعة للربوبية ومباعدة عن مقام العبودية إذ العبد ليس له إلا الوقوف على مراكز الاضطرار؛ أي مواضعه من الذل والفقر والعجز ليحصل له المدد من ذي العزة والاقتدار، فلذا طلب المصنف الوقوف عليها ليكون متحققاً بها ومديم النظر إليها، ومن تعلق بصفات مولاه فإنه يبلغه بتدبيره واختياره ما يتمناه.

= هُنَّ أمُّ الكتاب وأُخَرُ متشابهات فأما الذين في قلوبهم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾.

(٢٦) إلٰهي! أخرجني من ذل نفسي، وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي.

أي أخرجني يا الله من ذل نفسي لغيرك بالطمع والحرص، وطهرني من شكي؛ الذي هو ضيق الصدر عند إحساس النفس بأمر مكروه يصيبها، فإذا ضاق الصدر أظلم القلب وكثر الحزن والهم، والطهارة منه تكون بحصول ضده وهو اليقين، وبقدر ما يصيب القلب من نور اليقين يكون انشراحه وفرحه بالله تعالى. وفي الحديث: «إن الله تعالى بقسطه وعدله جعل الرَّوح[1] والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»[2] والشرك تعلق القلب بالأسباب عند غفلته عن المسبب، والطهارة منه تكون بوجود ضده وهو نور التوحيد، وكل من قوي نور التوحيد في قلبه كان خلاصه من الشرك أكثر، فتضمحل عنده الأسباب ويكون تعلقه بمسبِّب الأسباب. والرمس ـ بفتح الراء المشددة وسكون الميم ـ القبر.

بك أستنصر فانصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، وإياك أسأل فلا تخيبني، وفي فضلك أرغب فلا تحرمني، ولجنابك أنتسب فلا تبعدني، وببابك أقف فلا تطردني.

أي بك يا منان أطلب النصر على نفسي والهوى والشيطان، فانصرني يا نعم المولى ويا نعم النصير، فإني عاجز ضعيف وأنت القوي القدير، وعليك أتوكل؛ أي أعتمد وإليك أنيب، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك يا نعم المجيب، وإنما قال: فلا تكلني بعد قوله: وعليك أتوكل، مع أن من توكل على الله لا يكله لقوله تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[3]

---

(١) الرَّوح: الراحة والرحمة والسعة. مختار القاموس.

(٢) الحديث: رواه الطبراني عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) سورة الطلاق: الآية (٣)، وتمامها مع ما قبلها: ﴿... ومن يتقِ اللهَ يجعل له مخرجاً * ويرزقْهُ من حيث لا يحتسب ومن يتوكلْ على الله فهو حسبه إن الله بالغُ أمرِهِ قد جعل اللهُ لكل شيءٍ قدْراً﴾.

لأن العارف يتهم نفسه ويشهد تقصيرها في الإتيان بحق التوكل، فكأنه يقول فلا تكلني وإن كان توكلي ضعيفاً، وكذا يقال فيما بعده؛ أي فلا تخيبني وإن لم أكن أهلاً للإجابة، ولا تحرمني وإن لم أصدق في الرغبة، ولا تبعدني وإن لم أصدق في الانتساب لجنابك؛ أي ذاتك، أي لم أصدق في الانتساب بالعبودية لها، ولا تطردني وإن لم أقم بشروط الوقوف ببابك للسؤال.

(٢٧) إلّهي! تقدس رضاك عن أن تكون له علة منك. فكيف تكون له علة مني؟ أنت الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك، فكيف لا تكون غنياً عني؟.

أي تنزه رضاك الذي هو إرادة الإحسان عن أن تكون له علة منك لأن القديم لا يكون مسبوقاً بشيء، فكيف تكون له علة مني كأعمالي وأحوالي؟ فرضا المولى لا يتوقف على سبب ولا علة، بل رضاه وسخطه هما سبب أعمال العاملين حسنها وسيئها، رضي عن قوم فاستعملهم في خدمته، وسخط على قوم فأبعدهم عن حضرته، ثم علل ذلك بقوله: أنت الغني بذاتك إلخ.

(٢٨) إلّهي! إن القضاء والقدر غلبني، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرني، فكن أنت النصير لي حتى تنصرني وتنصر بي، وأغنني بفضلك حتى أستغني بك عن طلبي.

يعني أن القضاء الذي هو إرادة الله مع التعلق في الأزل، والقدر ـ بتحريك الدال المهملة ـ الذي هو إيجاد الله الأشياء على وفق إرادته غلبني؛ أي غلبني كل منهما ـ وفي نسخة غلباني ـ وإن الهوى؛ أي ميل النفس إلى شهواتها أسرني؛ أي قيدني بالشهوة، بالشهوة الشبيهة بالوثاق، أي القيد الذي يقيد به الأسير، وهذا اعتذار لا احتجاج، أي اعتراف منه بنفوذ الحكم وقهر المشيئة، وانتفاء الحول والقوة عنه وأنه لا يقدر على خلاص نفسه من شهواتها، ولا يستطيع نصرتها، ولذا أعقبه بقوله: فكن أنت النصير لي حتى تنصرني على النفس والهوى والشيطان، وتنصر بي سائر أحبابي على ما ذكر، فأكون سبباً لنفع

الإخوان والخلان، وأغنني ـ بقطع الهمزة ـ أي اجعلني غنياً بشهود فضلك حتى أستغني بك؛ أي بشهود منتك عن طلبي منك وهذا غاية السعادة، كما قال الشاذلي: والسعيد حقاً من أغنيتَه عن السؤال منك.

أنت الذي أشرقتَ الأنوار في قلوب أوليائك، حتى عرفوك ووحدوك، وأنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبابك، حتى لم يحبوا سواك ولم يلجؤوا إلى غيرك أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك متحولاً.

يعني أنت يا الله الذي أشرقتَ بفضلك أنوار المعارف واليقين في قلوب أوليائك، حتى بك عرفوك ووحدوك، وأنت الذي أزلتَ التعلق بالأغيار؛ أي المكوَّنات من قلوب أحبابك، حتى لم يحبوا سواك ولم يلجؤوا؛ أي لم يركنوا إلى غيرك لعلمهم أنك أنت المؤنس لهم بإدخال السرور عليهم، حيث أوحَشَتْهم العوالمُ التي كانوا يألفونها من أولاد وأموال وأصحاب، فإن من شاهد الأنس من الحق استوحش من كل شيء وعنه غاب، قال ذو النون المصري: بينما أنا أسير في بعض البوادي إذ لقيتني امرأة فقالت: من أنت؟ فقلت: رجل غريب. فقالت: وهل توجد مع الله أحزان الغربة؟ وقوله: وأنت الذي هديتهم. أي بنور المعرفة حتى استبانت أي ظهرت لهم المعالم؛ أي طرق الحق التي سلكوها. وقوله: ماذا وجد من فقدك؟ أي من فقد شهودك بتعلقه بالأغيار؛ أي لم يجد شيئاً ينفعه بل تعلق بالمضار. وما الذي فقد من وجدك؟ أي لم يفقد شيئاً من كان في مقام الشهود بل فاز بكل مقصود، فمن رضي دونك بدلاً لا يرجع إلا بالخيبة والحرمان ومن بغى عنك متحولاً ـ بفتح الواو المشددة ـ أي طلب التحول عن حضرتك والتعلق بالأكوان فقد عمه الخسران. وما ألطف ما قيل:

سَهَرُ العيونِ لغيرِ وجهِكَ باطلُ ... وبكاؤُهُنَّ لغيرِ فقْدِكَ ضائعُ

وناهيك قوله تعالى: ﴿قل أغير الله أتخذ ولياً فاطرِ السموات والأرض﴾[1].

(٢٩) إلهي! كيف يرجى سواك، وأنت ما قطعت الإحسان؟ وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟ يا من أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين، ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته، مستعزين، أنت الذاكر من قبل الذاكرين، وأنت البادىء بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين.

أي كيف يرجى سواك يا الله! وأنت ما قطعت الإحسان؟ بل إحسانك مستمر تحتاج إليه الأكوان، وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة هي الامتنان؟ فهذا تعجيب ممن يوجه الرجاء والطلب لغير الواحد المنان، يا من أذاق أحباءه ـ جمع حبيب ـ حلاوة مؤانسته؛ أي مؤانسته التي هي سرور القلب بشهود جمال المحبوب الشبيهة بالشيء الحلو المذاق، فقاموا بين يديه أي بحضرته متملقين؛ أي متلطفين في التودد بلطيف السؤال المشتمل على الذلة والانكسار للكبير المتعال، ويا من ألبس أولياءه ملابس هي هيبته، فقاموا بعزته مستعزين فرفعوا هممهم عن تعلقها بالأغيار تيهاً بعزة رب العالمين. أنت الذاكر؛ أي الموفق للذكر من قبل وجود الذاكرين، وأنت البادىء بالإحسان والإرشاد للطاعة من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد ـ بتخفيف الواو ـ أي كثير الجود بالعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب أي كثير الهبة لنا، ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين حيث قلت: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾[2] وفي هذا من التعطف على عبيدك ورفعة قدرهم بفضلك ما

(١) سورة الأنعام: الآية (١٤)، وتمامها: ﴿قل أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فاطِرِ السماوات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطعَم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونَنَّ من المشركين﴾.

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٤٥)، وتمامها: ﴿من ذا الذي يُقْرِضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضاعفَه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾.

يليق بإحسانك وكرمك.

(٣٠) إلٰهي! اطلبني برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بمنتك حتى أقبل عليك.

أي اطلبني إلى القرب لحضرتك فإنه لا سبيل إلى الوصول إليها إلا بإحسانك ورحمتك، واجذبني؛ أي خذني مني بمنتك حتى أقبل عليك بمعونتك.

(٣١) إلٰهي! إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفي لا يزايلني وإن أطعتك.

يعني أن الرجاء والخوف يكونان للعارف كجناحي الطائر، لأن منشأ الأول مشاهدة صفات الجمال، ومنشأ الثاني مشاهدة صفات الجلال، فكما أنه لا تفاوت في الصفات لا تفاوت عندهم في مشاهدتها. وقد كان سيدي يحيى بن معاذ يقول: يكون رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال، لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أحررها وأنا بالآفة معروف؟ وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟ وقوله: كما أن خوفي لا يزايلني. أي لا يفارقني وإن أطعتك لعلمي بأنك الفعال لما تريد، فلا تنفع الطاعة من سخطت عليه من العبيد. أسأل الله دوام الرضا واللطف فيما قضى.

(٣٢) إلٰهي! قد دفعتني العوالم إليك، وقد أوقفني علمي بكرمك عليك.

أي قد دفعتني العوالم ـ التي استوحشتُ منها لعجزها وفقرها ـ إليك، فكلما توجهت إلى أحد ليعطيني أو ينصرني يقول: لا معطي ولا ناصر إلا الله، فجعلت معتمدي عليك فإن الكريم لا تتخطاه الآمال. أسأل الله أن يصلح لنا الحال والمآل.

(٣٣) إلٰهي! كيف أخيب وأنت أملي، أم كيف أُهان وعليك متكلي؟

أي كيف تحصل لي خيبة وعدم ظفرٍ بالمقصود وأنت أملي الذي عطاؤك غير محدود؟ أم كيف يحصل الهوان لي وعليك يا قوي يا متين مُتَّكلي؟

(٣٤) إلّهي! كيف أستعز وأنت في الذلة أركزتني، أم كيف لا أستعز وإليك نسبتي؟ أم كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أقمتني، أم كيف أفتقر وأنت الذي بجودك أغنيتني؟.

قد تَلَوَّن في هذه الأوصاف المتضادة لِمَا تلون عليه من مشاهدة ما يوجبها، فإذا شاهد أن الله أركزه في الذلة ـ بكسر الذال المعجمة ـ أي ذل النفس وجعلها مركزاً له، قال: كيف أستعز وأنت في الذلة أركزتني؟ وإذا شاهد أن الله نسبه إليه نسبة خاصة بإفاضة الأنوار عليه المقتضية لإعزامه وإكرامه، قال: كيف لا أستعز وإليك نسبْتني، وإذا شاهد الفقر الذاتي الذي هو صفة له، قال: كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أقمتني؟ وإذا شاهد أن الله أفاض عليه مواهب إحسانه قال: كيف أفتقر وأنت الذي بجودك أغنيتني؟ فالفقر ذاتي للعبد والغنى عارض بإغناء الله له، فلا منافاة بين هذه الأوصاف التي وردت بحسب المشاهد المجملة.

أنت الذي لا إلّه غيرك، تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء، وأنت الذي تعرفت إليّ في كل شيء فرأيتك ظاهراً في كل شيء، فأنت الظاهر لكل شيء.

أي تعرفت لكل شيء بما أودعته فيه من النور حتى عرفك، فما جهلك شيء حتى الحيوانات العجم، بشهادة: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾[1] ومن حصل منه الجهل والكفر في حالة الاختيار، فإنه يرجع عن جهله في حالة الاضطرار. ويزول عنك أيها المريد هذا الاشتباه بتلاوة: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تَدْعُونَ إلا إياه﴾[2]. وقوله: وأنت الذي تعرفت إليّ؛ أي بما أودعته في قلبي من أنوار المعرفة واليقين، فرأيتك ظاهراً في كل شيء. وفرّع

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٤٤)، وتمامها: ﴿تُسَبِّحُ له السماواتُ السبعُ والأرضُ ومن فيهن وإنْ من شيءٍ إلا يُسَبِّحُ بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾.

(٢) سورة الإسراء: الآية (٦٧)، وتمامها مع التي قبلها: ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في =

على ذلك قوله: فأنت الظاهر لكل شيء.

يا من استوى برحمانيته على عرشه فصار العرش غيباً في رحمانيته، كما صارت العوالم غيباً في عرشه، محقتَ الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار.

قال ابن عباد: كأنه أشار بهذا إلى معنى قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش الرحمنُ﴾[2] ورحمانية الله تعالى كونه رحماناً، والرحمن اسم الله تعالى يقتضي وجود كل موجود وهو مشتق من الرحمة، والرحمة ههنا هي الرحمة العامة التي وسعت كل شيء، كما وسع علمه كل شيء في قوله تعالى مخبراً عن حملة العرش إذ قالوا: ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً﴾[3] ولذلك دخلت تحت مقتضى اسمه تعالى (الرحمن) جميع أسمائه تعالى الإيجادية، ويفهم من معنى الاستواء القهر والغلبة ومقتضاهما في حق الله تعالى، أن لا يكون لغيره وجود مع وجوده، ولا ظهور مع ظهوره، فلا جرم لمَّا كان الحق تعالى مستوياً برحمانيته على عرشه الذي العوالم كلها في طيه، كان العرش[4] غيباً في الرحمانية والعوالم كلها غيباً في العرش لأنها في طيه فلا ظهور إذاً للعرش ولا للعوالم، وإنما الظهور التام لله عزّ وجلّ. اهـ ولذا قال: محقت الآثار؛ أي العوالم بالآثار أي العرش، ومحوت

= البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً * وإذا مسَّكم الضرُّ في البحر ضلَّ من تدعون إلا إيّاه فلمّا نجاكم إلى البرِّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾.

(١) سورة طه: الآية (٥).

(٢) سورة الفرقان: الآية (٥٩)، وتمامها مع التي قبلها: ﴿وتوكَّلْ على الحيِّ الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً * الذي خلق السماواتِ والأرضَ وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمنُ فاسأل به خبيراً﴾.

(٣) سورة غافر: الآية (٧)، وتمامها: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يُسَبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾.

(٤) قوله (كان العرش...) جواب لـ (لمَّا) المتقدمة.

الأغيار؛ أي العرش بمحيطات أفلاك الأنوار، أي بالرحمة الشبيهة بالأفلاك المحيطة بالعرش.

يا من احتجب في سرادقات عزه عن أن تدركِه الأبصار، يا من تجلى بكمال بهائه فتحققت عظمته الأسرارُ. كيف تخفى وأنت الظاهر، أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر؟ والله الموفق وبه أستعين.

أي يا من امتنع بعزه المنيع الشبيه بالسرادقات ـ بضم السين المهملة جمع سرادق، وهي في الأصل الخيمة التي تمد فوق صحن الدار ـ فكما أن الخيمة تمنع من رؤية ما بعدها، فكذلك **عزة الله**؛ أي قوته العظيمة تمنع الأبصار عن رؤيته تعالى. وقوله: **يا من تجلى**. أي على قلوب العارفين. **بكمال بهائه** أي ببهائه الكامل، والمراد محاسن صفاته الجمالية والجلالية. **فتحققت عظمته الأسرار**، أي بواطن القلوب. **كيف تخفى وأنت الظاهر** في جميع الأشياء، **أم كيف تغيب وأنت الرقيب**؟ أي المراقب لنا **الحاضر** معنا. قال تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾[1] وقد تقدم معنى هذا الكلام للمصنف مراراً، ولحلاوته لا سيما في المناجاة زاده تكراراً، فإن المكرر أحلى وعند ذوي العرفان أعلى. كما قال بعض العاشقين:

وحدَّثْتَني يا سعدُ عنها فزدتني حيـاةً فزِدْني من حديثك يا سعدُ

جعلنا الله من سعداء الدارين بجاه سيد الكونين. وقد تم ما وفقنا الله لإيراده على هذه الحكم، وله الحمد والشكر على ما أسدى من جزيل النعم، في يوم عرفة بالجامع الأزهر ومنبع العلوم الأنور، سنة ثلاث وثلاثمائة وألف من هجرة من حاز كمال الشرف صلى الله عليه وعلى آلـه الكرام وأصحابه بدور التمام، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

---

(١) سورة الحديد: الآية (٤)، وتمامها مع التي قبلها والتي بعدها: ﴿هو الأولُ والآخرُ والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم * هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير * له ملك السموات والأرض وإلى الله تُرْجَعُ الأمور



الفهارس العامة



فهرس الآيات القرآنية

الآيـة | الصفحـة

فهرس الأحاديث الشريفة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة
«من سرته حسنته...»	٥٧
«من شغله ذكري عن مسألتي...»	١٠١، ١٢٣
«من لم يسأل الله يغضب عليه...»	٤٩
«نعم صهيب لو لم...»	١٣٥
«وجعلت قرة عيني في الصلاة...»	٧٠، ١٨٩
«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك...»	١٦٠

فهرس الأعلام

فهرس موضوعات الحكم العطائية للمتقي الهندي

مرتباً على الموضوعات في ثلاثين باباً(*)

(*) ورد هذا الفهرس في طبعة أحمد عبيد ـ صاحب المكتبة العربية بدمشق ـ وقد عزا هذا الترتيب إلى الشيخ علاء الدين بن حسام الدين عبد الملك بن قاضي خان المعروف بالمتقي الهندي المتوفى سنة (٩٧٥) وسماه «المنهج الأتم في تبويب الحكم».

١٢ ـ باب الخوف والرجاء، وفيه تسع حكم: ١، ٤٠، ٧٨، ١٢٤، ١٤٩، ١٨١، ١٩٧، ٢٠٢، ٢١٩.

١٣ ـ باب آداب الدعاء، وفيه سبع عشرة حكمة: ٦، ٧، ٢١، ٣٨، ٣٩، ٧٥، ١٠٢، ١٠٩، ١٢٨، ١٢٩، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٩١، ٢٠٧.

١٤ ـ باب التسليم لأمر الله تعالى وترك الاختيار، وفيه تسع حكم: ٢، ٣، ٤، ٥، ١٧، ١٩، ٢٥، ١١٤، ١٧١.

١٥ ـ باب الصبر على البلاء والشدائد، وفيه أربع حكم: ٨، ٢٤، ١٠٥، ١٠٦.

١٦ ـ باب في ذكر خفايا ألطافه تعالى ومنته على العباد، وفيه خمس وعشرون حكمة: ٧١، ٨٣، ٨٤، ٨٨، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ١٠١، ١٢٣، ١٣١، ١٣٤، ١٤٧، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٩، ١٧٠، ٢١١، ٢١٤، وبقية ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٥، ٢٥٧.

١٧ ـ باب الصحبة، وفيه ثلاث حكم: ٤٣، ٤٤، ١٣٥.

١٨ ـ باب الطمع، وفيه ثلاث حكم: ٦٠، ٦١، ٦٢.

١٩ ـ باب التواضع، وفيه أربع حكم: ٩٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠.

٢٠ ـ باب الاستدراج، وفيه حكمتان: ٦٥، ٦٦.

٢١ ـ باب الورد والوارد، وفيه خمس عشرة حكمة: ٩، ٤٦، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٦٧، ٦٩، ١١٣، ١٨٩، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢١.

٢٢ ـ باب تفاوت مراتب السالكين مبتدئاً ومنتهياً، وفيه خمس عشرة حكمة: ٢٩، ٣٠، ٣١، ٥٩، ٦٨، ١١١، ١٣٣، ١٧٩، ١٨٨، ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٩، ٢٦٠، ومكاتبة ١.

٢٣ ـ باب القبض والبسط، وفيه أربع حكم: ٨٠، ٨١، ٨٢، ١٥٠.

٢٤ ـ باب الأنوار ورؤيتها، وفيه إحدى عشرة حكمة: ٥٥، ٥٦، ٥٧، ١٠٤، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٥١.

٢٥ ـ باب قرب العبد من الله تعالى تخلقاً وتعلقاً، وفيه تسع حكم: ١٢٥، ١٢٦، ١٣٠، ١٧٨، ٢١٣، ٢١٤، ٢٤١، ٢٤٦، ٢٤٩.

٢٦ ـ باب قرب الله من المخلوقات وظهوره من الأشياء؛ تعريفاً ودلالة، وفيه ست وعشرون حكمة: ١٤، ١٥، ١٦، ٣٣، ٣٦، ٣٧، ٤١، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٤، وبعض ٢٣٥، ٢٤٧.

٢٧ ـ باب في خصائص العارف، وفيه أربع حكم: ٧٧، ٧٩، ١٠٣، ١٤٦.

٢٨ ـ باب التفرس والاستدلال بالشيء على الشيء، وفيه عشر حكم: ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٦، ١٨٠، ١٩٣، ٢٥٢.



فهرس موضوعات الحكم العطائية للشرنوبي

(١) اعتمدنا فهرس الشيخ الشرنوبي ـ رحمه الله تعالى ـ كما جاء عقب شرحه للحكم. وهو عبارة عن عناوين فحوى الحكم وشرحها، وقد يكون عنواناً لأكثر من حكمة.

مصادر ومراجع التعليق

القرآن الكريم

أبو بكر الصديق — محمد رضا

إحياء علوم الدين — الغزالي

الأدب المفرد — البخاري

أسنى المراتب — الحوت

الإصابة في تمييز الصحابة — ابن حجر

الأعلام — الزركلي

الأفراد — الدارقطني

الألقاب — الشيرازي

الأوسط — الطبراني

تاريخ بغداد — الحافظ العراقي

تاريخ البخاري — البخاري

الترغيب والترهيب — الحافظ المنذري

التعريفات — الجرجاني

تفسير النسفي — السنفي

جامع الأصول — ابن الأثير

الجامع الصغير — السيوطي

جامع العلوم والحكم — ابن رجب الحنبلي

الجامع لأحكام القرآن — القرطبي

حلية الأولياء — أبو نعيم

الرسالة القشيرية — القشيري

الزهد	أحمد بن حنبل
السراج المنير	الشربيني
السنن	البيهقي
سنن أبي داود	أبو داود الطيالسي
سنن الترمذي	الترمذي
سنن النسائي	النسائي
شذرات الذهب	ابن العماد
شرح جوهرة التوحيد	الصاوي
شرح السنّة	البغوي
شعب الإيمان	البيهقي
صحيح البخاري	البخاري
صحيح مسلم	مسلم
صحيح ابن حبان	ابن حبان
صفة الصفوة	ابن الجوزي
الطبقات الكبرى	الشعراني
طبقات الصوفية	السلمي
العظمة	أبو الشيخ
فتح الباري	الحافظ ابن حجر
الفتوحات الإسلامية	زيني دحلان
فوات الوفيات	الكتبي
فيض القدير شرح الجامع الصغير	المناوي
القاموس المحيط	الفيروزأبادي
الكبير	الطبراني
كشف الخفاء	العجلوني
كشف الشبهات عن المشتبهات	الشوكاني
كشف الظنون	حاجي خليفة
اللباب	ابن الأثير
لسان العرب	ابن منظور
مجمع الزوائد	الهيثمي

الكتاب	المؤلف
مختار الصحاح	الرازي
مختار القاموس المحيط	الزاوي
المختارة	الضياء المقدسي
المستدرك	الحاكم
مسند أحمد	أحمد بن حنبل
مسند ابن ماجه	ابن ماجه
مسند ابن أبي الدنيا	ابن أبي الدنيا
مسند الدارمي	الدارمي
مشكل الآثار	الطحاوي
مشكل الحديث	ابن قتيبة
المصباح المنير	الرافعي
معجم المؤلفين	عمر رضا كحالة
المقاصد الحسنة	السخاوي
مقدمة ابن الصلاح	ابن الصلاح
موارد الظمآن	ابن حبان
الموطأ	مالك بن أنس
الموضوعات الصغرى	ملا علي القاري
الميزان	الذهبي
نوادر الأصول	الحكيم الترمذي
وفيات الأعيان	ابن خلكان

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	٦	فرفور	الفرفور
٦	١٣	—	نقص في الآية الكريمة : الله قبل أولياء
١٠	٥	لهمام	الهمام
٨		حمزة	جمرة
١٤		التيسر	التيسير
١٥	الحاشية ٤	آية	الآيات
٦	أول سطر في الحاشية	العارفين	العاشقين
١٨	الحاشية ٢	مستقفرها	مستقرها
١٨	الحاشية ٣	والذي	والذين
١٩	١٠	يختاه	يختاره
٢٣	١٤	التبرىء	التبرؤ
٢٤	الحاشية ٢	التيميم	التميمي
٢٦	٥	الحلق	الخلق
٢٨	١٤	المنسكبة	المنسبكة
٢٨	الحاشية ٢ سطر ٢	غمازة	غُمارة
٢٩	٣	محي	محيي
٣١	الحاشية ١ سطر ٢	فيها	فيهما
٤٨	١١	تخطاه	تتخطاه
٤٩	١٦	حسن	فحس
٤٩	١٧	حُسْناً	حَسَناً
٦٨	٧	ومما	وما
٧٢	١	نعمة	نعمه
٧٨	٣	ماد	عاد
٨٨	٤	لله	الله
٩٠	٣	العبودة	العبودية
٩٠	١٦	وتُسرِءِ	وتُسيءِ
٩١	٩	(١١)	(١١١)
٩١	١٤	التمكيين	التمكين
٩٤	الحاشية رقم ١	وفس	وفي
١١٢	٨	ثاناً	ثانياً
١١٩	١٣٠	إينا	إنما
١٢٢	الحاشية ٢ سطر ٢	صفار	صغار
١٣٣	١٤	تبضيع	تضييع
١٢٧	٤	دليلل	دليل
١٦٦	١٢	متفقرين	مفتقرين
١٨٤	٤	يصرني	ينصرني
١٨٥	٢	إلى	أنَّ
١٩٠	٥	خضوهم	خوضهم
١٩٦	١٠	بالخواتم	بالخواتيم
٢٠١	١٧	مجبتي	محبتي
٢١١	٤	نسبتي	نسبتني
٢١١	٩	لإعزامه	لإعزازه